روايات تاريخ الإسلام

١٧ رمضان

تتضمن تفصيل مقتل الإمام علي وبسط حال الخوارج
وتتمة الفتنة التي حدثت بسبب مقتل الخليفة عثمان
واستئثار بني أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

obeikandl.com

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

obeikandl.com

أبطال الرواية

* **علي بن أبي طالب** : رابع الخلفاء الراشدين.
* **معاوية بن أبي سفيان** : أول ملوك الدولة الأموية.
* **عمرو بن العاص** : والي مصر.
* **قطام بنت عدي** : غادة الكوفة.
* **العجوز لبابة** : مربية قطام.
* **سعيد الأموي** : عاشق قطام.
* **عبد الرحمن بن ملجم** : قاتل الإمام علي.
* **الحسن والحسين** : ابنا علي.
* **عمرو بن بكر** : المتآمر لقتل عمرو بن العاص.
* **البرك بن عبد الله التميمي** : المتآمر لقتل معاوية.

obeikandl.com

مراجع رواية ١٧ رمضان

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ ابن الأثير .
* التقويم العام .
* تاريخ الخميس .
* السيرة الحلبية .
* أسد الغابة .
* مروج الذهب للمسعودي .
* تاريخ المقريزي .
* تاريخ ابن دقاق .

obeikandl.com

- ١ -
فذلكة تاريخية

الخوارج جماعة من رجال الإمام علي بن أبي طالب نقموا عليه قبوله التحكيم على أثر وقعة صفين، وكانوا قبل ذلك في مقدمة الذين حرضوه على قبوله. لكنهم لما رأوا التحكيم أدى إلى خروج الخلافة من يده إلى يد معاوية بن أبي سفيان نقضوا بيعته ونبذوا طاعته، وطمعوا فيها لأنفسهم فبايعوا واحداً منهم يُدعى عبد الله بن وهب، وحاربوا تحت رايته زمناً.

ولما صدر حكم الحكمين بخلع عليّ وتثبيت معاوية اشتد أزر معاوية، وبويع بالخلافة في الشام.

وكان الخوارج ما زالوا في بدء أمرهم. فأخذ عليٌّ يتجهز لحرب معاوية. وفيما هو في ذلك جاءه الخبر بتألب الخوارج وتمردهم، فنصح لهم بالطاعة وبيّن لهم أنه لم يخطىء بقبول التحكيم وأنه لم يقبله إلا إجابة لطلبهم، ولكنهم لم يرتدعوا. فرأى أن يستأصل شأفتهم قبل خروجه إلى معاوية، فحاربهم في مواقع عدة أشهرها موقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من بغداد، وقد انتصر فيها عليهم نصراً مبيناً وتشتت شملهم، على أنهم عادوا إلى الاجتماع في الخفاء.

وفي سنة ٣٨ هـ فتح عمرو بن العاص مصر، وقُتل محمد بن أبي بكر عاملها، وتولاها باسم معاوية. فأصبح معاوية خليفة في مصر والشام، وجعل مقامه دمشق، وبقي علي بن أبي طالب خليفة في العراق والجزيرة والحجاز واليمن، وجعل مقامه الكوفة.

ثم أخذ معاوية يبعث سراياه إلى بلاد الإمام عليٍّ يبغي فتحها ليستأثر بالخلافة. فأنفذ جنداً إلى مكة، وآخر إلى اليمن، وثالثاً إلى الجزيرة، وظلوا يحاربون ويناوئون ولكنهم لم يبلغوا أرباً حتى دخلت

سنة أربعين للهجرة، فتأهب الإمام عليٌّ للخروج إلى قتال معاوية، في جيش قوامه أربعون ألفاً من أنصاره بايعوه على الفوز أو الموت. وفيما هو في ذلك فاجأه القدر فمات مقتولاً كما سنرى تفصيل ذلك في هذه الرواية.

- ٢ -
غادة الكوفة

الكوفة مدينة إسلامية، مصَّرها سعد بن أبي وقاص أحد كبار الصحابة، في السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح العراق، وكان عمر قد أشار عليه «بأن يقيم في مكان لا يحول بينه وبين المدينة بحر ولا جسر حتى إذا أراد أن يقدم إليه على راحلته قدم». فبنى الكوفة غربي الفرات على شاطىء بحيرة كانت هناك بقرب مكان الحيرة، بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلاً.

وكان بناؤها في أول أمرها بالقصب، فأصابها حريق فاستأذنوا الخليفة في بنائها باللبن فقال: «افعلوا، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنّة يلزمكم الدولة». ففعلوا وجعلوا طرقها نوعين: المناهج وعرض كل منها عشرون ذراعاً، والأزقة وعرض كل منها سبعة أذرع. وما بين المناهج أماكن البناء وقدرها أربعون ذراعاً، والقطائع وقدرها ستون ذراعاً.

وكان المسجد أول شيء خطّوه فيها، فوقف في وسط المدينة رجل شديد النزع رمى إلى كل جهة بسهم، ثم أقيمت المباني فيما وراء السهام، وترك ما دونها للمسجد وساحته. وبنوا في مقدمة المسجد ظلة أو رواقاً أقاموه على أساطين من رخام كان الأكاسرة قد جلبوها من أخربة الحيرة. وجعلوا على الصحن خندقاً لئلا يتقحمه أحد

ببنيان، وبنوا لسعد بن أبي وقّاص قصراً بجانب المسجد نقلوا حجارته من آجر بنيان الأكاسرة وسموه قصر سعد.

وقد زاد عمران الكوفة حين اتخذها الإمام عليٌّ مقراً له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ. إذ تقاطر إليها المسلمون من جميع الأنحاء، وتكاثرت فيها الأبنية وعمّرت الأسواق وأنشئت حولها الحدائق والبساتين مما يلي بحيراتها.

وكان في ضاحية الكوفة على شاطىء البحيرة حديقة من نخيل، حولها سور من جذوع النخل يحيط بها إلا من جهة البحيرة، وفي وسط الحديقة بيت مبني من اللبن، يدل جمال بنائه على أن سكانه من أهل اليسار، وقد يخيل إليك إذا دخلت حديقته أنه مسكن بعض الأمراء ذوي الخدم والحشم، لما يُرى بين نخيلها من آثار المعالف والأوتاد والسلاسل والقيود، ولتآكل جذوع بعض النخيل من كثرة شد الأمراس إليها وتعوّد الخيل تقشيرها وهي مشدودة إليها.

ففي ليلة من أوائل السنة الأربعين للهجرة، والوقت خريف، وقد نضج الثمر على نخيله وليس مَن يقطفه، فتساقط بعضه على الأرض وليس مَن يلتقطه. كان القمر بدراً وقد أطل من وراء الآكام فأرسل ظلال النخيل مستطيلة متقاطعة، وكان الجو هادئاً والسكوت سائداً لبعد المكان عن المدينة وضوضائها، فلم يكن يُسمع غير نقيق الضفادع على شاطىء البحيرة يتخلله صرير الصراصير وقرقرة القر. وربما هبّ النسيم فأسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع. ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراه من آثار الإنس ودلائل الأبهة.

وهناك في المنزل المؤلف من ثلاث غرف متصل بعضها ببعض، وقد فُرشت أرضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز،

وضعت في إحداها طنفسة جميلة عليها وسائد من الخز، ووضع في بعض جوانبها مصباح ضعيف النور، وجلست على إحدى الوسائد فتاة في مقتبل العمر أشرق وجهها بماء الشباب، وقد حلت شعرها الأسود فأرسلته على كتفيها فحجب بعض جبينها، وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنه زاد عينيها كحلاً وإشراقاً. ولكن عينيها الدعجاوين البراقتين قد غشيهما الدمع فأخذ ينحدر على وجنتين محمرتين بينهما أنف دقيق مستقيم تحته فم صغير. فإذا ازداد انسكاب الدمع تلقته بأطراف جدائلها أو بأحد كميها. وكانت لابسة جلباباً أسود زادها جمالاً وفتنة. وكأن هذه الغادة استأنست بوحدتها فأطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا حسيب فأخذت تندب فقيدين عزيزين قتلا في يوم واحد.

تلك هي «قطام بنت شحنة بن عدي» من قبيلة الرباب، فتاة الكوفة الفتانة التي ذاع صيتها في الآفاق وسمع بجمالها القاصي والداني حتى أصبحت فتنة الكوفيين ومضرب أمثالهم، وشخصت إليها الأبصار وحامت حولها القلوب، فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هماً ولم تذق غماً حتى بُلِيَت بقتل أبيها وأخيها معاً في وقعة النهروان، إذ كانا من جملة الخوارج الذين نقموا على الإمام عليٍّ لقبوله التحكيم فانضموا إلى مَن نقض بيعته وحاربوا في جملة مَن حاربه.

وكانت قطام ثابتة الجأش شديدة الميل إلى الانتقام ذات حيلة ودهاء، ما انفكت منذ قتل أبيها وأخيها وهي تندبهما وتلتمس الانتقام لهما، ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقر الإمام عليٍّ ومجتمع أنصاره وشيعته. فأقامت بمنزلها هذا في ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل رُبِّي في أهلها منذ صباه، وقد

هجرها بعد أن بُلِيَت بمصيبتها جميع الخدم والأعوان ما عداه. وكانت ترتاح إلى بث شكواها له، وكان هو يخفف عنها ويعدها بنيل المرام.

وفي أصيل ذلك اليوم، كانت قد أنفذته ليستقدم لها عجوزاً من مولدات الكوفة، كانت قد رُبّيت بين ذراعيها منذ نعومة أظفارها وهي تحن إليها حنينها إلى أمها، فلما طال غيابه وسدل الليل نقاباً ولم يعد، شغلت بذلك عن أحزانها وهواجسها وهي وحيدة في هذا البيت. ولكنها كانت إذا سكتت هنيهة تذكرت أباها وأخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود إلى البكاء والنحيب.

وفيما هي في ذلك سمعت وقع أقدام مسرعة عرفت أنها خطوات عبدها ريحان، فأجفلت ولكنها استأنست به فوقفت وأسرعت لاستقباله. وكان ريحان طويل القامة، شديد السواد، خفيف العضل، سريع الحركة، جاحظ العينين، أفطس الأنف، عظيم الوجنتين، بارز الأسنان يزيدها بروزاً تدلي شفته السفلى وانحسار شفته العليا. وكان يتفانى في خدمة سيدته فابتدرها بالسلام. فقالت: «ما الذي أخّرك يا ريحان وأنت تعلم أني وحيدة هنا. أين العجوز لبابة؟».

قال: «إنها قادمة على أثري».

قالت: «وما سبب غيابك حتى الآن؟».

قال: «كنت في انتظارها وهي تخاطب شاباً وتجادله...».

قالت: «ومَن هو هذا الشاب؟».

قال: «لا أدري.. وهذه هي قد أقبلت وستقص عليك الخبر مفصلاً».

وما أتم كلامه حتى دخلت العجوز تتوكأ على عكازها وقد

احدودب ظهرها ونال منها الكبر فزادها قصراً ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب، وكانت عمصاء العينين غائرة الفم لخلوه من الأسنان، مجعدة الخدين غائرتهما. فتقدمت إلى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب أسود تجرّه وراءها لطوله وقصرها. وحالما دنت منها قبّلتها وأخذت تخفف عنها وتقول: «لا بأس عليك يا ابنتي، اعذريني لإبطائي في الحضور».

فلم تزدد الفتاة إلا بكاء وهي تقول: «ما الذي يشغلك عني يا خالة وأنت تعلمين أن ليس لي معزٌ في أحزاني سواك».

قالت: «هوّني عليك يا قطام واستريحي، فقد جئتك بالفرج بإذن الله».

قالت: «من أين يأتيني الفرج ولا يفرج كربتي إلا الانتقام؟».

قالت ذلك وحرقت أسنانها وهي تتشاغل بجمع شعرها وإرساله وراء ظهرها. ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وأرسلته على كتفيها فبانت أساورها ودمالجها حول معصمها الممتلىء ونظرت إلى العجوز كأنها تسألها الإيضاح.

فضحكت العجوز وهي تنظر إليها، ثم كفّت عن ضحكها فجأة وكأنها تذكرت أمراً محزناً فاستاءت قطام من ضحكها وهي تبكي وقالت: «ما بالك تضحكين؟ أتهزئين بكلامي. إني والله لا أقنع بما دون الانتقام».

فأمسكتها العجوز بيدها وأقعدتها على الوسادة وجلست إلى جانبها، ونظرت إلى ريحان نظرة فهم منها أنها تريد خروجه لتخلو إلى قطام. فخرج.

فلبثت قطام تنتظر ما تقوله العجوز. فإذا بها تظل كأنها تتهيأ

لحديث طويل ثم قالت: «وماذا تريدين يا قطام؟».

قالت: «أريد أن أثأر لأبي وأخي اللذين قتلهما عليٌّ ظلماً، ولا بد لي من الانتقام».

قالت العجوز: «ما قولك في أني وجدت لك مَن يأخذ لكِ بثأرك؟».

قالت: «من هو؟ قولي».

قالت: «اصبري ولا تكوني لجوجة. أتعرفين سعيداً؟».

قالت: «وأي سعيد؟». قالت: «سعيد الأموي الشاب الجميل الواقع في هواك».

قالت: «دعينا من الحب والغرام وحدثيني عن الانتقام».

قالت: «سبحان الله! أجيبيني عن سؤالي. ألا تعرفين هذا الشاب المغرم بك، المفتون بسواد عينيك؟».

فتململت وقالت: «نعم أعرفه، وماذا في معرفته؟ بالله عليك لا تذكري الغرام، إني لا أشعر بعاطفة الحب، ولا يهمني أحبّني الناس أم أبغضوني».

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت: «يا للعجب! ما أكثر لجاجتك. إذا كنت تعرفين سعيداً هذا فهل تحبينه؟».

فأجابت على الفور: «لا. لا. لا أحبه، ولا أحب أحداً، إن قلبي في شاغل عن الحب بالبغض، إني أبغض بعض الناس ولا أحب أحداً».

قالت: «إذا كان لا بد من الانتقام فيجب أن تحبي سعيداً».

قالت: «كيف أحبه وليس في قلبي موضع لغير البغض

والحقد. إني حاقدة ناقمة».

قالت: «أنا أعلم ذلك، ولكن أحِبي سعيداً ولو إلى حين وهو ينتقم لك».

فبغتت قطام، ونظرت إلى العجوز وجعلت تتفرس فيها لتتحقق أنها تجد ولا تهزل، فلما آنست الجد في لهجتها قالت: «هل تقولين حقاً؟ وهل سعيد يرضى أن يركب هذا المركب الخشن؟».

قالت: «إني أجعله يركبه، فإن لم يكن أهلاً له فهو ليس أهلاً لحبك، ما رأيك؟».

فصمتت هنيهة ثم قالت: «أحبه؟ نعم أحبه إذا كان الأمر كذلك ولو إلى أجل قريب. ولكنني لا أظنه أهلاً لهذا العمل، بل لا أحسبه يقدم عليه. ولكن قولي لي هل تتكلمين من عند نفسك أم سمعت ذلك منه؟».

فاعتدلت العجوز في مجلسها، ونظرت إلى قطام وقالت: «اعلمي يا حبيبتي أن سعيداً هذا قد علِق بك وأحبك منذ بضعة أعوام، ولكنه لم يكن يتجرأ على مخاطبة أبيك في الأمر، لأن أباك كان يومئذ في جملة القائمين بنصرة عليٍّ، وسعيد كما تعلمين أموي، أي إنه ممن نقموا على عليّ وقاموا للمطالبة بدم عثمان. فكان يعلم أنه إذا خطبك من أبيك يومئذ فلن ينال غير الفشل، أما بعد أن خرج أبوك على خلافة علي، ونبذ طاعته في جملة مَن خرجوا عليه بعد التحكيم، فقد حدثت سعيداً نفسه بأن يخطبك، فكلمني في شأنك مراراً. ولكن أباك كان مشغولاً بمحاربة عليٍّ وشيعته فلم أتمكن من التوسط له. فلما علم بقتله وقتل أخيك. واحسرتاه عليهما (وتنهدت وهي تتظاهر بمسح دموعها) عاد إلى مخاطبتي في ذلك. وقد كنت أسوّفه لعلمي بحزنك الشديد، ولكنه لم يزل يتردد عليَّ ويستنهضني واعداً

بأن يبذل كل مرتخص وغال في سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل، إلى أن جاءني اليوم وأعاد الكرّة وألح كثيراً، فلمحت له إلى أنه أطمع في رضاك، فلا سبيل إلى ذلك سوى الانتقام لأبيك وأخيك، وقد آنست منه ارتياحاً فأطلت الكلام معه وريحان في انتظارك، وهذا هو سبب غيابي عنك. فما قولك؟».

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت: «وهل ترينه يفي بالعهد، أو يستطيع قتل عليٍّ بن أبي طالب. إني لا أقبل مهراً أقل من ذلك».

قالت: «أظنه يقبل، وأرى أن أستقدمه إليك، ونظراً إلى ما أعهده فيك من المهارة لا أشك في أنه يأخذ على نفسه العهد أن يقوم بكل ما تريدينه، ولا سيما إذا أظهرت له ميلاً، وذكرت له أنك تحبينه، وتفننت في أساليب الدلال والتمنع، مشترطة أنك لا تتزوجين منه إلا بعد قتل عليٍّ فإذا عاهدك على هذا صبرنا حتى يقتله، فإذا لم يفعل، أو لقي حتفه، كان دمه على رأسه والسلام. ما قولك؟».

فأشرق وجه قطام وارتاحت إلى هذا الرأي وقالت: «لا بأس بما أشرت به. استقدميه لنرى ما يكون. ولكن لا تنسي أن تذكري له إني لم أقبل بعد، وبالغي في وصف تمنعي، وعليَّ بعدئذ أن أكمل الحيلة».

فأغرقت العجوز في ضحكها وقالت: «سامحك الله يا قطام، ألا تزالين تحسبينني ساذجة، وهل تجهلين أين قضيت هذه الشيبة؟ إني قضيت عمري في مثل هذه الشؤون، فكم زوّجت من رجال، وكم أقنعت بالزواج نساء كان قبولهن إياه ضرباً من المحال. لا تخافي عليَّ، كما إني لا أخاف عليك». قالت ذلك ونادت ريحان فأسرع

إليها. فقالت له: «هل تعرف الشاب الذي كان عندي الليلة؟».

قال: «نعم أعرفه»، قالت: «سر إليه، إنه ما زال في المنزل حيث رأيتنا الليلة، وقل له: (خالتك لبابة تدعوك إليها)..».

قال: «وإذا أبى، فماذا أقول له؟».

قالت: «لا أخاله يأبى، بل سيسبقك في المجيء، فاذهب وأدعه». قال: «سمعاً وطاعة». وخرج.

كان سعيد شاباً أموياً في حوالي الثلاثين من عمره، توفي أبوه وهو طفل فكفله جده وقضى صباه وشبابه مع جده في منزل الخليفة عثمان وكانا من أخلص مريديه. فلما قُتِل عثمان كان سعيد وجده في مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمه. فلما كانت موقعة الجمل كان سعيد في جملة رجال أم المؤمنين، وظل جده مقيماً بمكة لشيخوخته، فلما فشل جند أم المؤمنين وعادت إلى مكة عاد هو معها وظل عند جده ولم يخرج لموقعة صفين.

ولكنه كان يتردد على الكوفة، وكان يسمع بقطام هذه وجمالها، وقد رآها مراراً وهي بالخمار فوقعت من نفسه موقعاً عظيماً ولكنه لم يجرؤ على التقدم لخطبتها، لأن أباها كان قبل تحكيم الحكمين من شيعة الإمام عليٍّ فلم يكن ليزوج ابنته بأموي يطالب بدم عثمان. فلما خرج الخوارج عن طاعة الإمام عليٍّ بعد التحكيم، استبشر سعيد وأمِل نيل مرامه، ولكنه لم يتمكن من السعي في طلبها إلا بعد مقتل أبيها وأخيها. فجاء إلى لبابة ووسطها في الأمر، فاستخدمت هذه كل دهائها في إغرائه بقتل عليٍّ، وتركت بقية الحيلة لقطام لعلمها أنها لا تقلّ عنها دهاء ومكراً.

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار، وبخاصة فيما يتعلق بدهاء العجائز. ولكنه كان جميل الصورة معجباً بجماله وقد أعمى

غرامه بصيرته فلم يعد يرى غير قطام أو يحلم إلا بها. فلما جاء العجوز في تلك الليلة وخاطبها في شأنها وأظهرت ما أظهرته من التمنّع ازداد رغبة فيها وبذل كل ما في وسعه من الوعود في سبيل إرضائها، وأغرى العجوز بكل ما يرضيها من المال والحلي فوعدته أن تسعى في ترغيبها، ومضت وتركته يتقلب على جمر الانتظار.

فلما جاءه العبد يدعوه إليها خفق قلبه وهرول مسرعاً يتعثر بأذياله فاخترق أسواق الكوفة وهو لا يرى شيئاً مما فيها لاضطرابه وتهيبه اجتماعه بقطام منى قلبه وغاية مرامه، فكان إذا تصور رضاءها أشرق وجهه وطار فرحاً، ثم يعترض تصوره ما آنسه في حديث العجوز من أن الفتاة تتمنع، ويتذكر ما بدر منه من الوعد بالانتقام، فتنقبض نفسه ويضطرب لهول الموقف. على أن هيامه كان يهوّن عليه كل عسير ويصور له المحال ممكناً، فخيّل إليه أن قطام إذا رأت جماله وتحققت ما هو فيه من الوجد لا تلبث أن تقع في هواه وتغضي عن أمر الانتقام.

وفي ذلك ومثله قطع طريقه، وريحان يخطو أمامه خطواته المتباعدة لطول ساقيه ويحاول الإبطاء في مسيره لئلا يسبق سعيداً ولكنه ينسى ويعود إلى الإسراع، فإذا تنبه إلى أنه قد سبقه عاد يمشي الهوينا حتى يلحق به، كل هذا وسعيد في شغل بأحلامه وأمانيه.

ولما جاوزا المدينة، آنسا سكوتاً لا يسمع فيه إلا صوت الحصى تحت أقدامهما، والكوفة كثيرة الحصى والرمال، حتى وصلا إلى باب البستان ودخلا بين النخيل، فقال ريحان: «امهلني يا مولاي ريثما أدخل المنزل ثم أعود إليك».

فظل سعيد يتمشى بين النخيل، وهو يتشاغل برؤية ظلالها، وبالاستماع لنقيق الضفادع على شاطىء البحيرة، بينما يهيىء نفسه

لمقابلة قطام، فيصلح عمامته ويمشط شاربيه ولحيته، وينفض جبته، ويصلح وضعها.

ولما طال انتظاره قلق وحدثته نفسه بأن يستأذن في الدخول إلى الدار وفيما هو يهمُّ بذلك سمع حركة ومشياً، وبعد هنيهة ظهر له نور عند الباب وسمع ريحان يناديه، فهرول وقلبه يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة، فعثرت رجله بحبل من ألياف النخيل كان مشدوداً إلى جذع نخلة، فكاد يقع، ثم تقدم نحو باب الدار فاستقبلته لبابة مرحبة، ومشت أمامه وريحان يتقدمها بالمصباح، فدخلت به حجرة قطام، ودعته للجلوس على وسادة وجلست هي على وسادة أخرى، وترك ريحان المصباح هناك وخرج.

وكان سعيد يتوقع أن يرى قطام هناك، فلما لم يرها قلق، وزاد في قلقه سكوت لبابة عن الحديث وجمودها. فقال: «ما لي أراك ساكتة يا خالة، ألم ترسلي إليَّ بالمجيء؟». قالت: «بلى».

قال: «وأين قطام؟». فتنهدت وقالت: «هي هنا في الغرفة الأخرى، وسنذهب إليها بعد قليل».

قال: «أراك في قلق. ما الذي جرى. قولي».

قالت: «لم يحدث شيء». وتظاهرت بأنها تكتم خبراً، فقال: «ولكني أراك كئيبة، أخبريني، لقد نفد صبري».

قالت: «لا تقلق يا ولدي، ليس هناك ما يدعو إلى القلق، غير أني مللت من استعطاف هذه الفتاة وترغيبها وتشويقها. فلم أرَ منها إلا البكاء والنحيب ولم أسمع إلا قولها: (الانتقام، الانتقام)، وكل مَن يخاطبها في غير هذا الموضوع لا يسمع منها جواباً».

قال: «ألم تذكري لها شيئاً من حديثي معك؟».

قالت: «كيف لا، إنني لو لم أذكر لها اسمك مشفوعاً بوعدك بالانتقام لما أجابتني». ثم أدنت فمها من أذنه وقالت: «ولكنني آنست من خلال تمنعها أنها ترتاح إلى ذكر إسمك، وأظنها تحبك ولكنها مأخوذة شغلها الانتقام عن الحب، ولذلك سرت لما أخبرتها بوعدك وإن لم تصدق قولي كأنها تحسبني أعبث بها، أو لعلها استبعدت ذلك منك أو خشيت رجوعك فيه لجهلها ما أنت مفطور عليه من الحمية وكرم الأخلاق».

قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيد وصدق وعده. ثم شغلت نفسها بالسعال ومسح آماقها مما يتحلب فيها من الدمع المتواصل من أثر الشيخوخة، وصبرت لترى ما يبدو منه قبل إتمام الحديث.

أما هو فأثر قولها فيه وهاج ما في قلبه فقال لها: «إنني لا ألوم قطام فإنها لا تعرفني بعد، فهي معذورة إذا أساءت الظن بي. ولكن أين هي؟ أريني إياها فأؤكد لها وعدي فتعلم مَن هو سعيد». قالت: «هي هنا».

وأخذت لبابة المصباح بيدها ومشت أمام سعيد إلى حجرة تجلس فيها قطام على أريكة وهي تبكي وشعرها محلول، فلما رأت النور يقترب منها أسرعت فضمت شعرها وأرسلته إلى ظهرها وغطت رأسها بنقاب أسود. ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهي تقول: «خففي عنك يا قطام وارفقي بنفسك واشفقي على شبابك كفاك بكاء ونحيباً، انهضي فسلّمي على محبك سعيد..».

فقطعت قطام كلامها قائلة: «ألم أقل لك لا تذكري الحب والغرام بل اذكري القتل والانتقام، إني لا أحب إلا الانتقام، ومَن ينتقم لي فهو الخليق بأن أعطيه قلبي.. ولكن...».

فتقدم سعيد وقد أصبح بعد رؤية قطام على تلك الحال لا يرى شيئاً غيرها ولا يبغي إلا رضاها وقد شق عليه قولها: (ولكن) لما ينطوي عليه من ضعف ثقتها به، فقال لها: «ألا ترضين يا قطام أن أكون أنا المنتقم لك؟».

قالت وهي تظهر عدم الاكتراث: «لا. لا أرضى أن تعرض نفسك لهذا الأمر من أجلي، فإني أولى منك بركوب هذا المركب الخشن». ثم رفعت يدها وأشارت بسبابتها إلى صدرها وقالت بصوت تتخلله غصة البكاء: «أنا أقتل قتلة أبي وأخي بيدي، أنا أقتلهم. أنا أقتل عليّاً وإن كنت فتاة. إن حب الانتقام يقويني ويشجعني، ولا حاجة بي إلى تعريض سواي لخطر القتل. إنك شاب لا يهمك من أمر عليٍّ شيء فكيف تتصدى لقتله من أجل غيرك، ذلك لا يكون».

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادراً عن شهامة وغيرة حقيقيتين، فازداد رغبة في الإقدام على ذلك العمل. وقال لها: «كيف تقدمين يا مليحة على هذا الأمر وأنا بين يديك. لعلك لا ترين فيَّ الكفاءة، وكيف حسبت أنني لا يعنيني قتل عليٍّ، ألا تعلمين أن بني أمية يطالبونه جميعاً بدم عثمان؟ فإذا قتلته فإني أرضي قومي فضلاً عن إرضاء قطام. إن بذل النفس يسير في سبيل إرضائك، وإذا أذنت لي أن أدعوك حبيبتي فكل شيء هيّن».

فلما تحققت قطام وقوعه في الشرك، أرادت أن تتمكن من عهده بصك تستكتبه إياه، فأمسكت نقابها بيدها وتظاهرت بإصلاحه، فانكشف معصمها عن الأساور والدمالج، وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالاً، ورنت إليه وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به. أما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة، فثارت عواطفه ونظر إلى العجوز كأنه يحرضها على التوسط

في الأمر. فتظاهرت لبابة بأنها تساعده في غرضه وقالت لها: «ألم يكفك ما قاله هذا الشهم؟ ألم أقل لك إن وعده صدق، وفضلاً عن إرضائك بقتل عَلِيٍّ فهو يرضي عشيرته وأهله أيضاً؟ اعلمي يا قطام أنه لا بد من رجل يقتل هذا الخليفة، ومن يسبق إلى قتله يكن صاحب النصيب الأوفر والأجر الأعظم».

فقطعت قطام كلام العجوز قائلة: «أنا أعلم أنه مقتول لا محالة، فإن لم يبق من الرجال مَن يفعل ذلك فعلته أنا بيدي. انظري إلى هذه الحلي في معصمي وأذني، إني لم أنزعها ليس لأني لم أحزن على أبي وأخي، بل لأني واثقة من الانتقام لهما، ومتى أخذت بالثأر فقد أحييت القتيلين فكيف أحزن؟ أما ما قاله سعيد فمروءة منه، ولكن الإنسان يا خالة عرضة للتردد فلعل سعيداً إذا خرج من عندنا يرى رأياً آخر، أو يتهيّب الأمر فيرجع عن الوعد. فأنا لا أريد أن أقيّده بعهد أرى أنه ربما عاد فندم عليه. ولست أقول هذا استهانة بجرأته ومروءته، ولا استصعاباً لقتل عَلِيٍّ فإن قتله من أيسر الأمور، ولكني أخشى أن يكون تقيّد سعيد بهذا العهد على غير رغبته».

هَمَّ سعيد بأن يجيب قطام ليؤكد لها صدق وعده، فأوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنه وقالت: «اسمحي لي يا قطام بكلمة أقولها لك. أنت لا تعرفين سعيداً بعد، ولكنني أعرفه وأعرف صدقه، وأنا أسألك بالنيابة عنه: هل تريدين أن يكتب لك عهداً بأنه يفعل كل ما قاله لك؟».

فلما سمع سعيد ذكر كتابة العهد تهيّب وعظم الأمر عليه، وكأنه صحا من سكره لحظة تبين فيها خطر الأمر، على أنه ما لبث أن عاد إلى سكرة الغرام، ولا سيما بعد ما سمعه من كلام العجوز الدال على ثقتها به.

أما قطام فكانت تنظر إلى كل حركة تبدو من سعيد، فلم يفتها ما جال في خاطره ساعتئذ من الندم وهو يحاول التظاهر بغير ذلك، وأرادت أن تحمله على كتابة العهد فقالت للعجوز: «أراك أقمت نفسك نائبة عنه في أمر لا تصح النيابة فيه، ولعله غير راض به، وفي سكوته دليل على ذلك. فدعينا من هذا الموضوع، ولا تعرضي سعيداً للخطر وأنت تعلمين ما له من المنزلة في قلبي، وإن أكن قلما رأيته، فأفضّل أن أعرّض نفسي للخطر ولا أعرضه».

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية في رأسه، فنهض وقال لها: «أتحسبين سكوتي يا قطام عن تردد أو خوف؟ لا وحبك، فما أنا ممن يضنون بالنفس في سبيل الحب، وقد أكون ترددت في بادىء الرأي. وأما بعد أن علمت بما لي عندك من المنزلة فإني أكتب العهد ولا أرضى إلا بكتابته. هاتوا رقاً ومداداً». فنهضت العجوز مسرعة لإحضار الرق والقلم، وكانت قد أعدت كل شيء قبل مجيئه.

وانتهز سعيد فرصة غيابها وأزاح مقعده وأصلحه بحيث يواجه قطام. أما هي فنظرت إليه وابتسمت وقالت بصوت يتخلله الدلال: «لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبي، ما لنا وللصكوك ألا يكفينا القول؟».

فما آنس سعيد منها هذا التقرب وسمع قولها: «حبيبي» حتى أخذ يبثها حبه وغرامه وتفانيه في سبيلها، وطابت له تلك الخلوة القصيرة وانتشى بمبادلتها إياه عواطف الحب، واعتقد أنه أسعد إنسان على وجه الأرض بفوزه بحبها له. غير عالم بأن قصدها لم يكن سوى إغرائه بقتل عليٍّ وقد أضمرت أنه إذا فشل في مهمته فلن تأسف عليه إذا قُتل.

وأرادت أن يكتب الصك حتى لا يرجع عن وعده.

وأدركت العجوز أن في إبطائها وسيلة لإتاحة الفرصة لقطام كي تتمكن من إغرائه، فأبطأت لغير داع، ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن إيل فيه مداد أسود. فلما رآها سعيد، ورأى الصك في يدها عاوده الخوف، وحدثته نفسه بالرجوع عن الوعد، ولكن الحياء والحب منعاه. ولم يخف تردده على قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو إليها ويقول في نفسه: «ما أسعدني بهذا اللقاء، وما أجمل هذا الحب لولا هذه الشروط». ولم تترك له قطام فرصة للتردد فقالت للعجوز: «لمن أتيت بهذه الأدوات يا خالة؟ أما زلت تصرين على أن يكتب سعيد عهده؟ لا. لا أظنه يكتبه». وابتسمت وهي ترنو إليه، ثم قالت: «وكأني به ندم على ما فرط منه لا عن جبن أو خوف لا سمح الله، ولكنه رأى قطام لا تستحق هذه العناية، وأراه يقول في سرّه: (أَمِنْ أجل امرأة أقتحم مثل هذا الخطر)». قالت ذلك ونظرت إليه نظر المحب العاتب.

فلما سمع سعيد كلامها ورأى دلالها نسي كل الخطر، ولم يرَ له مخرجاً من خجله إلا بالمبادرة إلى تناول الرق، فتناوله من يد لبابة وأمسك القلم وقد أخذ منه الهيام مأخذاً عظيماً حتى توردت وجنتاه واحمرت عيناه. فوقفت العجوز إلى جانبه والمصباح في يدها، فكتب ويده ترتعش ولكنه يتجلد لئلا يبدو ذلك لقطام فتظنه خائفاً وإليك نص كتابه:

«أنا سعيد بن.. الأموي أعاهد قطام بنت شحنة على قتل عليٍّ بن أبي طالب مهراً لزواجي بها، فإذا لم أفعل لم أكن كفؤاً لها، وعلى عهد الله وميثاقه. كتبه سعيد الأموي».

وما فرغ سعيد من كتابة العهد حتى دفعه إلى قطام وهو فخور بما فعل. ليريها أنه ليس جباناً كما ظنته، ولكنه لم يكد يدفعه إليها

حتى شعر بالخطر الذي عرّض نفسه له. على أنه لم يتبين الخطر جيداً لما حال بينه وبين عقله من غيابة الوجد والهيام.

أما قطام فتناولت الرق وقرأته إلماماً، ثم نظرت إلى سعيد وقالت: «يظهر أنك كتبت العهد حقيقة، أليس عاراً على قطام أن تأخذ منك صكاً على عهد عاهدتها عليه في مثل هذا الموقف، كأنك حملت كلامي على محمل الجد، وقد قلت لك الآن: (إني لا أبالي مَن يقتل عليّاً، وإنه إذا لم يقتله أحد فسأقتله أنا). أما وقد كتبته فإني أحفظه عندي تذكاراً لهذه الليلة التي أعدها أحسن ليالي العمر.. وأرجو أن نجتمع قريباً لنيل المرام». قالت ذلك وفي صوتها رنة الدلال.

فصدق سعيد كلامها واطمأن قلبه، ولكنه علم بأنه لا ينال قطام إلا بعد قتل الإمام عليّ بن أبي طالب فعاد الأمر إلى خطورته، فانقبضت نفسه وأراد أن ينفرد بنفسه فاستأذن بالخروج. فقالت له قطام: «امكث عندنا.. أو اذهب لعلك تهتدي إلى سبيل يقرّب جمعنا الدائم». قالت ذلك وابتسمت ورنت إليه، ثم تأوهت وودعته، فخرج سعيد ولبابة تشيعه، فرأيا ريحاناً لا يزال ساهراً في الحديقة يطوف حول المنزل خوفاً من الرقباء والعيون.

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت له: «إني أهنئك برضاء هذه الغادة فقد نلت الليلة ما طالما تلهف عليه أهل الكوفة بل سائر أهل العراق، ومن الغريب أنها كانت مع فرط حزنها لا تنظر إليك إلا وهي تبتسم.. فما أجمل الحب إذا كان متبادَلاً. وأما العهد الذي كتبت فليس من الأهمية في شيء، فهب أنك صادفت خطراً فإن قطام لا ترضى أن تتعرض له». فودعها ومشى يتعثر بأذياله، وكأنه غادر قلبه عند قطام. فلما انفرد عادت إليه هواجسه فتصور خطورة الأمر الذي

أقدم عليه. ولما لم يبقَ له حيلة في الرجوع عن عهده جعل ينتحل لنفسه أعذاراً تخفف قلقه وتحسن له ارتكاب ذلك المنكر. فخيّل إليه أنه إذا قتل علِياً فإنه ينتقم لسائر بني أمية ويفاخرهم جميعاً بما لم يستطعه أحد منهم. فينال حظوة في عيني معاوية فضلاً عن تمتعه بقطام. ولما تصور قربه منها اختلج قلبه في صدره وهانَ عليه كل عسير.

فمشى وهو في هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومر بجامعها القائم في وسط الساحة الكبرى. وكان الجو هادئاً والقمر منيراً فرأى ما يحدق بمنزل الإمام عليٍّ من الأبينة والخيام بمن فيها من كبار بني هاشم من شيعته. وهو يعرف منهم جماعة صناديد لا يهابون الموت. فخارت قواه وكبر عليه الأمر وظل في طريقه إلى منزله يفكر في حيلة ينال بها ما يريد.

وكان منزله في سوق من أسواق الكوفة فوصل إليه وهو يظن نفسه بعيداً عنه، وإنما نبهه جعجعة جمل رابض في فنائه فظنه جَمَلَه وقد عهده في مأواه قبل أن يغادر المنزل. فدخل الفناء فرأى جِمالاً وأُناساً كأنهم قادمون من سفر فبغت. فتقدم إليه واحد منهم ولم يكد يلقي عليه السلام حتى عرف أنه من رجال جده أبي رحاب فذهل ولم يرد التحية وقال له: «ما وراءك يا عبد الله ما الذي جاء بكم؟».

قال: «إننا قادمون من عند جدك مولانا أبي رحاب».

قال: «وما الذي حملكم على المجيء؟».

قال: «جئناك في مهمة عاجلة».

قال: «وما هي؟».

قال: «إن أبا رحاب قد شاخ ووهن عظمه بعثنا يستقدمك

إليه».

فذهل وصاح قائلاً: «وما الذي أصابه. أمريض هو؟».

قال: «مرض الشيخوخة فقط ولكنه مشتاق لرؤيتك وقد أمرنا أن نسرع بالمجيء بك إليه».

قال: «وأين يكون هو الآن؟».

قال: «في مكة».

قال: «أأذهب إلى مكة؟».

قال: «ذلك ما أمرنا به فافعل ما بدا لك».

فلبث مدة صامتاً يفكر ثم مشى وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وسار عبد الله في أثره حتى دخلا المنزل. ثم التفت سعيد وهو ينزع عباءته وقال: «لا بد من أمر ذي بال أقلق جدي فدعاني إليه فهل تعرفه؟».

قال: «لا أخاله دعاك إلا ليراك قبل حلول أجله لأنه شاخ وضعف وأنت تعلم حبه لك وأن ليس له سواك».

قال: «لا حيلة لنا في الأمر فلنبت الليلة ونصبح مسافرين». وقضى ليلته يفكر في قطام وسفره.

ولما أصبحوا ركب سعيد ناقته وركب عبد الله ورفاقه جِمالهم وهَموا بالمسير، فرأى سعيد أن يودع قطام قبل السفر فاستمهل رفاقه وسار يلتمس منزلها وهو في لباس السفر. فلما أشرف على المنزل تذكر ليلته أمس فلم يضطرب لقلقه على جده وقد خاف عليه الموت قبل وصوله إليه. فدخل المنزل فلقي ريحاناً فسأله عن قطام. فقال: «إنها خرجت في أمر وسوف تعود».

فقال: «إلى أين ذهبت؟».

قال: «لا أدري».

فشغل بال سعيد لخروجها في الصباح، وهو لا يرى ما يدعو فتاة مثلها إلى الخروج، فدبت الغَيرة في قلبه وقال: «وهل ذهبت وحدها؟».

قال: «مع لبابة».

قال: «أتظنها تبطىء كثيراً؟».

قال: «لا أدري وربما بقيت إلى المساء أو إلى الغد إذ يخيَّل إلي أنها ذهبت إلى بعض أهلها خارج الكوفة».

دار الحديث بينهما وسعيد يتردد بين أن ينتظر عودتها وبين أن يسير. وتمنى لو يعلم مكانها ليذهب إليها فيودعها ويزيل شيئاً من غَيرته عليها. ولو تحقق مجيئها بعد ساعة أو بضع ساعات لانتظر ولكنه خاف أن يطول غيابها أياماً. فنوى المسير وقال لريحان: «اقرىء قطام السلام عند رجوعها، واذكر لها أني شاخص إلى مكة لأمر عاجل وقد جئت لوداعها فلم أجدها. وسأعود قريباً بإذن الله».

وخرج إلى رفاقه وساروا قاصدين إلى مكة وقلبه في الكوفة، ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه دون أن يرى قطام. ولكنه التمس عذراً لنفسه ما شغله من أمر جده.

- ٣ -

أبو رحاب

وكان أبو رحاب جد سعيد شيخاً طاعناً في السن. ربّى سعيداً في حجره بعد موت أبيه، وكلاهما على دعوة بني أمية في المطالبة بدم عثمان. وكان غرضهما الانتقام لعثمان لأنهما أقاما زمناً طويلاً في منزله. وكان أبو رحاب على حبه لعثمان غير غافل عن أخطائه التي

دعت الناس إلى اضطهاده، وكثيراً ما حثه على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ له إلا قليلاً. وعلم أبو رحاب بعد ذلك أن جماعة من ذوي الأغراض كانوا يثنونه عن الإصغاء ويحرضونه على العداء. حتى إذا قُتل عثمان كان أبو رحاب وسعيد في جملة المطالبين بدمه، ولكنهما عندما عادا من وقعة الجمل قعد أبو رحاب عن المطالبة، لأنه تحقق أن أصحاب تلك الوقعة إنما حاربوا عليّاً طمعاً في الملك لا غَيرة على عثمان.

وأقام لا جليس له بمكة إلا سعيد، وكان سعيد ينوي الانضمام إلى جند معاوية في وقعة صفين فمنعه جده. وكان أبو رحاب يعلم أن سعيداً يحب قطام حباً شديداً وإنه ساع للزواج بها، ولذا كان يأذن له في الذهاب إلى الكوفة لتلك الغاية. وطال غياب سعيد هذه المرة وأحس أبو رحاب بضعفه يتزايد، فأراد استقدامه ليتزود من رؤيته قبل موته ويوصي له بوصية لها علاقة كبرى بشؤون حياته وربما غيرت مجاري أعماله وحولته عن مقاصده وآماله. فبعث رجلاً من خاصته اسمه عبد الله في وفد إلى الكوفة لهذه الغاية. ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على فراش الضعف والهرم كأنه يستمهل ملاك الموت ريثما يصل حفيده لئلا يذهب ما في نفسه أدراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثاً.

أما سعيد فإنه قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق إلى قطام وقلق على أبي رحاب. وكان من شدة حبه لقطام يود بقاء جده حياً ليبشره برضائها وقبولها لأنه طالما صرح له برغبته فيها. وكان أبو رحاب يتمناها له. وكان سعيد إذا فكّر في ذلك فرح ثم يعترض فرحه أمر العهد وقتل الإمام فيضطرب فيعلل نفسه بما يناله من الفخر إذا قتل عليّاً علاوة على استرضاء جده لأنه يطفىء ما يجيش

في نفسه من نار الانتقام لعثمان فيفرحه قبل موته.

قضى أكثر أيام الطريق في مثل هذه الأفكار لا يبالي بمن حوله من الرفاق كأنه سائر وحده. ولم يكن يشغله عن ذلك ما يلاقيه في طريقه من الجبال والأودية والصحارى، وما يمر به من الربوع والأحياء والخيام، حتى أشرف على مكة من أكمة. فإذا هي في منبسط من الأرض تحيط بها الجبال والكعبة قائمة بين أبنيتها قيام الملك بين الأعوان. وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب فأسرع في مسيره يلتمس منزل جده وقلبه يخفق خوفاً عليه من بأس يصيبه قبل وصوله.

ولم يكد يدخل مكة حتى أسدل الليل نقابه فساق ناقته يلتمس المنزل قبل اشتداد الظلام، وترك رفاقه يهتمون بشؤونهم. وكان عادته إذا دخل مكة أن يطوف بالكعبة قبل الذهاب إلى البيت، ولكنه سار هذه المرة تواً إلى المنزل وهو مضطرب خوفاً على حياة جده.

فعرج على منعطف يؤدي إلى البيت رأى فيه أناساً عرف أنهم من الأهل والأصدقاء فحياهم وسألهم عن حال أبي رحاب. فلما عرفون طمأنوه وسبقه بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيده. فلما اطمأن قلب سعيد على جده هدأ روعه وترجّل عن ناقته وسلمها إلى الخادم ومشى وهو بالعباءة والكوفية والسيف. فانتهى إلى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم ينتظر أن يفتحوه له. ومرّ في فناء لم يرَ فيه أحداً وسار تواً إلى الحجرة التي يقيم بها جده عادة وفيها مصباح منير دون سائر الحجرات. وقبل الوصول إلى الباب استقبله رجل خارج من عنده يمشي الهوينا على أصابع قدميه مخافة أن يوقظ المريض من نومه العميق. فعرفه سعيد أنه من بعض ذوي قرباه فسأله عن جده.

فأجابه: «إنه نائم نوماً عميقاً وقد مضى عليه بضعة أيام لا ينام فلما أحس بالنعاس أخرج الناس من غرفته ولم يبق سواي وأوصاني

ألاّ أوقظه إلا إذا جئت أنت».

قال: «دعني أدخل عليه وهو نائم». قال ذلك ونزع حذاءه ودخل الحجرة يسترق الخطى. فاجتاز العتبة وأطل على حجرة مضيئة بسراج على مسرجة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش. وكانت فتيلة السراج ثخينة يتصاعد من لهيبها سناج يتطاير فيترك في صعوده آثاراً سوداء على الحائط قرب السراج، ولو كان لون الحائط نقي البياض لظهرت آثار السناج أكثر جلاء ولكنه كان مدهوناً بطين أسمر.

تقدم سعيد نحو الفراش وقلبه يخفق إشفاقاً من أن يكون جده قد رقد رقاداً أبدياً. فمشى على حصير من سعف النخل يكسو أرض الغرفة، عليه غطاء كالبساط مصنوع من جلد مصقول. وكانوا لما اشتد به الضعف رفعوه عن الأرض إلى مقعد مستطيل، ظهره شبكة من نسيج الجلد، وهي قدد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها مباشرة أو يجعلون فوقها الفرش، وقد توسد أبو رحاب فراشاً رقيقاً والتحف ببرد من صوف أسود يغطيه إلى أعلى الصدر، واستلقى على ظهره ويداه مضمومتان تحت الغطاء وعيناه مغمضتان يظللهما شعر حاجبيه فيزيدهما غوراً.

فلما اقترب سعيد من جده نظر إلى صدره فرآه يتنفس تنفساً هادئاً فهدأ اضطرابه وسكن بلباله ولبث واقفاً يتأمل في مظاهر الهرم. فذكر أن جده كان من كبار الهامة طولاً وعرضاً، ولكنه أصبح هيكلاً من عظام مكسواً بالجلد، أما وجهه فلم يكن ظاهراً منه إلا الأنف والجبهة وما بقي منه كان مغطى بالشعر الأبيض الناصع. وازداد منظره رهبة حينئذ لضعف النور حتى خيّل إلى سعيد لما أشرف على فراش جده أن رأسه كتلة من القطن المندوف يتخللها ثنيات مظلمة

هي الأنف والوجنتان والجبهة، وأما ما خلا ذلك فقد غطته اللحية والشاربان والحاجبان، واستطالت لحيته وانبسطت حتى غطت عنقه وصدره ولكنها كانت قليلة الشعر تشف عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاته وفي مقدمتها القصبة وقد برزت بروزاً عظيماً أما الرأس فقد كان حليقاً أو لعله أصلع.

وكان شيخنا الراقد قد دلّه قلبه على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيه البراقتين وأجال نظره في جوانب الغرفة فوقع على سعيد فتبسم. فلما رآه سعيد قد استيقظ جَثا أمام فراشه وهَمَّ بتقبيل يديه. فرفع أبو رحاب ذراعيه وضم سعيداً إلى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقه وخديه بلهفة وسعيد يطاوعه على كل حركة يريدها. فأطال أبو رحاب عناقه وسعيد صابر حتى أحس بماء ساخن ينحدر على خده علِم أنها دموع سخينة ولكنه لم يدر أدموع الحزن هي أم دموع الفرح. على أنه خاف عليه فاستأذنه ونهض عن صدره فرآه يحاول الجلوس فأعانه بيديه ونظر إليه وهو جالس فذهل لشدة ضعفه حتى تخيّله قفصاً من عظام.

وأخذ أبو رحاب يصلح لحيته وشاربيه ويمسح عينيه. ثم مد يده إلى سعيد فعلم هذا أنه يريد يده فأعطاه إياها، فأمسكها بيديه فأحس سعيد كأنها أصابع من حديد ليبس أنامله وجفاف جلدها وبرودتها، وشعر برعشة رعشاً متواصلاً مما انتابه من الضعف الشديد.

وما زال سعيد يشاهد في جده الضعف الشديد حتى سمع صوته فإذا هو كما يعهده جهوري رنان، فاستأنس به واطمأن لسماعه. وأول كلمة سمعها منه قوله: «الحمد لله على مجيئك سالماً، لقد أكلت الغيبة يا ولدي».

قال: «لقد جئتك مسرعاً حالما علمت برغبتك في ذلك، كيف أنت الآن وبماذا تشعر يا جدي؟».

قال: «كنت أحسبني على شفا الموت ولكنني لما رأيتك وأمسكت يدك شعرت برجوع قواي. فأنا الآن كما تعرفني من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتي ليمكنني من تزويدك بنصيحة هي آخر ما أتلفظ به في الحياة».

قال: «إني أشتاق لنصحك كل حين وأرجو أن يمد الله في أجلك لتشهد زواجي بقطام». ثم التفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد فرأى المكان خالياً فقال بصوت منخفض: «وتفوح بما يسبق ذلك من الانتقام الذي طالما تاقت نفسك إليه».

فنظر الشيخ إليه بعينين رأى سعيد بريقهما من خلال الحاجبين، وكان قوس الشيخوخة واضحاً حولهما، ثم سمع جده يقول: «أما زواجك بقطام فقد فهمته وسرني بلوغك مرامك وأما الانتقام فلم أفهم علاقته بها».

فتبسم وقال: «ألا تذكر يا جداه ما قمنا به منذ أعوام وقام به كل بني أمية من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلماً، وهل جرؤ أحد على الانتقام بقتل القاتل ليخلو لنا الجو؟».

فقطب الشيخ جبينه كأنه غضب وقال: «من هو القاتل ومَن سيقتله؟».

فأدنى سعيد شفتيه من أذن جده وقال: «إن القاتل علي بن أبي طالب وأنا سأقتله، وفي ذلك ما فيه من الفخر والفضل، وأتمنى أن يمد الله في بقائك ليتم الأمر تحت جناحك».

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابه

وحنقه، وعرف سعيد حنقه مما رآه من ارتعاش يديه واختلاج شفتيه واهتزاز لحيته، ولا تسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليه الكلام قائلاً بصوت عنيف: «لا لا. لا يا سعيد... لا تقتلوا البريء».

فذهل وظن أن جده لم يفهم كلامه فقال له: «تمهل يا جداه، أي بريء تعني؟ إني سأنتقم من علي بن أبي طالب، فكيف تقول إنه بريء وأنت أول من دعا إلى مطالبته بدم عثمان، يظهر أنك أخطأت مرادي».

قال: «كلا إني لم أخطىء مرادك فلا تخطىء أنت مرادي. إن علياً بريء.. إنه بريء مما اتهمناه به. إنه لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتله ولا أراد سوءاً بالمسلمين، ولا ارتكب أمراً يستوجب نقمة».

فوقف سعيد وهو يحسب نفسه في منام لعلمه أن جده كان من أوائل الناقمين على عليٍّ فكيف انقلب إلى الضد. فتبادر إلى ذهنه أن جده قد خرف.

وأدرك أبو رحاب ما جال في خاطره فقال له: «لا يخالج ذهنك شك في صحة عقلي فإني إنما أقول ما أقوله عن روية وصدق نظر، ولم أستقدمك من العراق إلا لهذه الغاية. ولا أقول ذلك جزافاً بل أثبته بالبرهان».

ولبث سعيد مذهولاً مستغرباً لكنه صبر وقال: «وما الذي دعاك إلى هذا التغيّر العظيم، كيف يكون ذلك؟ وكيف يكون عليٌّ بريئاً من دم عثمان؟ بل كيف تعترف أنت ببراءته وقد كنت من أوائل متهميه؟».

فأشار الشيخ بيده إلى سعيد أن يجلس ويهدىء روعه ويصبر ثم قال: «أما ما دعاني إلى ذلك فهاتف سمعته يقول ويكرر القول: (إن

علياً بريء وإنما يتهمه أهل المطامع وذوو الأغراض). وكنت كيفما توجهت أسمع هذا الصوت يرن في أذني حتى أقلق راحتي. فبحثت عن الأمر بنفسي وتدبرت ما أعلمه من تاريخ عليٍّ وعثمان وغيرهما من القائمين بهذه الفتنة، فوجدت معاوية وسائر بني أمية على ضلال، بل هم أهل أغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها».

وقطب حاجبيه وقد أبرقت عيناه من خلال قوس الأشياخ حول حدقتيه وبانَ الجد في لهجته، فظل سعيد صامتاً لا يبدي حراكاً لما استولى عليه من الدهشة.

- ٤ -

علي خير من معاوية

ثم أجال الشيخ يده في لحيته وأصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت إلى سعيد وقال: «يزعم معاوية وأصحابه أنهم إنما جردوا السيوف وسفكوا الدماء للمطالبة بدم عثمان كأنهم لم يكونوا يستطيعون الذب عنه قبل قتله. ولقد يضحكني مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان، وهو أول من أراد قتله وسعى في ذلك حتى افتخر بأنه قتله وهو في فلسطين. فقد علمت أنه لما بلغه مقتل عثمان وهو في وادي السباع قال: «أنا قتلته وأنا في وادي السباع) يعني أنه سعى في قتله عن بعد. فلا يغرنك بعد ذلك مجيئه هو وأبناؤه ماشين إلى دمشق يبكون ويقولون: (واعثماناه! ننعي الحياء والدين). إنهم إنما فعلوا ذلك حيلة للانضمام إلى معاوية..

«وأما معاوية وسائر بني أمية، فهل تحسبهم شرّعوا الأسنة وأيقظوا الفتنة مطالبة بدم ذلك الخليفة المقتول؟ إذا كانوا فعلوا ذلك غيرة وحناناً فما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من

المدينة إلى الشام؟ وهب أنهم تأخروا عن نجدته كرهاً كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا أولاده. وإذا كانوا يؤمنون بأنه قُتل ظلماً وإنهم إنما قاموا للمطالبة بدمه، فلماذا لم يولوا الخلافة ولداً من أولاده؟ أرأيت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة إلى السلطان؟

«وهكذا فعل أيضاً طلحة والزبير، فقد قُتل عثمان وهما في المدينة على قيد أذرع منه، فلو أرادا بقاءه لم يعجزهما الدفاع ولكنهم سكتوا عن قتله حتى إذا رأوا الخلافة أفضت إلى عليٍّ تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا: (إنه قُتِل ظلماً)..».

وكان الشيخ يتكلم محاولاً خفض صوته فلا يطاوعه التهيج فلا يلبث حتى يرتفع صوته تتخلله غصات وارتجاج، وأما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لا يستطيع النظر إلى وجهه تهيباً واحتراماً. فلما وصل أبو رحاب إلى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه من نفثات ريقه لأن الهرم أخلى فكّيه من الأسنان، فانتهز سعيد تلك الفرصة وقال له: «كيف تحسب عمل هؤلاء طمعاً في الخلافة ولا تحسب عمل عليٍّ مثل عملهم. وقد كانوا جميعاً في المدينة؟ وكيف إذا قُتِلَ الخليفة تكون البيعة لواحد منهم والباقون ينتظرون؟ لماذا لا تحسب ذلك طمعاً من عليٍّ؟».

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية أو هي قهقهة تشبه الضحك لعظم ما قام في نفسه وهو في آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة. وقبل أن يتم قهقهته حوَّل وجهه إلى سعيد وقال: «أتسألني عن خلافة عليٍّ وقد كان الأولى بي أن أسأل نفسي ما الذي أعماني عن حقه فيها من أول الأمر؟ صدق القائل إن الغرض يعمي ويصم... إن الخلافة لم تكن لأحد من الصحابة قبل هذا وهو ابن عم الرسول ﷺ وصهره زوج ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين. وهو

أول الناس إسلاماً بعد خديجة، وزد على ذلك أن الرسول ﷺ رُبِّيَ في حجر أبي طالب والد عليٍّ. وقد كفله ودافع عنه في بدء الدعوة، وكانت قريش تكره دعوته حتى كثيراً ما هموا بإيذائه وأبو طالب يمنعهم بما له من المنزلة الرفيعة عندهم. فلما وُلد عليٌّ رُبِّيَ في حجر الرسول ﷺ وأسلم وهو في العاشرة من عمره وذب عن الإسلام بقلبه ويده ولسانه، ولا أنسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على إيذاء الرسول ﷺ في مكة فاعتزم الهجرة، وكيف أن علياً أقام مقامه في منزله فتسجى ببردته وبات على فراشه وعرض نفسه لخطر القتل ونجاه الله، هذا عدا حروبه في الغزوات والسرايا، فقد شهد معظم المواقع وأشهرها، وبذل نفسه في الذب عن الإسلام يوم كان معاوية وأبوه وإخوته في مكة من ألد أعداء الإسلام، ولم يسلموا إلا بعد فتح مكة أي بعد قنوطهم من النصر».

كان أبو رحاب يتكلم والعرق يتصبب من جبينه كأنه أتى عملاً شاقاً يجهد نفسه فيه، وسعيد صامت مطرق لا يزال في دهشته واستغرابه حتى كاد يغيب عن صوابه. ولم يجرؤ على كلام. وطال سكوت جده فهَمّ بسؤاله فرآه يتحفز للكلام فسكت وأصغى. فقال أبو رحاب: «أراك دُهشت لما سمعته كأنك لم تعلمه قبلاً، ولا ألومك إذا علمته وتجاهلته فإني أكبر منك سناً وأعلم منك في هذه الشؤون وقد أعماني الغرض، وكأنني بعد ذاك الهاتف قد فتحت عيناي وصرت أنظر إلى الحقيقة كما هي...

«نعم إن علياً أولى منهم جميعاً بالخلافة، والرسول ﷺ فضّله عليهم جميعاً وآخاه دون سواه فقال له على مسمع من الصحابة: (أنت أخي في الدنيا والآخرة). وخاطبه مرة وقال: (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا كافر). ولقد تستغرب ما سأتلوه عليك وتعجب

كيف لم يتول الخلافة قبل الآن، ولا سيما بعد قول الرسول: (إن علياً مني وأنا من علي وهو ولي كل مؤمن بعدي) وقوله ﷺ: (مَن كنتُ مولاه فعليٌ مولاه اللهم والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه). فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافته؟ بل كيف لا يعجب لتقاعده عن الخلافة إلى الآن؟».

وكان سعيد مطرقاً وقد تغيّرت سحنته وتوليه الدهشة حتى ظن نفسه في منام، وندم على مجيئه لأنه أصبح بعد سماع ذلك الكلام حجراً بين مطرقتين لا يدري أيقوم بعهده لقطام التي ملكت لبّه أم يعمل بوصية جده وهو في آخر أيام الدنيا. فظل صامتاً لا يبدي حراكاً، وأدرك جده ارتباكه ولكنه تجاهل ما يجول في خاطره وعمد إلى إتمام الحديث فقال:

«فأنت ترى يا ولدي أن علياً أولى بالخلافة من سائر الصحابة لقرابته وصهره ووصية الرسول له، ثم هو يمتاز عن سائر الناس بفضائل تكفي وحدها لتوليه أمور المسلمين، ولا أرى في معاوية شيئاً منها، إن علياً رجل متقشف زاهد في الدنيا، رأيته مرة أنزل سيفه في السوق فباعه، فسُئل لماذا فعل ذلك، فقال: (لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه). ويكفي قوله في وصف المؤمنين: (ومن سيماهم أن يكونوا خمص البطون من الطوى، يبس الشفاه من الظمأ. عمش العيون من البكا). ولو فتشت بيته اليوم ما وجدت فيه صفراء ولا بيضاء، وقد قضى عمره في إعزاز الإسلام وفتح الفتوحات، ولم يلبس ثوباً جديداً ولا اقتنى ضيعة ولا ربعاً، ومَن كان في مقامه يقدر على حشد الأموال واقتناء العبيد والاماء والضياع كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان، وصاحبنا وابن عمنا معاوية...».

ثم سكت الشيخ وتنهد تنهداً عميقاً وقال وصوته يعلو بالرغم

منه: «إن معاوية خدعنا بتظاهره بنصرة الخليفة المقتول حتى كرهنا الإمام عليّاً، وقد كنا في ظلمات من الغرض لا نرى الحق، وأما الآن وقد انقشع الغشاء عن عيني فقد أصبحت ناقماً على معاوية، وإذا فكرت في أعماله وأعمال عليٍّ كدت أتميز غيظاً وينفطر قلبي أسفاً على ما نال هذا الإمام من الأذى. كيف لا وهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا في وقعة الجمل. فقد أشفق على عدوه إشفاقه على أولاده فأوصى أصحابه بألا يلحقوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يمسّوا النساء ولا الأولاد بسوء. وكم أوصى عماله أن يقسطوا في أحكامهم وقد أخبرني رجل أنه سمعه يوصي أحد عماله ويقول: (لا تضربن رجلاً في جباية درهم، ولا تبيعن رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتمدون عليها. ولا تقيمن رجلاً قائماً في طلب درهم). ولو أردت أن أسرد لك من هذه الأمثلة لضاق بي المقام وقد ينقضي أجلي قبل الفراغ منها وأنا إنما أستمهل ملاك الموت ريثما أتم وصيتي.. فاصغ لي يا ولدي وتأمل عدل الإمام عليٍّ وحلمه وما ارتكبه معاوية وعماله من الاعتداء على المسلمين. وخوفاً من التطويل وقد تعبت من الكلام، أذكر لك حادثة قريبة العهد لا يزال صداها يرن في الآذان.. آه.. آه من القساة أهل المطامع.. أتعرف عبيد الله بن عباس؟».

قال: «كيف لا أعرفه وهو ابن عم الرسول ﷺ وابن عم عليٍّ بن أبي طالب. نعم أعرفه».

قال: «اصغ لما أقصه عليك واعتبر. لما فرغ معاوية من وقعة صفين وتحكيم الحكمين وظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص المعلومة، بايعه أهل الشام وظل عليٌّ في العراق. ولم يقنع معاوية بما أوتيه من الحكم فبعث سراياه إلى الحجاز والعراق للفتح يدعون إلى

بيعته ونقض بيعة علي. وكان رسوله إلى الحجاز واليمن بسر بن أرطاة، فجاء المدينة وتولاها لأن عاملها فرّ من وجهه. ثم جاء مكة هذه منذ شهرين ولا يزال الناس يتحدثون بفرار صاحبها أبي موسى الأشعري من وجهه. فأكره أهلها على البيعة فبايعه أهل مكة مكرهين، وقد كنت مريضاً ولم أرَ وجهه. على أن عمله هذا لا يستوجب ملاماً، ولكنه سار إلى اليمن وعاملها عبيد الله بن عباس. فخاف عبيد الله فهرب إلى الكوفة واستخلف عبد الله بن عبد المدان، فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن إلا أنه أمر بعبد الله هذا فقتله وقتل ابنه صبراً. وسمع بابنين صغيرين لعبيد اللّه بن عباس قد أودعهما عند رجل من كنانة بالبادية، فأراد قتلهما وبعث في طلبهما فجاء الكناني ومعه الطفلان فلما علم أن بسراً يريد قتلهما ذعر وصاح قائلاً: لِمَ تقتل هذين ولا ذنب لهما فإن كنت قاتلهما فاقتلني معهما. فلم يكن من ذلك الظالم إلا أنه قتل الطفلين والكناني، وعلمت أن الكناني دافع عنهما حتى قُتل. ولقد أعجبني قول امرأة من كنانة رأت ابن أرطاة ماراً بعد تلك الفاجعة فقالت له: (يا هذا قتلت الرجال فعلامَ تقتل هذين؟ والله ما كانوا يقتلون الأطفال في الجاهلية ولا في الإسلام. والله يا ابن أرطاة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير، ونزع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء).

«هذه يا ولدي أعمال معاوية وعماله، فأين هي من أعمال الإمام عليٍّ؟ وكيف تنقم عليه بعد ذلك، وتقول إنه قتل عثمان وإنه يستوجب القتل؟».

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن إتمام الكلام وملّ القعود فاستلقى على ظهره وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه، فخاف سعيد عليه فأسرع إلى منديل مسح به عرقه وأتاه بلبن

كانوا أعدوه له فشربه واستلقى يلتمس الراحة، وسعيد جالس إلى جانبه وقد وقع في حيرة أي حيرة. فذكر عهده لقطام ولبث صامتاً. وكان جده الشيخ يلتفت إليه خلسة يرقب حركاته وسكناته. فأدرك ارتباكه وعلم أنه يفكر في قطام وأهلها فحوّل وجهه إليه مستلق وقال: «أظنك تفكر في قطام وأهلها الخوارج، وقد يخيّل إليك أن خروجهم عن طاعة عليٍّ قد يطعن في صدق ما قلته لك، ولكنهم لم يخرجوا إلاّ طمعاً في الدنيا فانتحلوا سبباً لا يسمعه عاقل إلا هزأ بهم وأيقن جورهم. خلعوا طاعة عليٍّ لأنه قبل التحكيم، وما ذنبه وهم الذين أجبروه على قبوله؟ وهب أنه أخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه؟ ولكنهم رأوا معاوية قام في الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم في الحكومة لأنفسهم فأجمعوا على نقض البيعة، ويؤيد ذلك أنهم ولوا عليهم رئيساً منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا في حروبهم وعادت العائدة عليهم.

«وليس فشلهم بالدليل الوحيد على سوء نياتهم، ولكنني أتلو عليك حكاية سمعتها من رجل أثق بصدق روايته هي أن الخوارج عند أول خروجهم على عليٍّ بعد رجوعهم من صفّين، نزلوا عند النهروان فرأوا رجلاً يسوق حماراً عليه امرأة، فدعوه فانتهروه فأفزعوه وقالوا له: (مَن أنت؟). قال: أنا عبد الله بن حباب صاحب رسول الله ﷺ. فقالوا: أفزعناك؟. قال: نعم. قالوا: لا روع عليك حدثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله. فحدثهم بحديث (أنه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً). قالوا ما لهذا الحديث سألناك فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: فما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه محق في أولها وفي آخرها. قالوا: فما

تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟ قال إنه أعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً. فأخذوه وكتفوه ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى، حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم فتركها في فيه، فقال آخر: أخذتها بغير حلها وبغير ثمن فألقاها، ثم مر بهم خنزير لأهل الذمة فضربه أحدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه، فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عليَّ منكم من بأس إني مسلم ما أحدثت في الإسلام حدثاً ولقد أمنتموني وقلتم لا روع عليك. فأضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء وأقبلوا إلى المرأة فقالت: إني امرأة ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها.. هذه أعمال أعداء عليٍّ وهذا هو عليٌّ فكيف تنقم عليه وكيف تقتله أو تسعى في قتله؟ بل كيف تسكت عن قتله ولا تدفع عنه؟».

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر العهد الذي كتبه على نفسه بقتل علي لئلا يزيد غضبه. فظل ساكتاً يفكر في حيلة ينجو بها من وعده بالتي هي أحسن، فلم يسعفه ذهنه وأحس بالتعب الشديد، ورأى أبا رحاب قد تعب أيضاً. فقال له: «لقد أتعبت نفسك يا جداه وأنت توصيني فشكراً على رعايتك، وإني أرى قولك الصواب وأطلب إليه تعالى أن يقدرني على العمل به، فاسترح الليلة وغداً نصبح إن شاء الله تعالى وقد ارتحنا فنستأنف الكلام». قال ذلك وأكب على يده فقبّلها فرآها قد بردت ويبست. فقال له جده: «نم هنيئاً يا ولدي فإني أخشى ألا يصبح عليَّ الصباح فلا بدّ من كلمة أقولها وهي ختام ما أوصيك به». قال ذلك ومدّ يده فدنا سعيد إليه

فعانقه وبكى ثم قال والدمع ملء عينيه وشفتاه ترتجفان وذقنه تهتز: «إذا شئت يا ولدي أن يفارق جدك الدنيا آمناً مطمئناً فعاهده بأن تعمل بما أوصاك. لا تبغ سوءاً للإمام عليٍّ وإذا رأيت سبيلاً للدفاع فادفع عنه بكل قوتك. هل تعاهدني على ذلك؟. عاهدني عليه، واجبر قلبي واذكر أني جدك وكافلك ووصيك وأني ربّيتك وتعهدتك وأني لا أريد لك إلا الخير. هل تعاهدني على ذلك؟ قل نعم واجبر قلبي إني قلق عليك..».

فتأثر سعيد من كلام جده حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكر حنوّه وعطفه عليه فلم يسعه إلا الإيجاب فعاهده.

ولكنه لم يكد يعاهده حتى ذكر عهده لقطام على عكس ذلك فعظم عليه الأمر. ورأى جده يميل إلى الرقاد فدعا الرجل الموكل به وأمره أن يتعهده في أثناء رقاده وخرج إلى غرفة أخرى ونزع ثيابه والتمس الراحة. أما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعد ما انتابه من شتى الهواجس.

لم يهدأ لسعيد بال، وازداد الأمر خطورة لديه، وهالَه أنه رمى نفسه بين عهدين متناقضين. فكان كلما تصور نكوله عن قتل الإمام علي شعر براحة بال واطمئنان، ثم يعاوده طيف قطام وبعدها فترتعد فرائصه ويحار في أمره.

وبقي على هذه الحال حتى انتصف الليل لا يغمض له جفن ولا يستقر له قرار. فنهض من فراشه وتزمل ببرده وعباءته وتعمم وخرج إلى الخلاء. وكان الظلام مخيماً ورقد الناس وليس في طرق مكة سائر فخفف السكون من اضطرابه، وسار على غير هدى يفكر فيما هو فيه إلى أن شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظل ماشياً يبطىء تارة ويسرع أخرى حتى رأى نفسه على باب المسجد الحرام فسرى عنه. فقال في

نفسه: «لأدخلن المسجد أصلي ركعتين لعل الله يوحي إليّ بما يخفف اضطرابي». وكان الباب مفتوحاً وصحن المسجد خالياً فتأبط نعليه ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فأحس لساعته براحة فطاف حول الكعبة ثم التمس مكاناً وراءها فاتكأ وعادت إليه هواجسه. فأجال بصره يراقب النجوم السابحة في الفضاء وأخذ بجمال القبة الزرقاء وأفكاره تائهة واشتد البرد عليه فأدخل رأسه في العباءة يجعلها خماراً. وكان التعب والبرد تغلبا عليه فخدر واستولى عليه النعاس. ولكنه لم يكد يغمض لحظة حتى ابتدرته الأحلام فرأى قطام بجلباب أسود وقد أسفرت عن محياها فبدت عيناها المكحولتان وأخذت تمشي نحوه حافية القدمين على بساط من ريش النعام الأبيض. فخفق قلبه لرؤيتها وهَمَّ بالسلام عليها فرآها أعرضت إعراض العاتب وعيناها تتلألآن بالدموع، فتفطر قلبه لرؤيتها على هذه الحال وساءه إعراضها، فهم بالإقبال عليها فلم تسعفه رجلاه لما تولاهما من الرعدة فناداها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحولت عنه ومشت تنظر إليه شزراً ولسان حالها يقول: «لقد خنت عهدي فما أنت أهل لي».

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائه على العزم فلم يستطع، ولما ابتعدت عنه هَمَّ بأن يناديها فأفاق من رقاده فإذا هو وحده بجانب جدار الكعبة والظلام محدث به.

فمسح عينيه ليتبين أَفي يقظة هو أَم في منام، ولما تحقق أنه كان حالماً حمد الله ولكنه أيقن أنه إذا لقي قطام فلن يرى منها غير الإعراض.

فمكث صامتاً تتقاذفه الهموم وهو لا يهتدي إلى حل مقنع، فنهض راجعاً إلى المنزل ليرى ماذا حدث لجده. واشتاق أن يأوي إلى فراشه بعدما أضناه التعب والبرد. ولم يكد يتلو سورة الفاتحة عند

عودته حتى سمع لغطاً خافتاً كأن أناساً يتسارون. وكان قد وصل إلى مقام إبراهيم أمام الكعبة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع خطوات بطيئة تقترب من الكعبة وهمساً يتكرر كأن القادمين يتشاورون في أمر خطير. فانزوى وراء المقام في مكان لا ينتبه إليه أحد في الظلام، وكان لا يرى إلا الكعبة وما حولها.

- ٥ -

١٧ رمضان

وبينما كان سعيد واقفاً في مكانه إذ رأى ثلاثة رجال لم يعرف أحداً منهم ولكنه عرف من قيافتهم أنهم غرباء ولم يتمكن من تمييز ألوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رؤوسهم بالعمائم لفاً كالخمار إما اتقاء للبرد وإما تنكراً.

فعجب لأمرهم وخفق قلبه خوفاً من انكشاف مخبئه وحذراً من أن يكونوا قد استخفوا ليكيدوا لأحد فإذا علموا به وبافتضاح سرهم قتلوه، فبالغ في انزوائه لا يأتي بحركة وخشي أن يداهمه العطس فيفتضح أمره. أما هم فوصلوا إلى باب الكعبة واقتربوا من سعيد بحيث يراهم جميعاً فلو كان القمر طالعاً أو كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيداً ولكنه لم يستطع أن يتبينهم لسواد الليل. على أنه لمح من بادي أحوالهم وحركاتهم أنهم في أمر ذي بال، وكان أحدهم طويل القامة وهو أكثرهم حركة فجلس رفيقاه الأربعاء وظل هو واقفاً ثم جلس القرفصاء وقال: «ما لنا ولهؤلاء إنهم جبناء، تعالوا نبدأ نحن بالأمر فيكون لنا الفخر».

قال الثاني وكان قصير القامة ممتلىء الجسم: «أنا على رأيك فإنه لم ينلنا من الأئمة إلا الضرر. يتنازعون على الخلافة فيقتتل المسلمون في نصرتهم فإذا قتلناهم رقدت الفتنة. نعم نقتلهم جميعاً». قال ذلك

بصوت خافت وفي نطقه لجلجة وكان يلتفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد.

فقال الرفيق الثالث وكان لا يزال ساكتاً: «إني لا أذكر يوم النهروان ومَن قتل فيه من الأبطال حتى يقطر قلبي دماً. إن علياً قتلهم لأنهم لم يرضوا بالتحكيم».

فابتدره طويلهم وكان أجرأهم كلاماً وأعلاهم صوتاً على عكس رفيقيه فقال: «لا يجدينا التذمر والتضجر ونحن سكوت نرى أبناءنا وأخوتنا يُقتلون في نصرة هؤلاء الأئمة ولا نبدي حراكاً. هلم نكف المسلمين شرهم».

فلما سمع سعيد حديثهم علم أنهم يتآمرون على قتل جماعة من الأئمة، وأن الإمام علياً واحداً منهم، ولم يعلم مَن هم الآخرون. فجعل يرتعد فرقاً وخوفاً من أن ينكشف مكانه ولكن حب الاستطلاع جعله يقدم على علم ما هم فيه، فبينما هو ينزوي ليختبىء ويتمنى على السحب أن تشترك مع الظلام في حجبه عن العيون إذا به راغب في كشف ما يبيتون.

وسكت صاحبا الرجل الطويل الجريء بعد أن انتهى من كلامه. فلما رأى صمتهما ابتدرهما قائلاً: «وماذا علينا لو متنا؟ حبذا الموت في سبيل إنقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها. وأصل الفتنة ثلاثة يتنازعون على الخلافة وسلطان الدنيا وهم عليٌّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. هلم بنا نقتلهم نرح الناس منهم».

فقال الثاني: «إني على رأيك من أول الأمر فكيف السبيل إلى قتلهم وهم محاطون بالجند والأعوان فلنفكر في وسيلة تضمن لنا الفوز ونأمن بها الخطر».

فأسرع الأول في جوابه وقال: «أراك تتردد كأنك تخاف هول الموقف أو كأنك تتمنى أن يكون نصيبك قتل إمام يرهبك، تعالوا نقسم العمل فيما بيننا. تعالوا نقسم ليقتلن كل واحد منا واحداً من أولئك الثلاثة، ونعين يوماً نباشر العمل فيه معاً، فيكون أحدنا في الكوفة لقتل عليٍّ وآخر في مصر لقتل عمرو، والثالث في الشام لقتل معاوية. وهكذا يقتل كل منا صاحبه في ذلك اليوم فيصبح المسلمون وقد نجوا من أسباب الفتنة، فيختارون خليفة يولونه أمورهم وترجع الخلافة إلى بساطتها».

فلما سمع سعيد ذلك تهيب الأمر واستعظمه ولم يصدق أنهم يستطيعونه وبدا له قتل عليٍّ يمهد له رضاء قطام وإن لم يكن قتله على يده، ولكنه تذكر كلام جده وما أوصاه به من الدفاع عن علي لبراءته مما ينسبونه إليه فانقبضت نفسه ولكنه أفاق من اضطرابه عندما عاد المتآمرون إلى الكلام. فلما فرغ أولهم من كلامه ولم يرَ إقبالاً عليه من رفيقيه لم يصبر حتى يسمع ما يقولان وانطلق يقول: «لا تترددا ولا يهولنكما الأمر فهو أسهل ما يكون على ذي جرأة، وكأني بكما تفكران في قسمة العمل وتخافان أن يكون نصيب أحدنا أصعب مراساً من نصيب الآخر، فلا تخافا فإني آخذ على عاتقي قتل أكبر هؤلاء الثلاثة وأشجعهم، أنا أقتل علياً بن أبي طالب، فإني وإن يكن مقامي بالفسطاط فإني آتي الكوفة فأقتله». قال ذلك وأقبل حتى دنا من باب الكعبة وأمسك بحلقته وقال: «ها أنذا أمسكت بحلقة الكعبة وأقسم بالله وبهذا البيت الحرام لأقتلن علياً بن أبي طالب وأبذل في هذا السبيل ما في وسعي وأشهد الله على ذلك».

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه متحمسين فأمسك كل منهما بحلقة الباب وأقسم أحدهما ليقتلن معاوية بن أبي سفيان، والآخر ليقتلن

عمروا بن العاص.

ولا تسل عن سعيد عندما شهد هذا العهد الخطير وقد تمنى لو عرف المتآمرين ولكنه لم يرَ سبيلاً إلى ذلك. ولكنه فهم من سياق الحديث أن الذي آل على قتل الإمام علي من أهل فسطاط مصر.

ثم عاد الثلاثة إلى مجلسهم فقال أحدهم وهو السجين القصير: «لقد تعاهدنا على قتل هؤلاء الأئمة ولكننا لم نعين اليوم الذي نفعل فيه ذلك فإن لم نعينه فشلنا جميعاً».

فقال الثالث: «وهذا ما أراه أنا أيضاً لأننا إن لم نعين اليوم كان المجال واسعاً، ونخشى إن سبق أحدنا الأخر ولم ينجح أو قتل أو قُبض عليه أن يخاف الباقيان وينكلا. فلنعين اليوم والساعة».

فقال الأول: «إن الساعة يصعب تعيينها فلنعين الليلة ليتم عملنا في ليلة واحدة. في أي الشهور نحن الآن؟».

قالا: «في جمادى».

قال: «فليكن موعدنا رمضان المبارك لنشهد عيد الفطر والمسلمون قد اطمأنوا، وإذا قُتلنا لقينا ربنا وقد فعلنا ما علينا. فاختاروا ليلة من ليالي رمضان».

قال الثاني: «أنا أختار الليلة السابعة عشرة من رمضان فما قولكما؟».

قالوا: «إنها خير ليلة». ونهضوا وسعيد يخاف أن يمروا به ويروه، ولكنهم داروا حول الكعبة كأنهم يطوفون بها ولبث هو ينتظر عودتهم فلم يعودوا. فلما استبطأهم علم أنهم خرجوا من باب آخر أو داروا وتحولوا إلى الباب الذي دخلوا منه. فرفع رأسه ونظر حوله فلم يرَ أحداً ولا سمع صوتاً فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق أنهم

خرجوا. فجلس هنيهة يفكر فيما مر به وهو يحسب نفسه في حلم لغرابة ما رآه واتفاق حدوثه في الليلة التي أوصاه جده فيها بألّا يقتل علياً. ونظر إلى الأفق فاستقبلته الزهرة تتلألأ كأنها تبشّره بإقبال الفجر. وتذكر جده فرأى أن يعود إلى المنزل قبل أن يطلع النهار ويخرج الناس. ومشى.

ولما اقترب من المنزل خفق قلبه مخافة أن يكون جده قد أصاب حتفه في غيابه فدخل الدار فرأى السكون مخيماً عليها فاستبشر وقصد الحجرة التي كان جده نائماً فيها فرأى المصباح مضيئاً فأطل من الباب فرأى عبد الله جالساً بجانب الفراش وجده نائم. فنظر إلى عبد الله كأنه يستطلعه الحال فنهض لاستقباله ووجهه باش فاطمأن قلبه وقبل أن يلقي التحية ابتدره عبد الله قائلاً: «لقد شغلنا بغيابك فإن جدك أفاق من نومه مراراً وطلب أن يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد ألح كثيراً في طلبك».

قال: «وكيف هو الآن؟».

قال: «في خير وقد رأيناه في راحة لم يذقها منذ أيام».

ولم يتم عبد الله كلامه حتى رأى أبا رحاب يتحرك في فراشه فتقدم سعيد إليه ففتح عينيه وأشار إليه فدنا منه وجثا أمامه.

فقال أبو رحاب: «أين كنت يا ولدي فقد طلبناك فلم نقف لك على أثر؟».

قال: «خرجت في حاجة إلى الكعبة واتفق لي حادث شغلني عن المجيء حتى الآن».

فمد الشيخ يده وقبض على يد سعيد وضغط عليها كأنه لا يريد أن يفارقه وسعيد صامت لا يبدي حراكاً لشدة تأثره من منظر جده

الشيخ وقد شعر أنه إنما ضغط على يده بغية الوداع.

فترقرقت الدموع في عينيه والتفت إلى عيني جده فرآهما غارقتين بالدمع وهما شاخصتان إليه فتفطر قلبه وهَمّ بأن يتكلم فابتدره جده قائلاً: «إني لا أزال في قلق على مستقبلك وأخشى ألا تكون قد استوعبت نصيحتي فقد نصحتك وأنا في آخر أيام الدنيا نصيحة أُوحي إليّ أن ألقيها إليك. وقد تركتني الليلة غارقاً في بحار الأحلام وكأن هاتفاً خوّفني من غيابك. هل أنت باقٍ على عهدي يا سعيد؟».

قال: «لقد عاهدتك يا جداه عهداً وثيقاً إني لا أسعى بضر للإمام علي ما حييت، وأنا باقٍ على عهدي، وأزيدك علماً أنني صادفت في الكعبة عصبة يتآمرون على قتله وقتل صاحبيه معاوية وعمرو في يوم عيّنوه وتعاهدوا عليه فلم يبق ثمة حاجة إلى سعيي».

فبغت الشيخ وحملق وصاح: «ومن هؤلاء؟».

فقصّ سعيد خبره مختصراً وختم كلامه قائلاً: «إني لم أعرفهم وما استطعت اللحاق بهم خوفاً منهم لأني أعزل».

قال: «ألم تعرف الذي حلف على قتل الإمام عليٍ؟».

قال: «كلا ولكنني علمت من كلامه أنه من مصر، ويغلب على ظني أنه من الخوارج».

فصمت الشيخ برهة كأنه يفكر في أمر مهم، ولحظ سعيد من شخوص عينيه وذبول أجفانه وانقلاب سحنته أنه تعب. وأما أبو رحاب فتجلد وقال وهو يرتجف ولا يستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كأن لسانه شد برباط: «يا ليتني كنت بينهم لأقنعهم بالكف عن ذلك... فلو استطعت استمهال أجلي لسعيت في البحث عنهم فإذا عرفت الساعي في قتل الإمام عليٍّ أرجعته عن غيّه

بالبرهان.. إنهم والله ظالموه». ثم سكت هنيهة ليستريح وعاد إلى الكلام وهو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسه وقد أسرع تنفسه وظهر الاضطراب عليه، فعلم سعيد أن جده في النزع فارتعدت فرائصه وتخشع قلبه وحزن، ولكنه أصغى لتتمة حديثه فإذا هو يقول: «وأما أنت يا سعيد فاصغ لقولي واعمل بنصيحتي.. ولا أقبل منك السكوت عن هذا الأمر.. وإنما أنت.. مكلف بالبحث عنه.. إنك مكلف بالبحث عن هذا.. الرجل في مصر.. والشام.. والعراق حتى تعلم مقره.. فإما أن تقنعه.. وأما أن تنبىء.. الإمام بأمره. إني.. ألقي.. هذا الأمر على عاتقك.. فاحذر.. أن تتقاعد عنه. وإلا فإنك.. قاتل علياً بيدك.. هذه وصيتي لك، احتفظ بها ولا تتمهل أو تتكاسل.. والله شاهد.. على ما أقول.. هذه.. وصيتي الأخيرة بل.. هذه.. آخر كلمة أفوه بها في هذه.. الحياة الدنيا.. وكنت مستغرباً تأخير أجلي إلى.. الساعة. وكنت أحسبني.. ميتاً منذ أيام ولكن الله.. إنما أراد بذلك.. إن أكل إليك.. هذا الأمر.. هذه آخر وصيتي لك، ابحث.. عن هذا الرجل وارجعه.. عن غيّه.. كما أرجعتك.. ولو أوتيت.. عمراً ثانياً لقمت في بني أمية.. وفي الخوارج خطيباً أصرح ببراءة.. الإمام علي، على رؤوس الأشهاد، ولكن آه.. إن الساعة آتية.. لا ريب.. فيها.. وها أنذا أستودعك.. الله وآخر ك..لمة.. أقو.. لها لك. علي.. علي.. اد..فع.. عن عليٍّ بيدك.. وقلبك.. ولسا..ن..ك».

ولم تخرج هذه الكلمات الأخيرة من فيه حتى اختنق صوته ثم شهق شهقة دوى صوتها في أطراف المنزل وارتخت مفاصله، فأفلتت يد سعيد من يده ونظر سعيد إلى جده، فإذا هو قد أغمض جفنيه

ووقف تنفسه. . فجس يده فإذا هي باردة فلمس جبينه فإذا هو كالثلج وقد فتح فاه وأرسل نفسه الأخير وبطلت حركة الحياة فيه فأصبح جسماً بلا روح، فاقشعر بدن سعيد ودق يداً بيد وصاح: «واجداه واجداه. ويلاه كلمني وزدني نصيحة أخرى. . .». وما من مجيب. وكان عبد الله قد خرج فعاد ولما رأى أبا رحاب قد مات أخبر أهل المنزل فاجتمعوا وعلا النحيب والبكاء.

ولم يكن الحزن على موت أبي رحاب شديداً لتوقعهم ذلك منذ أيام. أما حزن سعيد فكان مضاعفاً لامتزاجه بالهواجس والاضطراب ولما سمعه من جده وما هو مقيّد به من العهود المضادة.

وبعد الدفن عاد سعيد إلى صحوه وفكر في حاله فرأى نفسه في مشكلة لا يدري كيف يتخلص منها، وبعد التأمل الطويل رأى أنه قد يسهل حلها إذا استطاع إقناع قطام ببراءة عليٍّ فتنزل عن حقدها ونقمتها، فلما فتح عليه بذلك توسم خيراً وأحس بانفراج الأزمة، فأعمل فكره كيف يستولي على عواطفها ويغير اعتقادها في الإمام حتى تسكت عن طلب ثأر أبيها وأخيها فخيّل إليه أن إقناعها سهل فهدأ روعه.

وأسرع في تدبير شؤون ذويه وكان فيهم شاب اسمه عبد الله رباه أبو رحاب كما ربى سعيداً، وكان يتعزى به ويحبه، وهو الذي أنفذه إلى الكوفة لاستقدام سعيد، فلما مات أبو رحاب تقدم عبد الله إلى سعيد بأن يأذن له في مصاحبته وألح في ذلك كثيراً. فتعجب سعيد لتلك الرغبة في السفر ولم يكن يعهد عبد الله ميالاً إلى ذلك.

والسبب في تلك الرغبة أن أبا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخف عليه ضعف سعيد، فأرسل أنفاسه الأخيرة وهو يخاف عليه غدر الناس وخداعهم. ولكنه استدرك قبل موته فأوصى

عبد الله هذا بأن يكون له عوناً فيصحبه حيثما سار فينجده ويرشده فإنه وإن يكن شاباً مثله ولكنه أعرف بالدهر وبالناس.

وبعد أيام ودَّع سعيد أهله، واصطحب عبد الله وسارا يطويان الصحراء إلى الكوفة، وعبد الله لا يعرف شيئاً من علاقة سعيد بقطام ولا ما تآمر عليه الثلاثة في المسجد الحرام، ولكنه فهم من حديث أبي رحاب معه أن سعيداً كان عازماً على قتل الإمام فأرجعه أبو رحاب عن عزمه. وسمع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنه لم يتفهمها جيداً. فلما أوغلا في الصحراء بدأ عبد الله حديثاً تطرقا منه إلى ذكر قتل الإمام علي، واستأنس سعيد بعبد الله وهو مخلص بفطرته ففتح له قلبه وكشف له عن سره وارتاح لمشورته. ولم يصلا إلى الكوفة حتى أصبح عبد الله عارفاً بكل مكنونات قلبه فشاركه في شعوره بشأن عهده مع قطام ورجوعه عنه، فثبته على اتباع وصية جده وهون عليه إقناع قطام إلى أن قال: «فإذا لم تقتنع فاتركها والنساء كثيرات وأنا أختار لك فتاة من أجمل الفتيات خَلقاً وخُلقاً وأرفعهن نسباً لا تقاس بها قطام». وكانا يتحدثان وهما على ناقتيهما يطويان البيد طياً.

فقال سعيد: لا. لا تقل هذا فليس في النساء أجمل من قطام ولا صبر لي على فراقها بَلَهْ إغضابها فإنك على ما يلوح لي لم تعان الحب ولا عرفت سلطانه». قال ذلك وتنهد.. وتوقف هنيهة ثم قال: «وهب أني لا أحبها ولست عالق القلب بها فإن في يدها عهداً مكتوباً أخاف إذا أغضبتها أن تشي بي إلى عليٍّ أو.. ولكنني واثق بصدق مودتها فهي لا تريد بي سوءاً بل تبغي رضاي».

فقال عبد الله: «إذا كانت تحبك كما تقول فليس أسهل من إقناعها بالرجوع عن قتل الإمام فيتاح لك البحث عن الساعي في قتله وتردعه عن غيه فإذا لم يرتدع قتلته أو نقلت خبره إلى الإمام ليرى رأيه

فيه».

فارتاح سعيد إلى هذا الرأي.

أقبلا على الكوفة والشمس مائلة إلى المغيب وكان سعيد قد قضى ذلك النهار يستحث ناقته لعله يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن من الذهاب إلى بيت قطام إذ لا صبر له على تأجيل زيارتها وهو على مقربة منها، فلما دنا الغروب وهو لم يدخل الكوفة بعد، انقبضت نفسه، وأدرك عبد الله ذلك مما آنسه فيه من السكون. فأراد أن يروح عنه فقال له: «أبعيدان نحن عن منزلك».

قال: «إذا ما دخلنا المدينة دنونا منه لأنه في أطرافها».

قال: «إني أستعجل الوصول لأستريح من وعثاء السفر وأنجو من ركوب الجِمال فقد أتعبني اليوم جريها».

قال سعيد: «إني أراني على ضد ذلك وتحدثني نفسي أن أصلي العشاء في المسجد قبل المبيت».

فأدرك عبد الله إنه إنما يريد زيارة قطام ليطلعها على حديث جده ويرى ما يبدو منها عندما تعلم بما عول عليه، فرأى أن يثنيها عن زيارتها حتى يتمكن من تهيئة السبيل والحيلة في مخاطبتها لئلا يفشلا، لعلمه بما هو عليه سعيد من سلامة الطوية التي يخشى عليه منها. فقال له: «دعنا نصلِّ العشاء معاً في المنزل ونصبح إن شاء الله فنصلي في المسجد».

فلم يراجعه سعيد حياء وقبل. ولكنه أسر في قلبه أن يذهب خلسة إلى منزل العجوز لبابة ليتحسس الحال.

ودخلا الكوفة وقد أمسى المساء فقصدا إلى منزل سعيد فترجلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالنعاس فذهب كل

إلى فراشه، وانتظر سعيد حتى ظن رفيقه قد نام فالتف بعباءته وانسل إلى بيت لبابة وقطع طريقه يفكر كيف يبدأ بالكلام، فلما وصل رأى لبابة خارجة منه وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها، فبغت لرؤيتها وحياها فردت التحية وهي لا تكاد تصدق أنها تراه. فلما تحققت أنه سعيد رجعت وهي تبالغ في الترحاب به وتضحك ضحكتها المعهودة. فاستأنس بترحابها، ثم تذكر ما جاء فيه من الأمر الجديد فانكمش قلبه ولكنه تبعها حتى وقفا بباب الحجرة فأمرت عبدها أن يضيء المصباح وعادت إلى مخاطبته فسألته عن ساعة وصوله. فقال: «إني وصلت الساعة ومن شدة تعبي من السفر الطويل لم أصبر على رؤيتك قبل المنام».

فقهقهت قهقهة دوى لها البيت وخيّل إليه لفرط قلقه أن عبد الله يسمعها فقال لها بصوت خافت: «وما الذي يضحكك يا خالة؟».

قالت: «لقد أضحكني شوقك إلى رؤية هذا الوجه القبيح (وأشارت إلى وجهها) وأنت إنما تشتاق إلى رؤية وجه أجمل منه.. أليس كذلك؟».

فقاطعها وهو يخفض صوته وقال: «لا والله إني الآن في شوق إليك أكثر من شوقي إلى قطام لأني وقعت في ورطة لا أرى أحداً ينجيني منها سواك فاسعفيني برأيك ودهائك، وأرجو قبل كل شيء أن تحفظي قدومي إليك الآن سراً تكتمينه عن كل إنسان، لأن معي رفيقاً صحبني من مكة فلما وصلنا إلى الكوفة ورأى ميلي إلى الخروج أقعدني حتى الصباح فاستحييت وبقيت فلما استغرق في نومه جئت خفية...».

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد

يقول: «لقد عودتني يا خالة أن تكوني عوناً لي في مصائبي فأنت التي أقنعت قطام بمهارتك ودهائك بزواجي بها فألتمس منك الآن أن تقنعيها بما جئت به إليك».

فعجبت العجوز لاهتمامه الشديد ولو كان قلبها حياً لخفق واضطرب ولكنها تعودت الأهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يخفيها أمر. فقالت: «قل ما بدا لك إني مستودع أسرارك ولا آلو جهداً في خدمتك».

فتنهد سعيد وسكت وهي تحدق به بعينيها الغائرتين. وبعد هنيهة قال لها: «لقد جئتك بأمر لا أدري كيف أبدأ الحديث فيه».

قالت: «قل ولا تبالي ولا تجزع فإني عركت الدهر ولقيت الأهوال حتى لم أعد أستغرب أمراً. قل ما بدا لك».

قال سعيد: «أنت تعلمين أني عاهدت قطام على قتل الإمام علي».

قالت: «نعم أعلم ذلك».

قال: «وهل تعلمين لماذا خرجت إلى مكة».

قالت: «علمت أنك شخصت إليها ولكنني لم أعلم السبب».

قال: «شخصت إليها إجابة لطلب جدي رحمه الله».

قالت: «جدك أبو رحاب؟ ما الذي أصابه؟».

قال: «إنه مات بعد وصولي إلى مكة بيوم واحد وكان قد بعث إلي ليراني قبل موته».

قالت: «مات أبو رحاب! رحمة اللّه عليه. إنه كان رفيقاً بك شفوقاً عليك وأنا أعلم أنك ربيت في حجره وقد كان أحن من الوالد عليك. ولا شك أن موته شق عليك كثيراً، وكم كنت تود أن يبقى

حياً ليفرح بك ويشهد زواجك بعد أن يعلم بما عاهدت عليه لتنقذ بني أمية من العار و. . .».

فقطع كلامها قائلاً: «آه يا خالة لقد كنت أظن هذا الظن قبل أن أراه ولكنني ما لبثت أن ندمت على ذهابي إليه لأنه حملني قبل موته حملاً ترينني أنوء به».

قالت: «وماذا عسى أن يكون؟».

قال: «إن ما ظننته سبباً لارتياحه قد رأيته داعياً لغضبه».

قالت: «هل أخبرته بعزمك على قتل علي؟».

قال: «نعم أخبرته ولكنه أنكر عليَّ قتله وأوصاني وهو على فراش الموت أن لا أمد يدي إلى هذه الجريمة لأن هاتفاً جاءه وأنبأه ببراءة الإمام عليٍّ مما يتهمونه به».

وكان سعيد يتكلم ولبابة شاخصة إليه وقد أسِفت لخيبة مسعاها، ولكنها لدهائها ومكرها لم تبد حراكاً ولا أظهرت استغراباً بل تشاغلت بإصلاح خمارها تنتظر آخر الحديث.

وأما سعيد فكان يكلمها وهو يتوقع بغتتها أو غضبها فلما رآها صامتة مصغية تجرأ على إتمام الحديث فقال: «ولما سمعت كلام جدي جادلته فرأيت منه إصراراً على رأيه وقص عليَّ شيئاً كثيراً من الأدلة والشواهد المؤيدة لقوله».

قال سعيد ذلك وسكت وهو ينتظر ما تقوله العجوز، فرآها لا تزال صامتة ولم يبد على وجهها شيء من الاستغراب، فعطف بحديثه على المؤامرة التي شاهدها في الكعبة ظناً منها أنها توازن ما تقدم من الحديث الغريب. فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الإمام علي وعمرو ومعاوية رأت فيها تعزية ولكنها أظهرت الاستخفاف بما

تآمروا عليه وأرادت أن تتحقق ما عول هو عليه فقالت: «وهل علم أبو رحاب قبل موته بتلك المؤامرة؟».

قال: «نعم إني أطلعته عليها قبل إرسال نَفَسه الأخير ببعض الساعة فلم يزدني إلا ثقلاً بوصية قالها وهو في آخر ساعات الدنيا.. آه من تلك الوصية».

قالت: «وما هي؟».

قال: «إنه يوصيني بألا أكتفي بالكف عن قتل الإمام علي، بل يجب أن أدفع عنه. فلم أر بداً من إجابة طلبه وأنت تعلمين موقفي في مثل هذه الحال... ولكني لم أعاهده إلا بعد أن تفطر قلبي لدموعه التي كانت تنحدر على لحيته وقد شخصت عيناه وتلعثم لسانه وتلجلج صوته حتى خيّل إليَّ أن عظامه تتكلم».

فلما تحققت نكوله عن عهده خافت إذا أظهرت له الاستياء أن يبوح بأمرها وأمر قطام إلى علي وهما في الكوفة فينتقم عليٌّ منهما، فأرادت أن تخادعه فتأخذ منه ولا تعطيه فقالت: «ولماذا لم تذعن لجدك فإن كلام مثل هذا الشيخ الجليل يعتبر خارجاً من أفواه الملائكة».

فلما سمع كلامها انشرح صدره فابتسم وقال بكل سذاجة: «كيف لم أذعن؟ لقد أذعنت وعاهدته وهل أستطيع غير ذلك؟ ولكنني عاهدته وقلبي في شاغل بقطام وعهدها لعلمي أن ذلك العهد يحرمني منها». ثم عطف فقال: «ولكني لما تذكرت حبك لي وغيرتك عليَّ هان الأمر وقلت إن ما يعسر على مثلي يهون على خالتي لبابة.. بالله.. ألا ساعدتني على إقناع قطام بالرجوع عن عزمها على قتل الإمام علي، إنه والله بريء مما اتهموه به.. بالله ساعديني واشفقي علي فقد وقعت في حيرة بل هي مصيبة لا ينجيني منها سواك». قال ذلك وجثا أمامها وهَمَّ بيدها وقبّلها وقد كادت العبرات تخنقه.

فتظاهرت تلك العجوز المحتالة وتبسمت وهي تجذب يدها من بين يديه لتمنعه من تقبيلهما وأجلسته وقالت: «طب نفساً يا بني، إني فاعلة ما تريد وأرجو أن يساعدني الله على إقناعها..».

فلما سمع سعيد قولها ابتسم والدمع ملء عينيه إعجاباً بحنوها وفرحاً بنيل بغيته التي لم يكن يتوقعها وفرح بمجيئه تلك الليلة ومقابلة لبابة قبل مقابلته قطام.

أما لبابة فنظرت إليه وهي تحك ما وراء أذنها برأس سبابتها كأنها تفكر فيما تختلقه من الأسباب لإقناع قطام، وهي في الحقيقة تدبر حيلة لخداع سعيد ثم قالت: «طب نفساً ولا تبالي فإني أضن لك الفوز إذا أطعتني..» فابتدرها قائلاً: «إني طوع مشيئتك في كل ما تأمرين، هذا مالي وكل ما أملكه بين يديك».

وكان سعيد يتكلم ولبابة مطرقة. ثم سكت هو وظلت هي مطرقة، ثم استأنفت الحديث بغتة فقالت: «سبحان الله لقد مرت بي أيام وأنا مستغربة ما يبدو لي من قطام على غير المعتاد فقد يكون الذي فاه به جدك في مكة أثّر في قطام هنا ولا أدري ما هو هذا التأثير».

فدهش سعيد مما سمعه وقال: «ماذا تعنين؟».

قالت: «أعني أني آنست من قطام تغيراً غريباً بعد ذهابك، فإنها لم تعد تذكر الانتقام وقضت أياماً عديدة كأنها في حيرة أو كأن أمراً طرأ عليها لا تتكلم إلا قليلاً فعسى أن يكون ما غيَّرك قد غيّرها. وعلى كل حال كن في راحة وسكينة وأنا أدبر الأمر، فلا تذكر أنك جئت إليَّ ولا إنك رأيتني قبل رؤيتها».

قال: «بارك الله فيك. والله إن قضيت لي هذه المهمة لا أدري كيف أكافئك. ولكني أتقدم إليك ألا تذكري زيارتي هذه لأحد ولا سيما رفيقي عبد الله».

قالت: «سمعاً وطاعة فعليك إذن أن تأتي غداً لزيارتها في منزلها وأنا هناك، ولا تزد على السلام والكلام العادي. واحذر أن تذكر شيئاً عما خضنا فيه إلا إذا هي خاطبتك به.. وهل تنوي اصطحاب رفيقك غداً؟».

قال: «سيأتي معي ولا بأس من الخوض في الأمر بين يديه لأنه بمنزلة أخي».

قالت: «فليكن ما تريد وفقنا الله لما فيه خيرك وراحتك».

فازداد سعيد إعجاباً بغيرتها وحنوها فقال لها: «اسمحي لي أن أقبّل يدك فإني لما فقدت جدي الذي كان بمنزلة أبي حسبت نفسي يتيماً ولكنني تحققت الآن من حنوّك أني ما زلت مرموقاً بعين العناية. ها إني قد ألقيت الحِمل على عاتقك فدبري الأمر كما يلوح لك». قال ذلك وقبّل يدها مراراً ونهض ونهضت لوداعه وهي تقول له: «نم هنيئاً وموعدنا في اللقاء غداً في بيت قطام».

خرج سعيد من عندها وقلبه يطفح سروراً لنجاته من شر عظيم. ولم يدر ما بيتته له تلك العجوز من أساليب الخداع. فلما توارى عنها عادت إلى غرفتها وأعملت فكرتها الخبيثة في حيلة تنطلي عليه بحيث يصدق عدول قطام عن عزمها. ولولا خوفها من أن يشي بها وبقطام إلى علي إذا أنكرت عليه وصية جده لجاهرت بمقاومته، ولكنها رأت من الفطنة والدهاء أن تجاريه في رأيه، وتحمل قطام على مشاركتها في ذلك، ثم تحتالا في بقاء المؤامرة مكتومة حتى ينفذ المتآمرون عهدهم فيُقتل عليٌّ. وما درت لبابة أن قطام أشد دهاء منها وأعظم حيلة وأنها ستزيد على ذلك وسيلة أخرى للفتك بسعيد على أهون سبيل.

ولم تعد لبابة تستطيع رقاداً قبل إطلاع قطام على الأمر ليهيئا

الحيلة قبل مجيء سعيد فنهضت لساعتها وسارت إلى بيت قطام.

- ٦ -
لقاء قطام

أما سعيد فخرج والفرح ملء فؤاده حتى أتى منزله فرأى رفيقه نائماً لفرط تعبه فسُر لذلك سروراً عظيماً. ومضى إلى فراشه ولكنه لم يستطع رقاداً لشدة تأثره، فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليله وهو يفكر في ساعة اللقاء غداً ولا يصدق أن يلقى قطام على مثل رأيه. فلما تصور عدولها عن قتل عليٍّ كاد يطير من الفرح بما سيناله من الاقتران بها ثم يعترضه كلام جده وما كلفه به من السعي في الدفاع عن عليٍّ وردع الساعي في قتله فيختلج قلبه في صدره لهول ذلك الأمر، على أن هذا الأمر لم يكن شيئاً بالنظر إلى ما يتوقعه من السعادة بالحصول على قطام.

ولم تغمض عيناه حتى الصباح، ولم يكد ينام حتى أفاق مذعوراً وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفته فأسف لإبطائه في الفراش والوقت ثمين، فنهض لساعته وخرج يبحث عن عبد الله فإذا هو قد لبس ووقف يصلي فصلى معه وهو لا يفقه ما يقول.

فلما فرغ من الصلاة قال له عبد الله: «لقد أبطأت في رقادك يا أخا أمية».

قال: «إنما أبطأت لهول ما لقيناه من التعب في الطريق».

فصدقه عبد الله وجلسا لتناول الطعام وسعيد غارق في تصوراته وقد أدرك عبد الله ذلك فيه ولكنه حسبه من قبيل الشوق إلى قطام فقال له: «ألا تنوي الذهاب إلى قطام؟».

قال: «بلى أرى أن نسير إليها لعل الله يأخذ بيدنا ونرى منها انصياعاً للحق فتعدل عن عهدها».

فأراد عبد الله أن يختبر ثباته فقال: «هب أنها لم تقبل فماذا تفعل؟ هل تبقى على عزمك أم ترجع عما أوصاك به جدك؟».

قال سعيد: «إننا نبذل جهدنا في إقناعها فإذا لم تقتنع ظللنا على عزمنا فإن وصية جدّي مقدسة».

فسُرّ عبد الله لثباته على عزمه وهو لا يعلم أنه لم يفعل ذلك إلا بعدما أملته به لبابة من إقناع قطام، ولولا ذلك لتردد في الجواب كثيراً وربما آثر البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده، لأن غرامه بتلك الغانية الفتانة غلب على كل عواطفه.

فلما رأى عبد الله عزمه استعجله في الذهاب إلى قطام مخافة أن يطرأ عليه ما يُضعف عزيمته. وكان عبد الله أسرَّ في نفسه إذا أنس فيه ترددا أن يثنيه عن الذهاب إليها. فلما فرغا من الطعام نهضا ومشيا يقصدان بيت قطام.

ولم يكن بال سعيد خالياً من القلق ولكنه اطمأن إلى ما منّته به لبابة من الوعود.

ووصلا إلى المنزل ودخلا الحديقة فاختلج قلب سعيد إذ عادت إليه ذكرى لقياه قطام هناك وما تبادلاه من آيات الغرام. وفيما هما سائران بين النخيل رأيا لبابة بالباب تبتسم. فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقه وراءه حتى دنوا منها فحياها سعيد كأنه لم يكن قد رآها بعد رجوعه. فردت تحيته وسلمت على رفيقه، فدخلا حتى أقبلا على قطام فإذا هي واقفة إلى نافذة تطل على البحيرة وقد لبست جلباباً أسود فوقه خمار أسود فلما رأتهما أرخت خمارها وأقبلت نحوهما، فحياها سعيد وذكر اسم رفيقه لها وقال: «لقد أتيت ومعي صديقي وأخي عبد الله فإنه أنيسي ومساعدي».

فرحبت بهما ودعتهما للجلوس فجلسا وكلهم سكوت،

وبدأت العجوز بالكلام فقالت: «لقد أوحشتنا يا سعيد بطول غيابك وقد أخبرنا ريحان أنك أتيتنا يوم سفرك فلم ترَ قطام فشغلنا عليك لسرعة ذهابك فعسى أن يكون الباعث خيراً؟».

فتنهد سعيد وقال: «كلا أنه لم يكن خيراً يا خالة لأني ذهبت إلى جدي أبي رحاب في مكة فقد أرسل أخي هذا عبد الله يدعوني إليه».

قالت: «وماذا عسى أن يكون سبب استدعائك؟».

قال: «دعاني لأراه بعد أن هرم وغلبه الضعف والمرض على أمره، فلما تحقق دنو أجله أراد أن يراني قبل موته فسرت ولم أمكث إلا ليلة حتى قضى نحبه».

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كأنها لم تسمعه من قبل وقالت: «هل مات جدك؟.. رحمة الله عليه وعزاك الله وأبقاك». وتنهدت كأنها تذكرت من فقدتهم وقالت: «إن موت الأهل شديد الوطأة».

وكان عبد الله يراقب حركات قطام، وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيداً على افتتانه بها وخاف أن تصر على عهدها فتخرج من نصيب سعيد، فأحب أن يطرق الموضوع ليرى ما يبدو منها ولكنه رأى أنه لم يسبق له أن عرفها فقد تتجنب الخوض في الأمر، فنهض وخرج وخرجت لبابة في أثره تماماً لحيلتها.

فلما خلت قطام بسعيد سألته: «من هذا الشاب؟ وهل هو ممن يوثق بهم؟».

قال بنغمة المحب المفتون: «إنه رفيق صباي وموضع أسراري ولا أخشى بأساً من اطلاعه على كل شيء».

قالت: «وهل اطلعته على عهدنا؟».

قال: «نعم يا حبيبتي وهل ترين ما يمنع ذلك؟».

قالت: «كلا، لا أرى مانعاً ولكنني كنت أوثر أن لا تطلعه لخاطر خطر لي بعد ذهابك إلى مكة».

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال: «وما الذي خطر لك؟».

قالت: «سأقصه عليك وآمل أن تطاوعني عليه ولا تطالبني بما سبق بيننا من العهود».

قال: «قولي ما تشائين. فمشيئتك هي العهد الذي يقيدني، فإني رهين إشارتك».

قالت: «أتذكر لما جئت إلينا يوم سفرك ولم تجدني في البيت؟».

قال: «كيف لا أذكر ذلك وقد كان له عندي أثر شديد».

قالت: «أتدري أين ذهبت يومئذ؟».

قال: «كلا».

قالت: «خرجت في ذلك اليوم إلى أهلي ولم يكن غرضي الزيارة وحسب ولكنني شعرت بقلق واضطراب ولم أذق رقاداً تلك الليلة التي عاهدتك فيها على قتل أمير المؤمنين. فلما أصبحت قلت في نفسي لعل سبب هذا القلق أني ارتكبت ذنباً بما سعيت فيه ظلماً لقتل الإمام. فلاحَ لي أن أمضي إلى أهلي وأبحث وأدقق عن حقيقة ما وقع، فعلمت بعد البحث أن الذنب في قتل أبي وأخي لم يكن ذنبه هو، وتحققت أنه بريء، وأنه نصح لهما مراراً قبل الوقعة بأن يرجعا فأبيا، ولما احتدم النزال وعلم أنهما في خطر أوصى بألا يصيبهما أحد بسوء.. ولكن بعض الأغرار قتلهما وهو لا يدري، فلما علِم غضب على القاتل وانتقم منه. فشعرت عندئذ أني قد أخطأت بما نويته واعتزمت أن أحوّلك عما تعاهدنا عليه. فقضيت مدة غيابك وأنا في

حيرة لا أدري كيف أبدأ بإقناعك. وحفظت ذلك سراً كتمته حتى عن خالتي لبابة».

ولم يتمالك سعيد عند سماعه ذلك عن النهوض فجأة ونادى عبد الله ولبابة فجاءا، فالتفت سعيد إلى عبد الله وقال له: «تعال اسمع يا أخي ما أعده الله لنا من أسباب السعادة. فإننا لم نكلف أنفسنا عناء إقناع قطام. بل هي تريدنا أن ننسى العهد الذي رويت لك خبره ونقلع عما عزمنا عليه».

فتجاهلت قطام قوله وقالت: «ماذا تقول يا سعيد وما الذي جئتنا به عساه أن يكون خيراً».

فعرضت لبابة للكلام وقالت: «يلوح لي أنك جئتها بمثل ما جاءتك هي به».

قال: «نعم يا خالة وأحمد الله على ذلك فإني جئت من مكة مقتنعاً ببراءة الإمام علي وأخذت على نفسي عهداً أمام جدي ألا أمُس عليّاً بسوء، وكنت أخشى ألا توافقني قطام عليه فأُصبح أشقى الناس. فالحمد لله إذ قضى بما فيه خيرنا جميعاً». وجلس يقص عليهم حديث جده وما أوصاه به فظهرت أمارات البِشر والسرور على الجميع، ثم استطرد إلى حديث المؤامرة فلما ذكر أن أحد المتآمرين آلَ على نفسه ليقتلن الإمام عليّاً تظاهرت قطام بالغضب وقالت: «ألم تعرف مَن هو الرجل؟».

قال: «لم أعرفه ولكنني علمت من سياق الحديث أنه من فسطاط مصر».

قالت: «أما وقد علمت بعزم هذا الرجل فقد أصبح السكوت عنه مشاركة له في القتل، فلا بد من ردعه أو قتله».

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال: «وقد فاتني أن أذكر أن جدي أوصاني بأن أسعى في دفع السوء عن علي».

فقالت: «وهذا ما أراه أنا أيضاً لأن السكوت عنه جريمة، ولكني أرى أن يبقى أمر هذه المؤامرة سراً لا نطلع عليه أحداً لئلا يسبقنا إلى نيل الفخر برده، وحتى لا يتسرب الخبر إلى المتآمر فيستعجل أمره ويقتل علياً ونحن لم نعرفه بعد ولم نبدأ سعينا لإحباط عمله. ألا ترى هذا الرأي يا عبد الله؟».

فدُهش عبد الله من توارد الخواطر، فلو علم بزيارة سعيد للبابة لانكشف له سر الحياد ولكنه أخذ الأمر على ظاهره فقال: «هذا هو الرأي الصواب، وها أنذا شارع مع أخي سعيد في السعي لردع ذلك الرجل».

قالت: «وماذا تنويان عمله؟».

قالت سعيد: «أرى أن نذهب إلى الفسطاط ونبحث عن الرجل فإذا عرفناه هانَ علينا ردعه».

فقالت قطام: «وما الفائدة من ذهابكما وأنتما لا تعرفان الرجل ولا تعلمان شيئاً من أمره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه. هل ذهبتما إلى الفسطاط قبل الآن وهل تعرفان أحداً هناك؟».

قال عبد الله: «إني أعرف الفسطاط ولكنني لم أقم بها طويلاً ولا أعرف أحداً من أهلها ولكننا نبذل جهدنا».

- ٧ -
الاجتماعات السرية

فتقدمت لبابة والاهتمام بادٍ عليها وكأنه قد فتح عليها برأي سديد فقالت: «اجلسوا وسأهديكم إلى طريق يهوّن عليكم كل

صعب».

فجلسوا جميعاً فقالت: «لا تسخروا برأي عجوز مثلي فإني أعرف من الأسرار ما لا تعرفون. اعلموا أن في مصر من مريدي الإمام علي أحزاباً جمة أذعنوا لعمرو بن العاص مكرهين، وهم صابرون على ما أصابهم في مقتل ابن أبي بكر، وهم ينوون الانتقاض إذا أتيحت الفرصة لذلك».

فقال عبد الله: «هذا ما تفاخرينا بمعرفته؟ إنه لا يجهله أحد من المسلمين، وإني لأعلم ما هو أكثر منه».

قالت: «وما الذي تعلمه؟».

فابتسم عبد الله مستخفاً وقال: «هناك أمور كثيرة علمتها من جدنا أبي رحاب رحمه الله، وقد أوصاني بألا أطلع عليها أحداً».

فتوقعت لبابة أن تطلع علي على ما ورائي على سر، وهي لم تقل ما قالته إلا استدراجاً له، فهزت كتفها والتفتت إلى قطام التفاتة ذات معنى، ففهمت قطام مرادها.

فابتدرت عبد الله قائلة في دلال: «إذا كنت قد وقعت على سر فاحفظه ولا تبح به لأحد من الخوارج مثلنا».

فخجل عبد الله من توبيخها اللطيف، ونظر إلى سعيد فرآه ينظر إليه كأنه يتوقع منه أن يفشي السر لئلا تسيء قطام الظن بهما، فقال معتذراً: «حاش يا مولاتي. إني لا أعني كتمان السر عنك بعد أن رأيناك مثلنا حماسة للدفاع عن أمير المؤمنين بل لقد كنت أنت الداعية إلى الدفاع عنه. ولكنني قلت ما قلته عفواً، ولكي تثقي من حُسن نيتي سأبسط السر لك ولخالتي لبابة». قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كأنه يحاذر أن يسمعه رقيب، أو عدو، فلما أصغى الجميع

قال: «علمت من جدي رحمه الله أن في الفسطاط جمهوراً كبيراً لا يزالون على دعوة الإمام علي، وهم متحدرون قلباً وقالباً في القيام بنصرته، ولهم اجتماعات سرية يعقدونها للمفاوضة في الوسائل المؤدية إلى ذلك». ولما بلغ إلى هذا الحد تلعثم لسانه كأن شيئاً أوقفه عن إتمام الحديث، وارتبك وظهرت عليه البغتة، كأنما ندم على ما فرط منه وعول على الإمساك عن تتمة الحديث. فأدركت لبابة المحتالة سبب توقفه فابتدرته قائلة وهي تضحك: «أنعِم به من سر عميق لم يطلع عليه أحد، إني لا أراك زدت على قولي حرفاً واحداً. ألم أقل أن دعاة علي باقون على دعوته، فماذا زدت أنت على ذلك إلا أنهم يجتمعونَ سراً؟ أم تراك ندمت على ثقتك بنا فبدأت بالحديث ثم قطعته؟ وعلى كل حال لست ألومك على ذلك فإنك لا تعرفنا قبل هذه الساعة».

فقطعت قطام حديثها قائلة: «أتقولين إنك لا تلومينه بينما أراك عاتبة عليه؟ دعيه لئلا يظننا راغبين في استطلاع سره لغرض لنا ونحن إنما نريد بعض ما يريده عبد الله فلا حاجة لنا في سره، ولكننا نوصيه بأن يقوم بمؤازرة سعيد فيما أوصاه به جده، وهذا يكفينا». ثم وجهت كلامها إلى سعيد قائلة: «لقد سرني من رفيقك محافظته على السر حتى عن هذه الحقيرة التي بعد أن كانت أول الناقمين على عليٍّ أصبحت من أكبر المدافعين عنه، وهب أنه أراد إفشاء ذلك السر فما نحن سامعون ما يقول، إذ ربما وسوس لنا الشيطان فبحنا به للأعداء».

فوقع كلام قطام في قلب سعيد موقع السهام، وغلب عليه الحياء والتفت إلى عبد الله وقال: «لا طاقة لي باحتمال هذا التأنيب يا عبد الله، قل ما تعلمه سواء أسمعته قطام أم لم تسمعه، ولن أبرح

هذا المكان قبل أن أسمع بقية الحديث».

فندم عبد الله على ما فرط منه وأصبح لا يدري كيف يتخلص من حيائه وارتباكه. ولما رأى إلحاح سعيد هانَ عليه التصريح بما يعرفه ولم يرَ في ذلك لوماً عليه فقال: «أراكم تتهمونني بذنب أنا براء منه، فإني لم أتوقف عن إتمام الحديث ضناً به على قطام بعد أن تحققت إخلاصها في الدفاع عن عليٍّ، ولكنني صبرت ريثما أستجمع كلام جدي بحرفه، فإذا أذنت قطام تلوته عليكم حالاً».

قال سعيد: «قل ما علمته، وإذا سدت قطام أذنيها عن سماعه فأنا أسمعه».

قال عبد الله: «أخبرني أبو رحاب رحمه الله أن دعاة الإمام علي يجتمعون سراً في معبد قديم خارج الفسطاط في مكان يُعرف بعين شمس، وهم يتفاوضون فيه سراً في يوم الجمعة من كل أسبوع».

فسُرّت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السر، ولكن لبابة لدهائها ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والإنكار وقالت: «أهذا هو السر العظيم؟ إنه باطل لا يقبله العقل!».

فاغتاظ عبد الله من استخفافها وقال: «وما الدليل على بطلانه يا خالة؟».

قالت: «تقول إن دعاة عليّ يجتمعون هناك كل يوم جمعة ونحن نعلم أنهم يعدّون بالألوف فكيف يسعهم ذلك المعبد؟. وهب أنه وسعهم فكيف يجتمع الألوف منهم كل أسبوع ولا يدري بهم عمرو بن العاص وعيونه مبثوثة في أطراف الفسطاط، فهل ذلك معقول؟».

فسُرّ عبد الله لاستخفافها بكلامه وحسب إفشاءه السر غير ذي

أثر، وودّ الوقوف عند هذا الحد، فلم يرض سعيد بذلك بل أخذ على نفسه تفسير مقاله وهو يحسب أنه أتى جديداً فقال: «إن عبد الله لا يعني باجتماع دعاة عليٍّ إنهم يجتمعون جميعاً كباراً وصغاراً ولكنه يريد أن رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط». فضحكت لبابة وهمّت بالرد عليه. فقطعت قطام كلامها قائلة: «يظهر يا خالة أنك إنما تريدين المزاح، فقد طلبت من عبد الله إفشاء سره ثم جعلت تجادلينه، ونحن لا يهمنا من الأمر إلا الوصول إلى الغاية المرجوّة، وهذا يكفي».

ثم وجهت كلامها إلى سعيد قائلة: «دع لبابة وتخريفها واسع فيما أنت ساع فيه. سر إلى دعاة عليّ حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب. ولا أوصيك إلا وصية واحدة ذكرتها في بدء الحديث وهي أن تبقي هذا الأمر مكتوماً فيما بيننا عن كل إنسان، حتى نعرف الخائن الذي يريد قتل الإمام عليّ، فإذا عرفناه فإما أن نُرجعه عن غيّه أو نرى رأينا فيه على ما تقتضيه الحال. أما إذا أشعنا خبره الآن فإنه يبالغ في التستر، وربما أسرع في إنفاذ سهمه فيقتل أمير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثاً. أما الآن فنحن على يقين من أنه لا يقدم على ذلك إلا في ١٧ رمضان، ونحن لا نزال بعيدين عنه. وزد على ذلك أنك إذا حفظت هذا الأمر مكتوماً وتفردت في البحث عنه كان الجزاء عظيماً. ولا أرى فائدة من إطالة البحث. ولكي تتحقق من شدة رغبتي في الإسراع، أبدل عهدي إبدالاً يسرّك فبدلاً من أن يكون اقترانا موقوفاً على قتل الإمام عليّ فقد جعلته وقفاً على إنقاذه من القتل، فإذا كنت تحبني، وهذا ما لا أشك فيه، فبادر إلى العمل، وهذان عبد الله ولبابة شاهدان على ما أقول».

وكان سعيد بعد أن تغيّر وجه المسألة يرجو أن يقترن بقطام قبل

ذهابه في هذه المهمة. فلما سمع كلامها خجِل من مراجعتها لئلا يُقال أنها أشد رغبة منه في الدفاع عن علي، فانطلت الحيلة عليه ولم يسعه إلا إجابتها فقال: «وهذا ما أطلبه أنا أيضاً لكي يتم عقد الزواج على يد الإمام نفسه بحول الله».

وكان عبد الله يسمع هذا الحديث وقد خامره شك في كلام قطام، وندم لتسرعه في إفشاء السر فظل صامتاً لئلا يقع فيما يزيد ندمه، وشعر لساعته بما أتته تلك الفتاة من الدهاء. ولم يرَ خيراً من إظهار ثقته بها فأخذ يطري غيرتها ويثني على صدق مودتها فقال لها: «إني أعد أخي سعيداً من أسعد خلق الله لتوفيقه إلى مثلك، وإني أدعو الله تعالى أن ينجح مقاصدنا»، وسكت هنيهة ثم قال: «وقد أصبت في حرصك على كتمان الأمر عن كل إنسان، بارك الله فيك». والتفت إلى لبابة فقال: «وأنت يا خالة نرجو أن تزودينا دائماً بدعواتك الصالحة وآرائك الصائبة».

فقالت لبابة: «أما الرأي ففي الإسراع في الأمر، فعليكما بالسفر حالاً إلى مصر، وأطلب إلى الله تعالى أن يوفقكما ويسهل طريقكما، وإذا أتيتما الفسطاط فاطلبا عين شمس في يوم الجمعة، ولن تعدما من أنصار أمير المؤمنين مَن يرشدكما إلى الباغي».

وقضوا برهة في أحاديث أخرى، ثم انصرف عبد الله وسعيد، وفي نفس أولهما شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها، لما آنسه من إخلاصه لقطام وارتياحه إلى وعودها، ولكنه عوّل على انتهاز فرصة يستطيع بها التسلط على أفكاره.

ولما خلت لبابة إلى قطام بعد خروج سعيد وعبد الله قالت لها: «لقد تمت لنا كل المعدات وآن يوم الانتقام على يد غير هذا الجبان وإن علياً سيُقتل لا محالة ولقد أحسنت بتطمينه ومسايرته. وأحسن ما رأيته

من دهائك توصيته بالكتمان لأنه لو اطلع علياً على خبر المؤامرة لفشل أصحابها ونجا عليٌّ من الموت».

فأجابت قطام قائلة: «ولكن ذلك وحده لا يضمن لنا الفوز، وأنا لم ألتمس منه الكتمان لهذا الغرض فقط، ولكني أردت أن يبقي خبر المؤامرة مكتوماً عن كل إنسان لغرض آخر».

قالت: «وما ذلك فإني لم أفهم مرادك؟».

قالت: «أتكونين لبابة العجوز الماكرة ويخفى عليك مغزى كلامي؟ ما الفائدة إذن من البحث عن مجتمع أنصار عليٍّ؟».

قالت: «إني ما زلت أجهل ما تريدينه، فما مرادك؟».

قالت: «مرادي أن أبعث إلى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها، ليقبض على رجالها، وسيكون سعيد وعبد الله بينهم، فإما أن يقتلهما أو يسجنهما، فإذا قتلهما ظل أمر المؤامرة مكتوماً عن كل إنسان، وإذا سجنهما ظلاً في السجن إلى ما بعد ١٧ رمضان على الأقل فيكون قد نفذ السهم وانتقمت لأبي وأخي، ولا يهمني بعد ذلك أمر».

فلما سمعت لبابة كلام قطام هممت بها وقبّلتها وهي تقول: «بورك فيكِ يا بنية والله إنك أبعد مني نظراً وأشد دهاء، وإذا أحياك الله إلى سني فإن إبليس نفسه لن يقوى على مكرك!». قالت ذلك وضحكت. وظلت قطام عابسة لم تعبأ بضحكها ولكنها نادت ريحان خادمها فحضر وكان جالساً في مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه أحد، فلما وقف بين يديها قالت له: «ألم يُقتل سيداك ظلماً؟».

قال: «كيف لا، وإني مطالب بدمهما؟».

قالت: «أتدري لماذا دعوتك؟».

قال: «أحسبك دعوتني لتبعثي بي إلى عمرو بن العاص في الفسطاط لأخبره بأمر مجامع العلويين».

قالت: «نعم إني دعوتك لمثل هذا، بورك في سوادك. هذا وقت الحاجة إليك. ولكن لا تذكر اسمي لعمرو، أنا واثقة بفطنتك فلا تخيّب أملي. إذهب إلى مصر أبلغ الرسالة، وجئني بمقتل هذين أو سجنهما وأنت حر لوجه الله».

فقطب ريحان حاجبيه وأجاب كأنه يعاتبها: «ألا تعلمين يا مولاتي أنك تهينينني بهذا الكلام من حيث تريدين سروري. أتظنينني أوثر الحرية على الاستعباد لك. لقد قلت قولاً فاسمحي لي أن أقول مثله. إنني ذاهب لإنفاذ مرامك فإذا أنا فزت فيه رجوت أن تعديني بألا تذكري حريتي أبداً».

فضحكت قطام وأظهرت الإعجاب بشهامة ريحان وقالت: «سر يا أسود. إنك والله خير من ألف أبيض».

ـ ٨ ـ
أمام الفسطاط

الفسطاط مدينة عمرو بن العاص في مصر بناها سنة ٢٠ للهجرة بعد فتحه الاسكندرية. وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) إنه لما فتح حصن بابل حيث دير ما جرجس الآن أو دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقر الصلح بينه وبين المقوقس، نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامه منصوبة خارج الدير بين النيل وجبل المقطم، فأمر بتقويضها للرحيل فجاءه منبىء بأن في فسطاطه يماماً معششاً وتحته صغاره ولا تستطيع الطيران، فقال عمرو: «لقد احتمت بجوارنا فأقروا الفسطاط حتى تطير فراخها». فتركوا الفسطاط منصوباً حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حوله. ولما

أكملوا عمارة المدينة أطلق عليها اسم الفسطاط، وهي أول مدينة بناها المسلمون في مصر واتخذوها عاصمة ملكهم، حتى بُنيت القاهرة في القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة إليها.

وكانت الفسطاط في العام الأربعين للهجرة، وهو العام الذي جاءها فيه سعيد ورفيقه عبد الله، قد عمرت وأقامت بها القبائل والأفخاذ في خطط وحارات بُنيت لهم. وكانت مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية طولها ميلان فيما يقرب من مصر العتيقة الآن. وأما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذ مجرى النيل، وكان إذا جرى رست سفنه بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقة اليوم، فكل ما بين الدير والنيل من اليبس وما أقيم عليه من البناء إنما حدث بعد ذاك.

وكان جامع عمرو الباقية آثاره إلى اليوم مركز تلك المدينة، وحوله أنشئت الخطط والأزقة. وكان أقربها إلى الجامع المذكور دار عمرو، أو هما داران: الدار الكبرى والدار الصغرى، وكان المسلمون أولاً ينزلون في الخيام فلما بنى عمرو داريه اهتم الناس ببناء المنازل. ولم يكن قبل الفسطاط هناك إلا بعض الأديار للقبط متفرقة بين النيل والمقطم. وبنوا الخطط أو الطرق على أسماء القبائل التي تألفت منها حملة ابن العاص في ذلك الحين ومن نزح بعدهم، وأوجههم جميعاً أهل الراية من قريش والأنصار وخزيمة وغيرهم، فبنوا لهم خطة سموها خطة أهل الراية، ثم خطة مهرة، وخطط لخم واللفيف والصدف من كندة وخولان، فضلاً عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين الذين حضروا الفتح وأصلهم من بقايا جند (باذان) عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، أسلموا في الشام، وكان هناك خطط أخرى لا تحصى فضلاً عن الطرق والأزقة والحارات.

فنرى مما تقدم أنه لم يكن يقيم بالفسطاط في أول أمرها غير

المسلمين وأما المسيحيون واليهود ممن كانوا هناك قبل الفتح فمن آثر البقاء برعاية المسلمين أقام في الأديار خارج الفسطاط، وأكبرها دير النصارى (دير مار جرجس) وهو الحصن الذي حوصر فيه المقوقس ورجاله لما جاءهم المسلمون، وكان يسمى حصن بابل أو قصر الشمع. وربما أقام بعض القبط أو اليهود في الفسطاط لتجارة أو صناعة أو كتابة، لأن عمروا عهد إلى القبط أول الأمر في أعمال حكومته وأبقى الدواوين تكتب بالقبطية، وبقيت كذلك إلى إمارة عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأبدلت بها العربية.

وكانت مدينة عين شمس (المطرية) شمالي الفسطاط خربة لم يبقَ من أبنيتها الشامخة ومعالمها الرفيعة إلا بعض الجدران الغليظة أو الأعمدة الضخمة والمسلات من بقايا الهياكل الفرعونية وهي مهجورة لا يقيم بها أحد فإذا احتاج الناس إلى حجارة أو أعمدة يبنون بها داراً كبيرة أو جامعاً حملوها من أنقاضها.

وقد تركنا سعيداً وعبد الله وهما يتأهبان للرحيل في ذلك اليوم، فأصبحا على راحلتيهما وخرجا من الكوفة يلتمسان الفسطاط، وهما لا يعلمان ما أعدته لهما قطام من المكائد. وسارا يواصلان الليل بالنهار حتى أقبلا في فجر يوم جمعة على الفسطاط، فأطلا عليها من سفح المقطم فإذا هي ممتدة على ضفة النيل على مسافة طويلة وراءها يجري النيل وفيه السفن راسية تحمل الغلال والأحمال، بعضها قادم من الصعيد والبعض الآخر صاعد من الشمال. وفي وسط المدينة جامع عمرو وحوله الأبنية والدور، فوقفا هنيهة يدبران الخطة التي يجب أن يسيرا عليها للقيام بمهمتهما.

فقال عبد الله: «ها نحن أولاء أمام الفسطاط وقد طلع فجر الجمعة الذي يجتمع فيه دعاة أمير المؤمنين في عين شمس على ما

نعلم. فهل نظل هنا برهة ثم نسير تواً إلى عين شمس؟».

فقال سعيد: «لا داعي إلى بقائنا هنا، وقد يكون في بقائنا مظنة سوء ونحن على ما يعلم الناس من دعاة معاوية. وزد على ذلك أننا لا ندري متى يعقد ذلك الاجتماع: أفي الصباح أم في المساء؟ أم في وقت بينهما».

قال عبد الله: «لست على يقين من ساعة الاجتماع، ولكنني أظنهم يجتمعون بعد صلاة العصر إلى المساء على أني لا أرى بأساً من النزول إلى الفسطاط حيث نصلي الصبح ونضع دوابنا في مأوى تستريح فيه، ثم أخرج أنا للبحث عن ساعة الاجتماع ومكانه وأعود إليك فنذهب معاً».

قال سعيد: «هذا هو الصواب».

ونزلا بناقتيهما حتى دخلا المدينة وهي ساعتئذ آهلة بالناس وقد أذن المؤذنون يدعون الناس إلى صلاة الصبح فأتيا المسجد وأمامه ساحة كبرى تقف فيها الدواب تشد إلى أوتاد أو نخيل. فربطا الراحلتين ودخلا المسجد للصلاة وكانت الشمس قد أضحت وتقاطر المسلمون أفواجاً فدخلا في جملة الداخلين.

ولم يكد يستقر بهما الجلوس حتى رأيا الناس في حركة وجلبة وقد فتح باب في بعض جوانب المسجد دخل منه رجال في أيديهم السياط يزجرون الناس. فقال سعيد: «من هؤلاء؟». قال عبد الله: «إنهم الشرطة يفسحون الطريق للأمير». ولم يكد عبد الله يتم كلامه حتى دخل رجل ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأنها العقيان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة، فعرفا أنه عمرو بن العاص. وصعد المنبر والناس ينظرون فحمد الله وصلّى على النبي (صلى الله عليه وسلم) ووعظ الناس وأمرهم ونهاهم، وجعل

يحضّهم على الزكاة وصلة الأرحام، ويأمر بالتوفير وينهي عن الفضول، وكثرة العيال وأفاض المقال في ذلك إلى أن قال: «يا معشر الناس، إياكم وحلالاً أربعاً فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العزة. إياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال، ثم إنه لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومَن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه، فيحوز من الخير عاطلاً وعن حلال الله وحرامه غافلاً. يا معشر الناس إنه تدلت الجوزاء، وذلت الشعرى، وأقلعت السماء وارتفع الوباء، وقل الندى وطاب المرعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السخائل، وعلى الراعي لرعيته حسن النظر، فحي لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، واربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً، وإياكم والمومسات والمعسولات فإنهن يُفسدن الدين ويقصرن الهمم. حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة). فكفوا أيديكم، وعفوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، ولا أعلمن أن رجلاً أسمن جسمه وأهزل فرسه. واعلموا أني معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا فتح الله

عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض). فقال له أبو بكر رضي الله عنه: (ولم يا رسول الله؟)، قال: (لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة). فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم، وتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم. فإذا يبس العود، وسخن الماء، وكثر الذباب، وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي إلى فسطاطكم على بركة الله، ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال إلا ومعه تحفة لعبد الله على ما أطاق من سعته أو عسرته، أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم».

وكان عمرو يخطب والناس يسمعون وقد خشعوا لما تكلمه من الأوامر والنواهي والوصايا. فقال عبد الله لسعيد همساً: «والله إنه لنعم الأمير، وشلّت يد تقتله. إني والله منذره بذلك متى دنا الأجل المضروب». فلم يجبه سعيد مخافة أن يلحظ أحد شيئاً مما هما فيه.

وخرج الناس بعد الصلاة، وخرج عبد الله وسعيد، واجتمعوا في ساحة المسجد خارجاً، وتعارفوا فعرف عبد الله رجلاً من غفار كان له معه صداقة فدعاه سعيداً إلى منزله ليقيما عنده فاعتذرا فألح عليهما فسارا معه لئلا يوجب ابتعادهما شبهة، فأنزلهما في منزل له في خطة اسمها خطة خارجة بن حذافة فأمر الغفاري عبداً له بتسلم الراحلتين والسير بهما إلى المرابط، ودخل بالضيفين إلى غرفة لم يريا فيها نافذة إلا كوة في أعلاها فعجبا، وهَمَّ عبد الله بالاستفهام عن ذلك وأوقفه التأدب، فلحظ الغفاري استغرابه فقال له: «لا تعجب لحال هذه الغرفة فإن كذلك سائر أبنية الفسطاط».

فقال عبد الله: «إني والله يا أخا غفار لفي عجب عجاب مما أرى فما الذي دعا إلى هذه الأقفال؟». فقال الغفاري: «اعلما أن خارجة بن حذافة صاحب شرطة الأمير عمرو بن العاص هو أول مَن

ابتنى غرفة في الفسطاط. فلما علم بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يومئذ كتب إلى عمرو بن العاص يقول: (ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير فإن اطلع من كواها فاهدمها). ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فأقرها فلم يجسر أحد أن يبني غرفة بعد ذلك إلا على هذا الوصف وهو أضمن للحجاب».

ثم جاءهما الغفاري بالزاد فأكلا، وما لبثا حتى خرجا يطلبان الخلوة للنظر فيما جاءا من أجله، ومشيا في المدينة يتظاهران بالتفرج على مشاهدها فقال سعيد: «إننا في وقت الظهر وما العمل؟».

فقال عبد الله: «دعني أسر وحدي إلى عين شمس فإنها على بضعة أميال من هنا حيث ترى الخرائب وأمامها هاتان المسلتان، وسأبحث لأهتدي إلى مكان الاجتماع فإذا عثرت عليه جئتك على عجل. فأين الملتقى؟».

قال: «ابقى أنا في المسجد حتى تعود إليّ واحذر أن تطيل غيابك».

فسكت عبد الله ولبث برهة يفكر ثم قال: «إذا أبطأت في الرجوع إليك فاذهب إلى عين شمس وانتظرني بقرب هاتين المسلتين القائمتين فأوافيك إليهما أو ابعث مَن يدعوك إلينا».

فافترقا وقصد عبد الله إلى عين شمس وقد جعل وجهته إلى المسلتين وكانتا ظاهرتين عن بعد. وعاد سعيد إلى الجامع.

وأقبل عبد الله على عين شمس فإذا هي مؤلفة من أطلال ليس فيها من الأبنية إلا الجدران والأعمدة، فطاف بين خرائبها فلم يرَ أحداً ولا سمع صوتاً. وقضى في ذلك ساعتين يتردد بين تلك الجدران ثم يعود إلى حيث بدأ فلم يرَ أثراً للآدميين، فظن نفسه قد

أخطأ المكان أو أساء فهم ما بلغه من أمر ذلك الاجتماع حتى كاد يهم بالرجوع وقد خاب ما أمله وخيّل إليه أن دعاة عليّ أبدلوا بمجتمعهم هناك مكاناً آخر.

فأسند ظهره إلى الجدار ووقف يفكر فيما يفعله وقد مالت الشمس إلى المغيب فرأى رجلاً قادماً من الفسطاط فتشاغل عبد اللّه بمشاهدة ما هو محفور على تلك الآثار من الرسوم الهيروغليفية كأنه يعجب لغريب صنعها. وكان الرجل يظهر تارة ويختفي تارة أخرى في مروره بين الأعمدة والخرائب وعبد الله يختلس النظر إليه. ثم نظر فإذا به قد اختفى.

فعجب عبد الله لأمره وقال في نفسه: «لا بد أن يكون الرجل من أهل ذلك الاجتماع السري وقد نزل في نفق أو نحوه». فالتمس المكان الذي ظن أنه اختفى فيه فوجد منحدراً يظهر لأول وهلة أنه مسدود فنزل فيه وهو يخطو الهوينا حتى انتهى إلى ظلمة دامسة فوقف وأصاخ بسمعه فسمع لغطاً فاستبشر بالوصول إلى المكان المطلوب ولكنه لم يكن يعرف مدخل تلك المغارة وخاف أن يراه القوم فيقتلوه.

فوقف برهة يتردد بين أن يسير متلمساً طريقه وبين أن يرجع ليأتي بسعيد. ثم بدا له أن يتحقق المجتمع أولاً ثم يعود، فخطا بضع خطوات وهو لا يرى شيئاً أمامه فلطم رأسه السقف، فحنى ظهره وداهمه العطاس لرطوبة الهواء فعطس عطسة دوى لها المكان وما شعر إلا قد ظهر نور ضعيف وتقدم بضعة رجال كلهم ملثمون وعليهم أردية سوداء تزيدهم رهبة فقبضوا عليه وهو لا يبدي حراكاً، ونزلوا به في الممر إلى قاعة تحت الأرض واسعة وكل جدرانها وسقفها مغطاة بنسيج أسود مما يجعل المنظر رهيباً، ولولا شمعات مضيئة في بعض جوانب المكان لكانت الظلمة لا تطاق لكثافتها. ونظر عبد الله إلى ما

حوله فرأى في وسط القاعة دكة مغطاة بملاءة سوداء لم يدر ما تحتها ولكنه لم يستطع التأمل وقد أحدق به بضعة عشر رجلاً التحفوا العباءات تحتها السيوف وكلهم ملثمون، فخاطبه واحد منهم يسأله عما يريده.

فقال: «إني جئت أشارككم فيما أنتم فيه».

قال: «وما أدراك ما نحن فيه؟».

قال: «علمت أنكم تدعون الناس إلى نصرة الإمام علي. أليس ذلك ما تدعون إليه؟».

قال: «وما شأنك في هذا؟».

قال: «شأني هو شأنكم. لا تسيئوا الظن بي إني قادم من الكوفة لهذا الأمر».

فقال له رجل آخر: «كيف تكون أموياً وتدعي نصرة الإمام عليّ؟».

فخيّل إلى عبد الله أنه يستمع صوت صديقه الغفاري الذي أضافه في الصباح.

فقال: «ألست أنت صديقي الغفاري. اصدقني ولا تخف إني والله جئتكم بخبر مهم إذا أشركتموني في أمركم أطلعتكم عليه وتحققتم صدق قولي».

فقال الغفاري: «إذا كنت صادقاً فيما تقول تعال معي». ومشى فتبعه إلى الدكة في وسط القاعة ورفع عنها الملاءة السوداء فإذا هناك مصحف فوقه سيف مسلول وقال له: «ضع يدك على هذا السيف وأقسم بالله العظيم إنك حليف للإمام عليّ تنصر نصيره وتحارب عدوه».

فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف معاً، وأقسم.

ثم قاده الرجل إلى دكة أخرى رفع غطاءها وتناول قارورة فيها مسحوق أسود كأنه الكحل فقال عبد الله: «وما هذه؟». قال: «هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن أبي بكر الذي أحرقتموه ظلماً، فإذا كنت تطلب الهداية ونصرة الحق فعليك أن تكتحل بهذا الرماد وتبكي ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الأخذ بثأره، فهل تقبل وتظل على قسمك؟».

قال: «إني معكم فيما تريدون وقد صدقتكم القول».

فتقدم صاحبه ففتح القارورة وأدخل فيها شيئاً علق عليه بعض الرماد فأعطاه إلى عبد الله فاكتحل به فهاجت عيناه وانسكب الدمع على الرغم منه فشاركه الرفاق في البكاء.

ثم أزاح الغفاري لثامه وقال: «نعم إني صديقك كما قلت، ولكن اعلم أنك إذا كنت على غير ما تقول فإني عدوك أهدر دمك بحد هذا السيف. قل ما بدا لك».

فلما اطمأن عبد الله تذكر سعيداً فقال: «إن لي رفيقاً أريد أن أدعوه ليشهد ما نحن فيه ويشاركنا في هذا الجهاد».

فقال له الغفاري: «إنك لا تبرح هذا المكان حتى خروجنا جميعاً فقل ما تريد».

فأطاع وقال: «لا تعجبوا لأني أموي. فقد أصاب صاحبي الغفاري، فقد كنت من أنصار معاوية وكنت مطالباً بدم عثمان، ولكن طرأ عليَّ طارىء سأقص عليكم نبأه بعد، أما الآن فأقول إني قادم من الكوفة وقد علمت أن أمير المؤمنين عليّاً بن أبي طالب قد جمع رجاله هناك فاجتمع له أربعون ألف مقاتل، وكلهم مستعدون للنزال

وبذل النفس والمال في هذا السبيل».

فقال الغفاري: «إن رجالنا يعدون بالآلاف وكلهم وكل ما ملكت أيديهم وقف على نصرة الإمام ابن عم الرسول».

وهَمّ عبد الله بإتمام الحديث فاعترضه أحدهم قائلاً: «عرفناك أموياً من ألد أعداء الإمام، فما الذي حملك على نصرته مجازفاً بحياتك؟».

فأخذ يقص عليهم حديث أبي رحاب، ولم يكد يفوه بكلمتين حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فوق رؤوسهم وقد ارتج المكان فوقهم فأنصتوا ووقع الرعب في قلوبهم، وخيّل إليهم أنها دسيسة من عبد الله، فهمّوا بقتله ولكنهم ما لبثوا أن رأوا المشاعل منبعثة من مدخل الممر وقد انهالت الشرطة عليهم فأرادوا الدفاع عن أنفسهم فلم يفلحوا، وشد الشرطة وثاقهم وساقوهم في ظلام الليل إلى الفسطاط.

ـ ٩ ـ
السجينة الأمينة

مكث سعيد في الجامع حتى دنا الغروب ولم يعد عبد الله فحارَ في أمره هل يذهب إلى عين شمس أو ينتظر عودة عبد الله. ثم غربت الشمس فلم يرَ بداً من المسير إلى عين شمس كما أوعز إليه عبد الله. فخرج من الفسطاط وجعل المسلتين وجهته والظلام يكاد يحجبهما عنه فمشى وقد أوجس خيفة من إبطاء عبد الله ولم يعد يرى المسلتين إلا إذا برزتا في الأفق. ثم اختفتا ولم يعد يراهما وخاف أن يضل الطريق. وفيما هو في ذلك سمع دبيباً وقرقعة كأن جنداً قادماً وراءه فتنحى عن الطريق فإذا بكوكبة من الفرسان مرت به مسرعة نحو عين شمس فأوجس في نفسه خيفة. والتفت إلى يمينه فرأى بيتاً قائماً في بستان.

فبدا له أن يتوجه إليه يستفهم عن الطريق. فلما دنا منه سمع صوتاً خارجاً من بعض جوانب الممر استوقف انتباهه فوقف وأصاخ بسمعه فسمع صوتاً رخيماً يمازجه بكاء ولم يرَ هناك نوراً ولا رأى أحداً في البستان. فقصد باب البيت فإذا هو موصد ووضح له صوت الباكي فأنصت فسمع صوت امرأة تبكي وتقول: «ألا تخاف الله يا ظالم؟ أما كفاك ما واطأت عليه من قتل البريء حتى رميت ألوفاً من الناس في خطر القتل الفظيع؟ هل مَن ينبىء هؤلاء الأبرياء بالوشاية بهم فينقذهم من الموت؟».

فلما سمع سعيد تلك العبارات اقشعر بدنه ولم يعد يصبر على استطلاع سبب ذلك البكاء. فقرع الباب قرعاً خفيفاً فانقطع الصوت بغتة، فصبر هنيهة وكرر القرع ويده ترتعش رهبة فلم يسمع شيئاً، فازداد شوقاً إلى استطلاع السر، ولكنه خاف أن يقع في مكيدة وهو غريب هناك، فلبث برهة والهواجس تتقاذفه وقد حدثته نفسه أن بين ما سمعه وبين ما يسعى في البحث عنه علاقة كبرى. وكان الفرسان الذين مروا به قد بعدوا عنه ولم يعد يسمع من وقع حوافر أفراسهم غير الدوي البعيد. فأيقن أنهم في طريقهم إلى عين شمس ولم يفهم سبب ذهابهم إليها في ذلك الليل. وبعد التأمل فيما سمعه ورآه أيقن أن في الأمر سراً يهمه الاطلاع عليه.

فهز الباب بيده هزاً عنيفاً كأنه يفتحه بالعنف فلم ينفتح ولم يعد يستطيع صبراً فقال بصوت خافت: «هل في المنزل أحد يفتح الباب... إني غريب ضللت الطريق!..».

فأجابه الصوت من الداخل: «ليس في البيت سواي.. والباب مقفل لا سبيل إلى فتحه».

فازداد سعيد دهشة واستغراباً وقال: «مَن أنت أيها المتكلم؟ إني

أراك في ضيق فهل من سبيل إلى إنقاذك؟».

فأجابه الصوت: «يا حبذا إذا استطعته إني حبيسة. مَن أنت؟».

قال: «قلت لك إني غريب ضللت الطريق، أريني وجهك أو ارشديني إلى وسيلة أفتح بها الباب».

قالت: «عالج الأقفال بالعنف لعلك تستطيع فتحها فتنقذني، وربما أنقذت ألوفاً من الناس معي».

ثارت الحمية في رأسه واستل خنجره وجعل يعالج الأقفال وهي تساعده من الداخل حتى فُتح الباب فبرزت منه فتاة محلولة الشعر عليها رداء أهل الفسطاط ولما رأت سعيداً قالت: «مَن أنت أصدقني الخبر؟».

قال: «أصدقيني أنت ولا تخافي، لقد سمعتك تندبين ألوفاً من الناس فمن هم؟».

فتفرست فيه وتفرس فيها فلم يعرفها ولا عرفته.

ثم قالت له: «مَن قال لك إني أندب ألوفاً؟».

قال: «سمعتك بأذني. افصحي ولا تخافي».

قالت: «وما يهمك من أمر هؤلاء الألوف؟».

قال: «أخاف أن أكون منهم».

قالت: «وما الذي جاء بك إلى هنا؟».

قال: «كنت ذاهباً إلى عين شمس فتهت وجئت لأسأل أهل هذه الدار عن الطريق فسمعت بكاءك. فما خطبك. قولي لقد نفد صبري».

قالت: «إن أخاف العيون، ولا أثق بأحد بعد أن غدر بي أبي فكيف أثق بالغرباء؟».

قال: «رُبّ غريب أقرب من القريب. قولي ولا تخافي».

وفيما هما في ذلك سمعا وقع الحوافر وصوت الضوضاء من ناحية عين شمس، فدخلت الفتاة الغرفة وجرَّت سعيداً بثوبه ولم تفه بكلمة، فدخل في أثرها وقد تولته الدهشة ولبث صامتاً. ولم تمض برهة حتى دنت الضوضاء منهما وسمعا من بين الأصوات قائلاً يقول: «لقد وقعتم في أيدينا أيها الخائنون وعرفنا دسائسكم». وسمعا لغطاً كثيراً مختلطاً فظلا صامتين حتى مرّ الفرسان كلهم وهم يسوقون جماعة من المشاة موثقين.

فلما تواروا عن البيت لطمت الفتاة وجهها وقالت: «لقد نالوا بغيتهم قبحهم الله وقبضوا على الجماعة».

فقال: «وأي جماعة، هل قبضوا على جماعة عين شمس؟».

قالت: «نعم إنهم قبضوا عليهم وأأسفاه».

فدق سعيد يداً بيد وخرج يرقب الفرسان كأنه يريد أن يتحقق طريقهم.

فقالت له: «أخالك كنت سائراً إليهم».

قال: «نعم».

فقالت: «لقد نجاك الله من أيديهم وكأنما أراد الله أن تضل الطريق لنجاتك».

فاضطرب سعيد واختلج قلبه في صدره وقال: «بالله عليك افصحي يا أخية فقد نفد صبري، وقد علمت غرضي فأخبريني عن حقيقة أمرك».

قالت: «لم أعد أستطيع البقاء هنا مخافة أن يفاجئنا قادم فتكون العاقبة وخيمة علينا».

قال: «وهل تريدين أن نبعد عن هذا المكان؟».

قالت: «نعم هلُمَّ بنا، فإذا خلونا تحادثنا، وعساك أن تتلافى أمراً لا أزال خائفة من وقوعه، وهو شر عظيم». قالت ذلك وخرجت فمشت أمامه وهو يتبعها حتى خرجا من البستان وأوغلا في الحقول، وهو يسير في أثرها إلى حيث لا يدري، وكلاهما صامت لا يفوّه بكلمة، حتى دنوا من بناء عالي الجدران كأنه لا باب له فقالت له: «هذا دير للقبط فلندخله بحجة الزيارة فنكون في مأمن»، ومشت أمامه إلى باب صغير في أسفل الحائط مصفح بالحديد، فقرعته فأطل عليها من نافذة في أعلى الحائط راهب في يده مصباح وقال: «مَن يقرع الباب؟».

ولم تمض هنيهة حتى فُتح الباب فدخلا وقد أحنيا رأسيهما لضيقه فأشرفا على ممر دخلا منه والراهب يسير بالمصباح أمامهما حتى انتهيا إلى الكنيسة، فنظر الراهب إليهما في نور المصباح فعرف أن الفتاة من أهل الفسطاط بل من أشرافهم، فسر لزيارتهما ورحّب بهما وأدخلهما إلى غرفة مضاءة في الجانب الآخر من الكنيسة وسألهما: «هل تحتاجان إلى شيء؟». فقالا: «كلا». فتركها وقفل راجعاً.

تأمل سعيد الفتاة على ضوء المصباح فوجدها شابة في مقتبل العمر جميلة الطلعة وقد احمرت عيناها وذبلت أهدابهما من البكاء، فلم يزدها ذلك إلا حسناً، وكانت قد ضفرت شعرها في أثناء الطريق وغطت رأسها بطرف ثوبها. فجلسا على وسادة فوق حصير وسعيد في لهفة على حديثها وقلبه يخفق توقعاً للنبأ الغريب، فابتدرها بالسؤال عن حقيقة أمرها.

فنظرت إليه ولم تكد تتأمله حتى قالت: «لعلك أحد الغريبين اللذين وصلا إلى الفسطاط صباح هذا اليوم؟».

قال: «نعم، وما أدراك بذلك؟».

قالت: «رأيتكما مع جارنا الغفاري، وها أنذا أقص عليك خبري الغريب، وأرجو منك أن تسرع في تلافي الخطر العظيم الذي سيَدهم المسلمين قريباً».

قال بلهفة: «قولي، إني لهذا الأمر أتيت الفسطاط، فعسى أن أكون قد وقعت على ضالتي».

قالت: «إني اطلعت على سر لا أظن أحداً عرفه قبلي، ألست على دعوة الإمام عليّ؟».

قال: «بلى إني على دعوته، وقد جئت في سبيل نجدته».

وهمّت بالكلام، ثم توقفت برهة وأطرقت، فلحظ سعيد ترددها وأدرك أنها أساءت الظن به فقال لها: «لا تظني سرك مجهولاً لديّ وإذا شئت قلته لك. وليطمئن قلبك أقول أنه يتعلق بالإمام عليٍّ وفيه خطر على حياته».

فاطمأنت ولكنها تنهدت وقالت: «اعلم يا سيدي أن أبي يصنع السلاح ويبيعه في الفسطاط، وقد ربيت وأنا أسمعه يتشيع للإمام علي فانغرس حب هذا الإمام في قلبي، وما أنا في حاجة إلى مدح أبي الحسن وهو ابن عم الرسول وصهره، ولكنني ذكرت لك هذا لأطلعك على التغيير العجيب الذي طرأ علينا فقد كنا ندعو أبداً لعليٍّ بالنصر، حتى كانت واقعة صفين منذ بضع سنين فلحظت فتوراً في غيرة أبي، ولكنني لم أعرف لذلك سبباً. وقد كنت كثيراً ما أراه يختلي بجار لنا من بني مراد، كان يعلّم الناس القرآن، وكنت أحسبه من

أهل التقوى. ولكنني وجدته وأسفاه من أهل العداء، وما زالا يجرؤان على التظاهر به لأن مصر في حوزة الإمام علي وعاملها محمد بن أبي بكر. فلما جاءنا ابن العاص بخيله ورجله، وحارب دعاة علي فقتل ابن أبي بكر قتلة لم يسبق لها مثيل في الإسلام، استقام الأمر للأمويين، فجاهر أبي بعداء علي، وكان جارنا المرادي يزيده كرهاً له. فعلمت أنهما تشيعا للخوارج، فظللت مع ذلك صابرة كاظمة إذ لا سبيل لي إلى شيء أعلمه وأنا فتاة ضعيفة كما ترى. وكان أبي يظنني على دعوته. ففي ذات يوم جاءنا ذلك المرادي يخطبني من أبي فقبل، أما أنا فلم أجب خوفاً من إكراهي على الزواج، وصممت على الفرار إذا حملني أبي إليه كرهاً، وما زلت أماطل في عقد القران إلى الآن».

- ١٠ -
عبد الرحمن بن ملجم

كانت الفتاة في أثناء كلامها عن الزواج مطرقة حياء فلما بلغت هذا الحد رأت سعيداً مصغياً كأنه يتطلع إلى إتمام الحديث فقالت: «ولا أطيل عليك قبل أن أصل إلى جوهر الموضوع فأقول إني احتملت الأمر بالصبر ثم علمت أن المرادي خرج إلى مكة فظننته حاجاً وتمنيت ألا يعود، ولكنني ما لبثت أن رأيته قد عاد».

قالت ذلك وتنهدت وسعيد ينتظر لسماع ما تقول وقد دهش لغرابة الحديث.

فقالت: «عاد المرادي بمهمة جديدة ليتني مت قبل أن أسمع نبأها. فإذا لم أجد مَن يتحمل المشقة في تلافيها تلافيتها بنفسي.. جاء هذا المرادي ثاني يوم وصوله إلى الفسطاط، فخلا إلى أبي كل الليل، وأنا لا أعلم ما دار عليه حديثهما، ثم بلغني أنه أوصى أبي بأن

يصنع له سيفاً ماضياً أنفق عليه ألف درهم، وقضى مائة يوم يشحذه فلم أفهم معنى هذا الاستعداد، ولا اهتممت به، وبعد أن شحذه كلّف أبي فسقاه السم. وقد علمت أنه أنفق على سقايته ألف درهم أيضاً. فويل لجسم يجرحه هذا السيف ولو جرحاً خفيفاً».

فقال: «لقد سقيته السم».

فتظاهرت بالدهشة وقلت: «ولأي شيء هذا؟». وما زلت أحاوره وأجادله حتى خدع فقال: «اعلمي يا خولة أني سأقتل بهذا السيف رجلاً يزعمون أنه أكبر رجل في الإسلام ويقولون إنه أقربهم إلى الرسول». قال ذلك والشر بادٍ في عينيه واصفرار اللؤم يتخلل ما كان يحاوله من الابتسام. أما أنا فلما سمعته ارتعدت فرائصي واختلج قلبي وأظنه قرأ ذلك على وجهي. كيف لا وقد ظهر لي أنه يريد قتل الإمام عليٍّ. ولكنني أردت التثبت فقلت: «ومَن هو ذلك الرجل؟». فقال: «ألا تعلمين مَن هو؟ ألا تعرفين سبب كل هذا الانقسام؟ فإذا كنت لم تفهمي بعد فأقول لك إنه عليٌّ بن أبي طالب الذي يدعوه أشياعه أمير المؤمنين». قال ذلك واحمرت عيناه وتجلى الغدر في وجهه وقال: «احذري أن تبوحي بذلك لأحد، وإلا أصابك جرح من هذا السيف». قال ذلك وهو يمزج الجد بالهزل. أما أنا فتحققت أنه يقتلني ولا يبالي، فالذي يجرؤ على قتل أمير المؤمنين كيف لا يقتل فتاة مثلي. فلم أستطع جواباً وخفت إذا أنا نطقت أن ينكشف أمري، فسكتُّ وقد عوّلت في سري على السعي لإبلاغ أمير المؤمنين ذلك على عجل، لأن موعد القتل قريب وأظنه في ١٧ رمضان، لأني كثيراً ما كنت أسمعه يذكر هذا التاريخ ويعرض بذكر الكوفة، ولم أكن أفهم مراده وقتئذ، وأما الآن فقد تأكدت أنه عازم على قتل الإمام علي في ١٧ رمضان، ونحن الآن في أواسط شعبان وأخاف أن ينال هذا

الرجل بغيته قبل أن يبلغ الخبر عليّاً. آه يا ليتني طير لأحمل الخبر إليه».

فمل سعيد ولم يعد يستطيع صبراً على التصريح باسم ذلك الرجل والإفصاح عن غرضه بسقاية السيف، وخامره الشك في أنه ربما كان يعد لقتل الإمام عليٍّ. وكان قد صبر نفسه حتى يسمع ذلك من فم الفتاة ولكنه ملّ الانتظار فسألها قائلاً: «وما اسم هذا الرجل؟».

فقالت: «اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي».

فلم يذكر أنه يعرفه، أما خولة فتنهدت وقالت: «فلما رأيت منه هذا الاستعداد المريب عمدت إلى الحيلة، فلما جاءنا في صباح أمس يودع أبي وقد عزم على الكوفة، قلت في نفسي: سيذهب الرجل وأنا جاهلة السر. فتظاهرت بإعجابي بشجاعته وإقدامه، وأطريت غيرته على الإسلام ونحو ذلك، وسألته أن يريني السيف لأتأمل فرنده، فجاء به وأوصاني أن أتقي حده لأن جرحه يميت، فسللته بحذر، فإذا هو يلمع لمعاناً تقشعر منه الأبدان، فارتعد جسمي ولكنني أظهرت الجلد وقلت: أراك أنفقت مالاً كثيراً على صقله، ما الفائدة من هذا اللمعان؟».

فضحك مستخفاً وقال: «أتحسبينني أنفقت كل ذلك المال على صقله فحسب؟».

قلت: «وماذا هناك، إني لا أرى فيه غير اللمعان».

نهض سعيد عندما سمع كلام خولة، وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً والحمية ملء رأسه، وندم على تركه الكوفة قبل أن يطلع الإمام عليّاً، ولكنه تذكر أنه لم يكن يعرف اسم المجرم الذي يريد اغتيال حياته، فلم تكن ثمة فائدة من إعلامه، أما الآن فإنه يذهب

إليه بالخبر اليقين.

وكان مع شدة اضطرابه بعد أن سمع حديث خولة لا يغفل عما يتجلى في وجهها من ملامح الجمال وما في حديثها من صدق اللهجة، وقد أعجبه منها بنوع خاص غيرتها على الإمام عليٍّ، فشعر بميل إليها. ولكنه تذكر عهده لقطام وما يظنه من حبها له فرأى ألا يطلق لنفسه العنان في حب سواها. على أنه ما لبث أن عاد إلى التفكير في عبد الله ومصيره وسبب وجود خولة في ذلك البيت المنفرد، فقال لها: «لا أدري يا مولاتي ما الذي ساقني إلى منزلك حتى حظيت برؤيتك وسمعت هذا الحديث الذي جئت الفسطاط من أجله. ولا أُخفي عليك أني كنت عالماً بعزم بعضهم على الفتك بالإمام، ولكنني لم أكن أعلم اسم ذلك المجرم، فجئت الفسطاط ومعي رفيق من ذوي قرابتي كان قد سبقني في صباح هذا اليوم إلى مجتمع العلويين في عين شمس، على أن يعود إليّ بخبرهم، فلما أبطأ سرت في أثره وأنا لا أعرف الطريق فضللت في الظلام حتى اهتديت إليك لحسن حظي. ولكنني في قلق على رفيقي فإنه يلوح لي أن الفرسان الذين شاهدناهم الليلة كانوا قادمين من عين شمس، وربما قبضوا على أنصار عليٍّ هناك... ألا تظنين ذلك؟».

فقالت خولة: «لو صبرت حتى تتمة حديثي لكفيت نفسك مؤونة الظن، ويلوح لي أنك تود الاطلاع على سبب وجودي منفردة في ذلك البيت المغلق، فاعلم أني لما سمعت حديث المرادي سكت وكظمت غيظي، فخرج الرجل وأظنه شخص إلى الكوفة، ولبثت أنا في حيرة لا أدري ماذا أعمل، فقضيت أمسي في الهواجس والظنون، وكلما تصورت عليّاً مقتولاً بسيف هذا الغادر يقشعر بدني. وكان أبي يخرج إلى حانوته في الصباح ولا يعود إلا في المساء،

وعندنا في المنزل عبد رباني منذ حداثتي وهو يحبني ويكرمني، وكنت قلما أكلمه، فخطر لي أن أنتهز فرصة غياب أبي وأكلم العبد عساه أن يطلعني على نبأ جديد، أو لعلي أفهم شيئاً آخر. لأن حديث ابن ملجم أتعبني وأقلق راحتي، وليس لدي مَن أشكو إليه أمري، أو أكاشفه سري. فخرجت من حجرتي لأدعو العبد فلم أجده، فناديته باسمه فأبطأ ولم يجب، فنظرت من الدار إلى الطريق فرأيته واقفاً مع عبد آخر غريب وهما يتهامسان. فلما رآني خجل وأسرع إليّ، فدخلت غرفتي ودخل هو في أثري وعلى وجهه آثار الاضطراب كأنه سمع خبراً غريباً يريد أن يقصه عليَّ. فقلت: (أين كنت وقد دعوتك فلم تجب؟). قال: (كنت مع عبد قادم من الكوفة في مهمة سرية إلى الأمير عمرو). فقلت: (وهل أطلعك على خبرها؟). فأراد أن يبرهن على ثقته بي فقال: (إنه أطلعني على سر لا أظن أحداً يعرفه في كل الفسطاط سوى الأمير وبعض شرطته). ثم أخبرني أن ذلك العبد الذي كان معه جاء إلى الأمير عمرو بأن أنصار عليٍّ يجتمعون سراً في عين شمس يوم الجمعة، وأن عمروا أرسل جنداً للقبض عليهم أو قتلهم في ساعة الاجتماع). فلما سمعت ذلك لم أتمالك عن البكاء لشدة الغيظ، ورأيت فرضاً عليَّ أن أبلّغ المجتمعين ذلك الخبر ليحذروا. ولكنني لم أكن أعرف أحداً أثق به في إنفاذ هذه المهمة فعوّلت على الذهاب بنفسي ساعة الاجتماع. فأصبحت اليوم وأنا أنتظر خروج أبي إلى حانوته، لأتنكر وأسير إلى عين شمس، فلم يخرج ورأيته مضطرباً كأن العبد أخبره بالحديث، وبأنه أطلعني عليه، فخاف أبي أن أبوح به لأحد قبل القبض على المجتمعين. فلازمني حتى الظهر، ثم دعاني إلى الخروج من الفسطاط للنزهة، فأتينا هذا البيت وهو بيت لشريك لنا في الفلاحة وليس فيه أحد، فلم أظهر استغرابي ولم أقل شيئاً لأني كنت عالمة بأن أبي سيكون في جملة

الذاهبين إلى عين شمس فلا بد له من أن يتركني، فإذا تركني خرجت وأنا على مقربة من المكان. وما علمت ما أضمره لي فإنه لم تكد الشمس تميل إلى الغروب حتى خرج متظاهراً بأن أمراً ما يدعوه إلى الذهاب، وادعى أنه أقفل الباب عليَّ خوفاً من الغرباء أو أبناء السبيل، وهو يعلم أني لا أستطيع النداء والاستنجاد لأني إذا تظاهرت بنصرة الإمام كنت من المغضوب عليهم، فظللت هناك حتى جئت أنت ورأيتني في هذه الحال، فلا شك أنهم قبضوا على زميلك في جملة مَن قبضوا عليهم من الأنصار».

قال سعيد: «هل ترين بأساً عليه؟».

قالت: «أظنهم يسجنونه ليستجوبوه، ثم إذا رأوا قتله قتلوه، وكذلك يفعلون برفاقه. ولكن لا بأس عليه بإذن الله وسنتدبر أمره، على أني أخاف إذا عاد أبي ولم يرني في البيت أن تزيد نقمته عليَّ، فأرى أن أذهب إلى منزلنا في الفسطاط، وأتظاهر بأني خفت من البقاء في البيت وحدي ففتحت الباب بأسلوب ما وأتجاهل كل ما حدث، فماذا أنت صانع؟».

قال: «أود أن أسرع إلى الكوفة لأرى ابن ملجم فأقنعه بالعدول عن جريمته، أو أُخبر الإمام عليّاً».

فبادرته قائلة: «وكيف تقنعه وهو لا يقنع، بل قد يسرع في القتل؟ ليس أفضل من أن تطلع الإمام عليّاً على الأمر وهو يرى ما يراه».

قال: «وكيف أفعل برفيقي هل أتركه في السجن؟».

قالت: «أخاف إذا تأخرت هنا أن تفوت الفرصة والمسافة من هنا إلى الكوفة بعيدة، وإني لأعجب منك كيف كنت عالماً بخبر هذه المؤامرة ولم تخبر بها علياً وأنت في الكوفة؟».

فتنهد وقال: «كفي الملام فقد وقع ما وقع، وكنت أظن الكتمان يبعد المصيبة، وفاتني أن أخبرك بأن المؤامرة ليست على مقتل الإمام علي فقط، بل هي كذلك على مقتل عمرو ومعاوية أيضاً». وقصّ عليها الخبر موجزاً.

استغربت خولة الخبر وقالت: «ما لنا ولهذين؟ إننا نريد الدفاع عن الإمام عليّ الآن، ولكنني لم أفهم كيف انتقل خبر قدومكما إلى هنا وأنت تقول إنه كان سراً مكتوماً لم يطّلع عليه أحد».

فكاد سعيد يسيء الظن بقطام، ولكن الحب أعمى بصيرته فانتحل سبباً آخر وقال: «لا أدري». وخطر له أن يقص حديثه مع قطام ثم أمسك عن ذلك حفظاً لعهدها، ولا عجب فهو سليم النية لا يعرف الدهاء، ولهذا لم يطلق لعواطفه الحرية في حب خولة، مع ما آنسه فيها من جمال وكمال وتفانٍ في نصرة الحق.

على أنه أدرك خطأه في كتمان خبر المؤامرة عن عليٍّ إلى ذلك الحين، ولكنه حمله على إهمال من قطام لا على سوء قصدها، ومع ذلك فقد رأى الأمر سهل التلافي ولا يزال ثمة باب مفتوح لإنقاذ عليٍّ بإبلاغه خبر المؤامرة، وهذا يدعو إلى السفر السريع، وهو لا يعلم ما آل إليه حال عبد الله فقال لها: «إني عازم على الكوفة في أقرب وقت، فما الذي أفعله برفيقي وأنا لا أدري أحيّ هو أم ميت؟».

قالت: «غداً نعرف الحقيقة، دعني أذهب الآن إلى منزلنا بالفسطاط، وامكث أنت هنا إلى الصباح».

قال: «كيف أستطيع البقاء هنا وحدي ولا صبر لي على استطلاع خبر عبد الله، فأرى أن أدخل الفسطاط وأتردد إلى المسجد، إذ لا يعرفني أحد هناك، فإما أن أسمع خبراً ممن يفد على المسجد من

المصلين أو تبعثي إليّ بالخبر».

قالت: «لك الخَيَار في ذلك». ونهضت فنهض وخرجا فرافقها إلى قرب منزلها وودعها وعاد يلتمس بيت الغفاري للمبيت وهو لا يدري أن الرجل في عداد المقبوض عليهم، وقد أصبح بيته موضع شبهة ولم تكن خولة تعلم ذلك أيضاً.

وكان الجند بعد القبض على المجتمعين قد ساقوهم في الأغلال إلى السجن، وكان عمرو ينتظرهم في داره فلم يصبر إلى الصباح وأمر باستقدامهم إليه واحداً واحداً، فرأى بينهم جماعة ممن لم يكن يخطر له أنهم على غير دعوة بني أمية خصوصاً الغفاري. ولما وصل إلى عبد اللّه عرف أنه من بني أمية وعرف قرابته من أبي رحاب، ولكنه تجاهل ذلك، وأمر بأن يُسجن كلّ منهم في حجرة على حدة، وبعث جنداً يفتشون منازلهم ويقبضون على مَن فيها من الرجال لعلهم يطلعون على شيء جديد، ولم تمض ساعة حتى دهم الجند منازل العلويين وأخذوا ما فيها.

لما ذهب سعيد إلى بيت الغفاري سأل عن صاحبه فقالوا له: إنه خرج منذ الظهر ولم يعد. فلم يخطر له أنه في عداد المقبوض عليهم، فدخل الحجرة التي وضع فيها ثيابه وحاول أن ينام، ولم يكد يُلقي رأسه على سريره حتى تراكمت عليه همومه فأخذ يفكر في عبد اللّه وماذا عسى أن يكون أصابه، وخاف إن هو أبطأ في الذهاب إلى الكوفة أن ينفذ ابن ملجم جريمته فيذهب سعيهم عبثاً.

وفيما هو في هذه الهواجس وقد طار نومه سمع لغطاً في الدار، ثم علت الضوضاء وضجّ الناس فوقف وتسمّع فإذا برجال عمرو قد دخلوا المنزل وأوغلوا في النهب وآذوا كل من تعرض لهم فأيقن أنهم آتون إلى حجرته، وسيفتكون به، فتقلد حسامه والتفت يميناً وشمالاً

لعله يجد مخرجاً ينجو منه فسمع صوتاً يناديه من وراء الحجرة فاستأنس بالصوت وعرف أنه صوت خولة، ولم يكن له سبيل إلى رؤيتها غير نافذة عالية يُشرف منها إذا صعد على مرقاة، فاحتال في الصعود إليها وأطل وكان الظلام حالكاً ولكنه رأى شبحاً وسمع صوت خولة تقول له: "إنهم سيفتكون بكل مَن في المنزل، فإليك هذا الخمار والجلباب فالبسهما وافتح الباب واخرج، وسيظنونك امرأة فلا يتعرضون لك". فمدّ يده وتناول الخمار والجلباب فارتداهما وهو يرتعش مخافة أن تفاجئه الشرطة قبل خروجه.

فلم يكن إلا كلمح البصر حتى فتح باب الغرفة وخرج بزيّ امرأة فرأى الضوضاء على أشدها، ولم يتعرض له أحد في إبان النهب، فمشى إلى الشارع وراء البيت فرأى خولة واقفة فلم يتمالك عن الإعجاب بشهامتها والإقرار بفضلها برغم دهشته وبغتته. ثم رآها تمشي أمامه فاقتفى خطواتها حتى وصلا إلى مكان منفرد فوقفت وقالت له: «الحمد للّه على سلامتك وسلامة الإمام عليّ». فلم يفهم مرادها فابتدرته قائلة: «لا تعجب لقولي فإن حياة الإمام عليٍّ تتوقف على حياتك إذ ليس هنا مَنْ يعلم الخطر الذي يتهدده سواك. نعم إني أنا أعرفه أيضاً ولكنني لا أراني أستطيع الذهاب ولا آمن على السر أحداً».

فقال: «أما أنا فلا مطمع لي في الحياة إلا بإنقاذ الإمام من القتل وأنت صاحبة الفضل، ولكن كيف عرفت بالخطر المحدق بي حتى جئت بهذه الحيلة؟».

قالت: «علمت من أبي أن عمروساً أمر بنهب منازل العلويين والقبض على مَنْ فيها من الرجال، وأخبرني أيضاً أن الغفاري كان من المقبوض عليهم، وقد علمت أنك مقيم بمنزله فجئت إليك بهذه

الحيلة. فالحمد لله على سلامتك».

فشعر سعيد بفضل خولة وأحس بميل إليها ولكن حبه لقطام ما زال غالباً على قلبه لا يترك له سبيلاً إلى سواها.

وبعد التأمل برهة قال: «وما العمل الآن؟ إني عازم على الكوفة عاجلاً، ولكنني لا أدري ما ألم بعبد الله ولا ما يؤول إليه حاله. هل علمت شيئاً عنه؟».

فتشاغلت خولة عن الجواب بإصلاح ثوبها كأنها تحاول إخفاء ما تعلمه، فظنها لم تسمع كلامه فأعاد السؤال. فقالت: «لا يعلم المستقبل إلاَّ اللّه». فلم يعجبه جوابها فقال: «أفصحي عما تعلمينه يا خولة». قالت: «إن عمروا أمر بقتل العلويين في فجر هذا الصباح ولكن من يدري ماذا حدث؟».

فاختلج قلب سعيد أيما اختلاج، وشعر كأنما صبّ عليه الماء الساخن، وقال: «ماذا تقولين؟ هل يقتلون عبد الله؟ كيف يكون هذا؟».

فقالت: «دع الأمر لله واعذرني. إني لا أستطيع البقاء معك طويلاً لئلا يفطن أبي لغيابي فلا أنجو من القتل. وأما أنت فحياتك في خطر عظيم، فاخرج من الفسطاط حالاً».

فابتدرها قائلاً: «كيف أخرج وأترك عبد الله يقتل؟ إنه ابن عمي وأعز من أخي. كيف العمل؟».

فقالت له: «لا خيرة في الواقع، فإن شراً واحداً أهون من شرّين، والوقت ضيق لا مجال فيه للسعي أو البحث عن سبيل لإنقاذ حياة عبد الله إذا قدر الله قتله، ونحن الآن في منتصف الليل وسينفذ القتل عند الفجر». قالت ذلك وسكتت هنيهة.

فابتدرها سعيد قائلاً: «ما قولك في أن أقابل ابن العاص، وأنبئه بعزم بعض الناس على قتله وأحذره من الوقوع في الخطر؟ ألا تظنينه يعفو عن قتل عبد الله مكافأة على هذا الجميل؟».

قالت: «ربما عفا، ولكنه لدهائه ولقسوته قد يظن في قولك السوء فيقبض عليك ويؤجل قتل عبد الله حتى ١٧ رمضان، فإذا لم يظهر صدقك قتلكما معاً. فهل أنت واثق من مجيء المتآمر على قتل عمرو في ميعاده، حتى لا تكون النتيجة زجك بنفسك في التهلكة؟ أترك هذا الأمر لي فلعلي أهتدي إلى وسيلة أذهب بها إلى عمرو وأطلعه على هذا السر، فإذا رأى أن يقبض عليَّ فليفعل ولله الأمر. أما أنت فسر إلى الكوفة قبل فوات الفرصة لأن الوقت قصير، ووقتي الآن أقصر منه. والآن دعني أذهب إلى أبي قبل أن يعلم بغيابي فيعرقل مسعاي، واقصد أنت إلى الدير الذي كنا فيه في أول هذا الليل وسآتيك بالخبر. ولا تنس أن تنزع النقاب والإزار وادخل بثوب الرجال فرئيس الدير يعرفك فلا يسيء بك الظن». وانصرفت مسرعة إلى منزلها وهو يود لو أنها لا تفارقه.

مشى سعيد وهو مضطرب قلق لا يدري إلى أين يسير فإذا به قد خرج من الفسطاط ووصل إلى حافة ترعة ظنها لأول وهلة نهر النيل. ثم رأى ضيقها فعلم أنها خليج. وكان الظلام حالكاً فوقف برهة يفكر في عبد الله ومصيره والخطر المحدق به فازداد قلقاً.

وظل واقفاً مشرد الذهن وحانت منه التفاتة فرأى بالقرب منه نخلة فجلس على حجر تحتها وأسند ظهره إليها وجعل يسبح في بحر خياله ومصائبه. فتذكر قطام ووعودها وما مرّ له معها من الأحداث. وكان الجو هادئاً لا يكدره إلا نقيق الضفادع على شاطىء الخليج فتشاءم وخيّل إليه أن عبد الله قد مات، فرجف وجلاً وقال في

نفسه: «أأبقى أنا هنا وعبد الله في الخطر الشديد؟ ماذا تكون حاله مع عمرو؟. أيقتله أم يستبقيه؟ وماذا أعمل: هل أبقى في الفسطاط لأنقذه من القتل؟ أم أسير إلى الكوفة لإنقاذ الإمام علي؟ ولكن ما الفائدة من بقائي هنا وابن العاص قد أمر بقتل عبد الله في صباح الغد؟ لا بد من المبادرة إلى إنقاذه». قال ذلك ومشى محاذياً الخليج جنوباً وهو ينظر إليه، فتذكر أنه خليج أمير المؤمنين وقد حفره عمرو بن العاص لما فتح مصر منذ عشرين عاماً لإرسال المؤونة فيه إلى الحجاز تلافياً لما كانوا يخافونه من القحط هناك. وكان قد حفره بإشارة الخليفة عمر بن الخطاب لما كانت الخلافة في المدينة، فتذكر حال الإسلام في ذلك العهد وما كان فيه من اجتماع الكلمة وما فتحته سيوف المسلمين من البلاد الواسعة في الشام ومصر والعراق في بضع عشرة سنة. وكيف تحولت تلك السيوف بعد مقتل الخليفة عثمان إلى الفتنة فانقسم المسلمون فيما بينهم، وشغلوا عن تثبيت ملكهم بالحروب الأهلية حتى أصبحوا يقتلون خلفاءهم ويتهمونهم تهماً ما أنزل الله بها من سلطان. وأقبح ما آلت إليه الفتنة تآمرهم على قتل أمرائهم، ولا سيما الإمام عليٍّ وهو ابن عم الرسول وخيرة قواد المسلمين، ولا ذنب له غير العمل على تأييد الكتاب. فلما تصور تلك الحال انقبضت نفسه وحزن حتى كادت تخنقه العبرات وهو لا يدري أيبكي عبد الله أم يبكي الإسلام أم يبكي الإمام عليّاً أم يبكي سوء حظه الذي قاده إلى الفسطاط فوقع فيما هو فيه؟.

وكأنما اعترته هزة من الحماسة فوقف على الخليج وجعل يناجيه قائلاً: «أيها الخليج، أليس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، هو الذي أشار بحفرك؟ قل لي بمائك الذي يجري فيك هل علم ابن الخطاب لما أذن بذلك أن دولة الإسلام سيقضى عليها بالانقسام حتى

يحمل عامتهم على خليفتهم ليقتلوه. ثم يختلفوا على الخلافة ليقتسموها، ثم يختصموا على اقتسامها؟. هل خطر لابن العاص يوم نزل وادي النيل وحاصر هذا الحصن المنيع حصن بابل أنه سيجرد سيفه على المسلمين ويقتل ابن أبي بكر حرقاً بالنار، ثم ينقم على ابن عم الرسول فيخرج الخلافة من يده بالحيلة؟. أين هو عمر جامع كلمة المسلمين؟ كانت المدينة مقر الخلافة في عهده فأصبحت منقسمة على نفسها يدعيها غير أهلها.. رباه ما هذه الحال؟ يا ليتني مت قبل هذا. هنيئاً لك يا أبا رحاب إن عظامك ساكنة في التراب وروحك تنتظر لقاء ربها يوم الحساب أما أنا فإني تائه بعدك تتنازعني عوامل لا أدري مصدرها ولا أعلم مصيرها. أأبقى هنا لأرى مصير أخي عبد الله؟ أم أسرع إلى الكوفة لأنبىء الإمام بما تآمروا به عليه؟ ولكن ما الفائدة من بقائي؟ هل يعفو عمرو عن عبد الله فيبقى حياً فأراه؟ ما أظنه يفعل، وما أظن أنني أستطيع الدفاع عنه؟».

ثم تذكر خولة فقال: «آه يا خولة، يخيّل إليّ أنك مَلَك كريم أرسلك الله لترشديني إلى سواء السبيل.. فهل يتم السعد على يدك وتنقذين عبد الله من القتل؟».

وفيما هو في ذلك يمشي الهوينا على ضفة الخليج، سمع لغطاً وحركة عن بعد، فأجفل وتقدم نحو الصوت وهو يحدق بنظره، فعلم أنه بجانب فم الخليج عند اتصاله بالنيل، ورأى في النيل سفناً كبيرة وسمع دوياً عميقاً كأن لصوصاً يهمسون فيما بينهم ويحاذرون أن يسمعهم أحد. وكان ما زال بلباس النساء فخاف أن يراه أحد فينكشف أمره، فانزوى وراء جميزة كبيرة بقرب الشاطىء، ثم تسلق أحد فروعها واختبأ بين الأغصان والأوراق مبالغة في الحذر حتى إذا استقر على غصن غليظ جعل يتفرس فيما يراه فإذا هناك بضعة

وعشرون رجلاً يحيطون بآخرين في مثل عددهم كأنهم أسرى مغلولون يساقون إلى قارب كبير، وسمع بعضهم يقول: «إلى أين أنتم ذاهبون بنا في هذا البحر؟ لعلكم تريدون إغراقنا؟». فشجبه أحدهم قائلاً: «وما علينا إذا أغرقناكم، وأنتم عصبة شريرة تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان؟».

فصاح آخر: «أهذه أعمال ابن العاص، يقتل الرجل غيلة؟». أما كفاه أنه طلب الخلافة لصاحبه بالحيلة حتى يقتل نصراء الحق غرقاً؟.. أما تخافون الله؟ ألا تخافون يوم القيامة؟».

فصاح به آخر وقال: «لا تخف إننا أمرنا بنقلكم إلى جزيرة الروضة تبقون فيها أياماً». ثم علت الضوضاء فعلم سعيد أنهم أنصار عليٍّ الذين قبض عليهم تلك الليلة في عين شمس. فظن أن ابن العاص أشار بقتلهم غرقاً في النيل، فارتعدت فرائصه حتى كاد أن يقع، وحدثته نفسه أن ينزل لنصرتهم، ولكن الخوف غلب عليه فإنه أعزل وهم عصبة كبيرة بالسلاح، فلبث برهة كأنها سنة وهو يرتجف غضباً، وتسمع لعله يسمع صوت عبد الله أو يراه فلم يسمع شيئاً ولم يرَ شيئاً، وما هي إلا دقائق معدودة حتى احتوى القارب القوم ثم أداروا الدفة وهو ينظر إليهم وقد ندم على سكوته وودّ لو أنه أظهر نفسه لعله يستطيع نجدة أولئك المظلومين أو يُقتل. ثم تذكر أن في بقائه حياً نفعاً للإمام علي، فمكث برهة كأنه في حلم يتردد بين الندم والأسف حتى توارت السفينة عن بصره فأيقن أن عبد الله ملاق حتفه وسيذهب ومَن معه طعاماً للأسماك.

واشتد اضطراب سعيد وهواجسه، ثم بكى ونزل من الشجرة وهو يندب عبد الله ويوبخ نفسه لضعفه وتردده قائلاً: «أأرى عبد الله يُساق إلى القتل ولا أنصره؟ يا للجبن ويا للخيانة! وكيف أتخلى عن

رجل ذهب ضحية حبه لي، فإنه لولاي لم يأت إلى هنا ولا رأى ما رآه من الشقاء.. فما الفائدة من حياتي الآن إني لا أستحق البقاء ولا بد من أن ألقي نفسي في هذا الماء لعلي ألقى صديقي عبد الله». قال ذلك وهمّ بأن يلقي نفسه في النيل فشعر بقوة خفية أوقفته بغتة، وفكر في الإمام عليٍّ وما يحدق به من الخطر فقال: «إذا قتلت نفسي فإنما أقتل عليّاً معي. نعم أقتله لأني إذا لم أذهب إلى الكوفة وأنبئه بعزم ابن ملجم ذهب قتيلاً بذلك السيف المسموم. آه يا خولة أين وعدك بإنقاذ عبد الله؟.. ولكن ما ذنبك وأنت لا تعلمين أنهم سيسرعون في إلقائه في اليم قبل الصباح.. هذا دهاء ابن العاص ومكره. ولكنه سوف ينال جزاءه من أولئك المتآمرين.. ليتني أنبأته بالمؤامرة وجعلتها فدية لعبد الله، ولكن قُضي الأمر ولا خيرة في الواقع».

ثم سكت وجعل ينظر فيما حوله وقلبه لا يطاوعه على التطلع إلى اتجاه القارب. فأراد أن يعود إلى المكان الذي أتى منه فرأى شبحاً مسرعاً نحوه فخاف وتهيأ للقتال إذ رآه يقترب منه. فلما اقترب الشبح إذا هو امرأة فعجب لقدومها وحدها في ذلك الليل ولكنه ما كاد يتفرس في قيافتها حتى علم أنها خولة، فخفق قلبه وغلب الخجل عليه لما رآه من جرأتها وإقدامها ليلاً وهي فتاة لا يحملها على القدوم إلا السعي في إنقاذ عبد الله. فحدثته نفسه أن يختبىء خجلاً، ولكن المفاجأة أذهلته فدنا منها وناداها. فلما عرفت صوته صاحت: «أين عبد الله؟».

فأراد أن يجيبها فاختنق صوته وسبقته العبَرَات.

فدنت منه وهي تقول: «سعيد، هلى رأيت أحداً جاء إلى هنا؟ وما الذي جاء بك أنت؟».

قال: «رأيت الشرطة يحملون الأسرى في قارب».

قالت: «وأين هم؟ أين ذهبوا بهم؟.. هل رأيت عبد الله معهم؟».

قال: «أخذوهم في القارب، ولا أدري إذا كان عبد الله معهم أم لا، لأني لم أسمع صوته ولا رأيته».

فدقت يداً بيد وقالت: «لا بدّ من أن يكون معهم. آه ما الحيلة الآن؟ ما كنت أظن ابن العاص يعجل بقتلهم هكذا.. ولماذا لم تحاول الدفاع عنهم؟».

فقال والاعتذار والخجل يتنازعانه: «لم أكن أعلم أن عبد الله معهم، وهبي أني علمت فكيف أستطيع إنقاذه وأنا أعزل وهم جماعة مسلحون؟».

فصمتت خولة ثم قالت: «حسناً فعلت فأبقيت على نفسك لإنقاذ الإمام عليٍّ، لأن حياته موكولة إلى الإسراع في رجوعك».

فقال بلهفة: «وأنتِ ما الذي جاء بك وكيف عرفت أمرهم؟.

قالت: «علمت ذلك من عبدنا، وكنت قد أعددت حيلة أدخل بها على عمرو لاستمهله في أمر عبد الله باطّلاعه على سر المؤامرة، فعلمت أنه بعث بهم هذه الليلة لإلقائهم في النيل حذر الفتنة إن هو قتلهم جهاراً، وهو يعلم كثرة أنصارهم في الفسطاط. فأسرعتُ لَعَلّي أستطيع إنقاذ عبد الله ولكن لم يسعفني القدر.. واأسفاه عليك يا عبد الله. آه من أهل الظلم. إن ابن العاص غلب عليّاً بحيلته فأخرج الخلافة من يده لسذاجة أبي موسى الأشعري ولكنه لن ينجو بنفسه من غائلة المؤامرة.

ثم دنت من سعيد وقالت: «إن فُقْدَ عبد الله مصيبة علينا لأنه

شهم. وسيذهب ضحية مرءته، على أننا نرجو أن نعتاض عن فقده بإنقاذ الإمام عليٍّ من خطر القتل، فاركب إلى الكوفة على عجل وتمم المهمة التي جئت من أجلها. فها قد عرفت اسم المتآمر، وأنه سار إلى الكوفة فأسرع ما استطعت قبل فوات الفرصة».

وكان سعيد مع شدة تأثره مما رآه تلك الليلة من الأهوال لا يغفل عما أبدته خولة من الحمية والشجاعة فازداد حباً لها وإعجاباً بشهامتها، وفيما هو يفكر في ذلك ابتدرته قائلة: «اعلم يا سعيد أني خرجت الليلة من بيت أبي مجازفة بحياتي وأنا أحسبك في الدير كما تواعدنا، وكنت عازمة على الذهاب لأحثك على السفر ثم أعود إلى أبي وأنتحل له سبباً لخروجي. أما وقد التقينا هنا فإني أستودعك الله وأرجو منك أن تسرع في الذهاب، وسأرسل إليك جملاً مع عبدنا ليسير في ركابك إلى الكوفة».

فأعجب سعيد بحسن تدبيرها ورباطة جأشها، ورأى نفسه ضعيفاً بين يديها ولم يستطع مخالفتها فقال: «سيتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود قريباً وها أنذا ذاهب إلى جبل المقطم، فهل يوافيني عبدك وجملك إلى هناك؟».

قالت: «إنه سيوافيك حتماً. سر بحراسة الله واحذر أن تفوتك الفرصة. إن ابن مُلجم قد سبقك إلى هناك.. هل علمت ذلك؟». ومدت يدها إليه فصافحها ويده ترتعش وقد نسي نفسه لحظة، ثم نسي ما هو بسبيله، فأخذ يودعها وقلبه يضطرب حباً لها، واعتزم الرحيل. وبين نفسه إذا نجح في مهمته أن يطلق لقلبه العنان في التقرب من خولة. قال لها: «آمل أن تذكريني وتدعي لي بالتوفيق».

قالت: «اذهب فإني معك بقلبي وإن لم أبرح الفسطاط، وأرجو

أن نلتقي يوم ينجو الإمام من أيدي الظالمين وينال ما يستحقه من الاستئثار بالخلافة».

ثم ودعته وألحت عليه في الإسراع في السفر، وأكدت له أن عبدها سيلاقيه ومعه الجمل وراء المقطم، ثم توجهت إلى الفسطاط.

فلما تركته وحده أدار وجهه إلى النيل حيث كان القارب، وتأوه وتحسّر وقال: «أستودعك الله أيها الصديق الحميم، أستودعك الله أيها الأخ الحبيب، هنيئاً لك ذهابك ضحية في سبيل نصرة أمير المؤمنين فستلقى ربك باسماً مفتخراً، فادع لي أن ألقاه أنا أيضاً منتصراً على القوم الظالمين».

قال ذلك واتجه نحو جبل المقطم، ولم يدركه حتى انبلج الصبح، فلقي العبد قد سبقه إلى هناك ومعه الجمل وسائر معدات السفر.

فلنتركه سائقاً ظعنه يطوي البيد طياً، ولنعد إلى قطام بالكوفة وما كان من دهائها ومكرها بعد سفره. وكانت قد أرسلت عبدها إلى الفسطاط للوشاية بسعيد وعبد الله ثم خلت بلبابة فقالت لها: «لقد تمت لنا الحيلة في قتل هذين المغرورين فإنهما مقتولان لا محالة. وبقي علينا أن نعلم مَن هو المتآمر على قتل عليٍّ، فإذا عرفناه شجعناه على قتله وساعدناه».

فضحكت لبابة وقالت: «إنه لأمر سهل، فإن عبدك ريحان ماهر داهية أخذ عن سيدته، ولا نظنه إلا عائداً إلينا بالخبر اليقين، وأما تحريض المتآمر على القتل فهو أسهل، ولا سيما إذا رأى هذا الوجه الجميل فيُفتن به لا محالة، فما عليك حينئذ إلا أن تعديه بالزواج وتجعلي قتل عليٍّ مهراً لك فما قولك؟».

فقالت قطام: «بورك فيك يا خالة، أما وعده بالزواج فأمر

سهل عليَّ. ولا نظننا نحتاج في البحث عن ذلك الرجل إلى مشقة فإنه إذا دنا الميعاد المضروب لا بد قادم إلى الكوفة، وإذا جاءها فلا بد من أن يطلع أحداً من أهلي على عزمه لعلمه أننا على دعوته، فإذا عرفناه هانَ عليَّ كل عسير».

ولم يهل شهر رمضان حتى تحدث أهل الكوفة بتوقع حادث فظيع يخشى منه على حياة أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب، وكان الناس يتداولون الخبر همساً ولا يعيرونه اهتماماً لعدم نهوض الدليل من شاهد أو عارف للقاتل المنتظر، فضلاً عن علم العقلاء أن أمثال تلك الإشاعات تروّج في مثل ما كان فيه الإمام عليٌّ يومئذ. ولم يفت الإمام وحاشيته شيء من تلك الإشاعة، ولكنهم لم يعبأوا بها وأخذها أهله وأصحابه على أنها إشاعات ينشرها ذوو الأغراض. هذا مع العلم أنك قلما ترى حادثاً فظيعاً لم تتقدمه الإشاعات المنبئة بقرب وقوعه. ومهما يكن من الأمر فإن أهل الكوفة كانوا يتحدثون ببلاء يتوقعون نزوله بأمير المؤمنين ولكن أكثرهم كانوا لا يكترثون.

ومضت أيام شهر رمضان، فتلفتت قطام لتعرف مَن هو المتآمر على قتل الإمام عليٍّ لتنصره أو تحرّضه. فلما اقترب نصف الشهر ولم يأت أحد ولا سمعت بأحد ظنت المتآمرين قد رجعوا عن عزمهم تهيباً وفرقاً. واستبطأت عودة عبدها ريحان، وكانت في انتظار قدومه لعلها تسمع منه شيئاً عن المؤامرة، ولكي تسأله عما آلت إليه حال سعيد وعبد الله، على أنها لم تكن تشك في وقوعهما في الفخ.

ولما كان الخامس عشر من رمضان وقطام في بيتها ومعها لبابة سمعتا قرعاً بالباب، فنهضت لبابة فسمعت جعجعة جمل عرفت أنه جمل ريحان فأسرعت إلى الباب ففتحته ودخل ريحان فقبّل يدها وهو ما زال بلباس السفر ودخل تواً إلى غرفة سيدته. فلما رأته ابتسمت له

ابتسامة عوضت عليه كل شقائه. فتقدم لتقبيل يدها وهو مشرق الوجه إشارة إلى نجاح مسعاه. فقالت: «إني أقرأ آيات البِشر على وجهك رغم سواده، فاقصص عليَّ تفصيل ما قمت به من آيات الدهاء والمهارة».

فقال وهو ينفض الغبار عن لحيته ووجهه: «ركبت إلى الفسطاط فوصلت إليها يوم الخميس قبل وصول سعيد وعبد الله بيوم، فسرت تواً إلى الأمير عمرو بن العاص، وقصصت عليه خبر القادمين وإن في الفسطاط جماعة من أنصار عليٍّ يجتمعون في عين شمس كل جمعة. فأمر رئيس شرطته أن يتأهب لمداهمتهم، وخفت أن يهاجموا المكان قبل وصول سعيد وعبد الله ولكنهما وقعا في الفخ، فإنهما ذهبا إلى الجمعية وقبضت الشرطة عليهم جميعاً، ولكنني لم أرَ سعيداً في جملة الأسرى».

فابتدرته قطام قائلة: «هل قبضوا على كثير من الأنصار؟».

قال: «قبضوا على نحو عشرين وعبد الله معهم».

قالت: «وسعيد؟».

قال: «لم أره، وأظنه تأخر عن الاجتماع فلم يشهده فنجا بنفسه».

قالت: «وماذا فعلوا بالأسرى؟».

قال: «ساقوهم إلى النيل وأماتوهم غرقاً في الليلة التي قبضوا عليهم فيها».

فأشرق وجه قطام، ثم انقبض بغتة ولبابة تنظر إليها كأنها تلتذ بالتأمل في ملامحها. فلما رأتها انقبضت همت بها وقالت: «ما بالك، ما الذي كدرك؟».

قالت: «إن سعيداً ما زال حياً فأخاف أن يعرقل مساعينا».

قالت لبابة: «لا خوف منه لأنه كما تعلمين سلس القياد تنطلي عليه الحيلة بسهولة. وأما عبد الله رفيقه فقد رأيت فيه دهاء ومكراً فالحمد لله على نجاتنا منه».

قالت: «صدقت ولكن سر المؤامرة عند سعيد فأخاف أن يجيء ويطلع عليّاً عليها فيحتاط لنفسه فيذهب سعينا هباءً منثوراً».

فأطرقت لبابة برهة ثم التفتت إلى ريحان وقالت: «هل عرفت الرجل المتآمر على قتل عليٍّ؟».

قال: «علمت أنه من بني مراد واسمه عبد الرحمن بن ملجم».

فبغتت لبابة وصاحت: «إبن ملجم..؟ لقد هان الأمر».

قالت قطام: «وهل تعرفينه؟».

قالت: «أعرفه جيداً، وهو جريء لا يصلح لمثل هذا العمل أحد سواه، فإذا كان هو الرجل فقد نلنا المرام فإنه مغرم بالحسان ويتفانى في سبيل مرضاتهن». ثم أدنت فمها من أذن قطام وقالت: «لا شك أنه إذا رآك وقع في هواك». ثم التفتت قطام إلى ريحان وقالت: «هل رأيته قبل مجيئك».

قال: «لا ولكنني سمعت أنه قدم الكوفة يوم وصولي إلى الفسطاط، وقد كنت أظنه زاركم لأن حزبنا في الفسطاط يعلمون كرهنا لعليٍّ، وسعينا في إخراج الأمر من يده».

فقالت: «بالله سر إلى عشيرتي وابحث عن الرجل وائتني به، وحاذر أن يدرك أنك قادم من قِبَلي».

وخرج ريحان فتبعته لبابة إلى حديقة البيت فوقفت به في ظل نخلة وهمست في أذنه قائلة: «إذا لقيت الرجل فقل له إن خالتك لبابة

هنا وهي تريد أن تراك لأمر ذي شأن، واستعجله واذكر له أني مقيمة بمنزل سيدتك قطام، واحتل في حديثك لتفهمه ما عليه سيدتك من الحسن والجمال، وإني قد أمهد له للزواج بها. وأنت فطن لبق تحسن تصريف الأمور». فهرول ريحان ذاهباً.

- ١١ -
لبابة وابن مُلجم

عادت لبابة إلى قطام مسرورة مبتسمة تقول: «لا ريب أننا فزنا بمرامنا، وقلبي يحدثني بأن عليّاً سيُقتل ويُشفى غليلنا منه على أهون سبيل».

أما قطام فظلت صامتة مقطبة الحاجبين كأنها تفكر في أمر ذي بال. فسألتها لبابة: «ما بالك يا قطام ما الذي حدث فأوجب هذا الاهتمام؟».

قالت: «إني خائفة يا خالة».

قالت: «وما الذي يخيفك؟».

قالت: «إني خائفة من سعيد فقد قال لنا ريحان إنهم لم يقبضوا عليه في الفسطاط، ولا يبعد أنه عرف اسم ابن مُلجم والميعاد المضروب لتنفيذ المؤامرة، فيأتي بالخبر إلى علي، وتذهب مساعينا وجهدنا عبثاً».

فقالت لبابة: «وما الرأي يا بنية؟».

فقالت: «لا بد لنا من تدبير الأمر بالحكمة وتدارك الأمر قبل وقوعه».

قالت: «فما الرأي؟».

قالت: «أرى أن نسعى في منعه من الذهاب إلى عليٍّ. فقد

يتراءى له أن يسير إليه حال وصوله إلى الكوفة».

قالت: «هذا سهل فإننا نبعث ريحان لينتظره في مكان خارج الكوفة لا بد له من المرور فيه، فإما أن يؤخره عن دخول الكوفة وإما أن يدعوه إلينا بحجة اشتياقك الشديد إليه! ولا أشك أنه إذا سمع بشوقك نسي كل شيء وطار إليك. ومتى جاءنا استبقيناه إما طائعاً أو مكرهاً. ما قولك؟».

قالت: «أرى رأيك، ولكننا الآن في الخامس عشر من رمضان ولم يبقَ إلا يوم واحد على الموعد المضروب، فلا بد من المبادرة بإرسال مَن يوقفه خارج الكوفة أو يستقدمه إلينا، وريحان خرج في مهمة إلى أهلي وقد يبطىء».

قالت لبابة: «دعي هذا إليّ. ها أنذا ذاهبة في أثر ريحان فأبعثه إلى خارج الكوفة، وأبحث عن ابن مُلجم بنفسي وذلك سهل عليَّ لأني أعرفه». قالت ذلك وتبرقعت وتناولت عكازها وخرجت تعدو عدو الشباب.

وخلت قطام إلى نفسها وتأملت ما هي فيه من الصعاب وراجعت في مخيلتها ما دبرته من الحِيَل في سبيل قتل الإمام عليٍّ، فرأت أنها أحسنت بإرسال ريحان، فإنه إذا نجح في تأخير سعيد، ونجحت لبابة في استقدام ابن مُلجم، وفازت هي بإغرائه وتشجيعه، نالت بغيتها وانتقمت لأبيها وأخيها. ولما تصورت وقوع ذلك ارتاحت نفسها، وهون عليها حبها للانتقام وما جبلت عليه من المكر، تأنيب الضمير على جريمتها. ثم أعملت ذهنها فوجدت أنه ينقصها احتياط واحد لا بد من تداركه. وذلك أن سعيداً قد لا يلتقي بريحان لاختلاف في الطريق أو ربما التقى به ولم يصغ إلى قوله وقصد فوراً إلى الإمام عليٍّ فأطلعه على سر المؤامرة. فلما تصورت ذلك

خفق قلبها واضطربت ونهضت وجعلت تمشي في غرفتها ذهاباً وإياباً وتخرج منها إلى الغرفة الأخرى وهي تترقب عودة لبابة ليتداولا في الأمر معاً وندمت على إرسالها قبل أن تفطن لهذا الأمر.

وزاد قلقها فخرجت إلى حديقة النخيل وكانت الشمس قد تكبدت السماء وانحسرت الظلال واتفق وقوع شهر رمضان في تلك السنة (٤٠ هـ) في أبان الشتاء لأنه يبدأ في العاشر من يناير وكان اليوم صحواً يحسن الخروج فيه إلى الخلاء في ساعة الظهر للاستدفاء بأشعة الشمس. فمشت بين النخيل مبتعدة عن السور الذي يلي الطريق إلى ما يلي البحيرة وهي لا تكترث لما حولها من صرير أو تغريد أو نقيق فقد انصرفت إلى إدراك غرضها.

قضت في الحديقة ساعة وحدها حتى ملّت الشمس وحرارتها وهمّت بأن تدخل المنزل، وفيما هي عائدة سمعت أناساً يتكلمون عن بُعد، فوقفت على أرومة نخلة كانوا قد قطعوها للوقود منذ عامين والتفتت فرأت شبحين لم تلبث أن عرفت أنهما لبابة وعبد الرحمن بن مُلجم. فانصرفت إلى إتقان الحيلة فدخلت البيت على عجل وكانت قد رأت لبابة تكلم عبد الرحمن وتشير إليها بإصبعها. وعمدت إلى النقاب فأرسلته على رأسها وجلست على وسادة تعودت الجلوس عليها إذا استقبلت الزائرين من الغرباء. ولبثت صامتة تنتظر دخول لبابة، وما لبثت أن سمعت صوت ضحكتها قبل سماع خفق نعالها. وبعد قليل دخلت لبابة وحدها فاستقبلتها قطام استقبال المشتاق ودعتها إلى الجلوس.

فقالت: «لا أجلس قبل أن أدعو رفيقاً لي صحبته لزيارتك».

فقالت: «أهلاً بك وبرفاقك أجمعين. فليدخل».

فصاحت لبابة للحال: «ادخل يا عبد الرحمن».

وما أتمت كلامها حتى وقف في الباب رجل طويل القامة نحيف البدن، خفيف اللحية أشمطها، برّاق العينين يكاد الشرر يتطاير منهما، وعليه العباءة والقفطان والعمامة وآثار السفر لا تزال بادية على نواتيء وجهه، وبخاصة أنفه فقد كان شديد الاحمرار. فخلع عبد الرحمن نعله خارج الباب وحيّا ودخل. فردت قطام التحية وهي تهم بالوقوف وأشارت إليه أن يجلس، فجلس الأربعاء مستعرضاً سيفه على فخذيه، فبدأته قطام بالكلام قائلة: «إلى مَن ينتسب ضيفنا؟».

قال: «إلى بني مراد».

قالت: «والنِعم والبركة».

فقالت لبابة: «إنه عبد الرحمن بن مُلجم، من القراء المشهورين، قرأ على معاذ بن جبل. ولعلك سمعت به».

قالت: «أنت تعلمين حالي يا خالة، بل أنت أدرى مني بما هو شغلي الشاغل من الأحزان والمصائب، فلم يبقَ لي عقل أذكر به شيئاً غير مقتل أخي وأبي. والسعي في الانتقام من أهل العدوان». قالت ذلك وأجهشت بالبكاء.

وكان عبد الرحمن ينظر إليها من طرف خفي، فافتتن بها أيما افتتان، وكان قد سمع بجمالها فود أن يحوزها، ولما لقيته لبابة لم تذكر له شيئاً مما عرفوه عن عزمه، ولكنها قالت له: «علمت بمجيئك الكوفة، وأعلم أنك تحب الحسان، وعندي واحدة منهن ليس أجمل منها في العراق». فجاء ولما رآها تحقق ما سمعه فشغف بها، ومن عجيب أمر هذا الرجل أنه مع عظم ما ندب نفسه له من قتل أمير المؤمنين وقرب اليوم الموقوت لم يشغله ذلك عن مغازلة الحسان. فلما سمع كلام قطام ورأى بكاءها قال: «وما الذي يحزن مولاتي؟ ألا

أستطيع تفريج كربتها؟».

فقالت لبابة: «لا يُخفى عليك ما أصابها على أثر وقعة النهروان، فقد قُتل فيها أبوها وأخوها رحمهما الله، وهي لا تفتأ تذكر تلك المصيبة وذلك اليوم وتبكي ذينك الفقيدين، ولكنني أريد أن أشغلها عن هذه الأحزان بكفء لها».

ففهم عبد الرحمن تلميحها فقال: «إني والله أكون أسعد الناس حظاً إذا تم لي ذلك الذي أتمناه».

فتجاهلت قطام وقالت: «وما الذي تتمناه يا سيدي؟».

قال: «لقد جئتك خاطباً وأنت في أحزانك عساي أن أستطيع تفريجها، فاطلبي مني ما تشائين مما تقر به عيناك».

فتنهدت قطام ثم قالت: «إني لأعجب من تسرعك في الطلب ونحن لم نلتق قبل الآن».

فقطعت لبابة كلامها قائلة: «نعم إنكما لم تلتقيا قبل الآن، ولكن لبابة تعرفكما جيداً، وإذا أذنت مولاتي بكلمة فأقول إنكما إنما خلقتما لتعيشا معاً».

فسكتت قطام فقال ابن مُلجم: «ومع ذلك فاطلبي ما تشائين يكن لك».

فظلت قطام ساكتة برهة تتظاهر بالحياء والتردد إتماماً للحيلة. ثم التفتت إلى لبابة كأنها تقول لها: «إني أستحيي أن أقول». فقالت لبابة: «أنا أقول. اجعل مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبداً وقينة».

ولم تتم لبابة قولها حتى صاحت قطام: «لا. لا يرضيني ذلك ولا مطمع لي في المال كما تعلمين».

فقال عبد الرحمن: «اطلبي ما تريدين».

فتظاهرت بالتمنع وصبرت هنيهة كأنها تستخف بما اقترحه عليها من الطلب ثم قالت: «إن مهري هو قتل عليٍّ بن أبي طالب قاتل أبي وأخي».

فابتسم عبد الرحمن، ونظر إليها ويده على قبضة سيفه وقال: «إن ذلك وما قالته هذه الخالة سيكونان لك. ثلاثة آلاف دينار وقتل ابن أبي طالب والعبد والقينة. فإن مثلك لا يعز في سبيل نيلها مهر. واعلمي أني إنما جئت الكوفة لهذه الغاية. انظري إلى هذا السيف (جرده فلمع نصله لمعاناً شديداً) إني اشتريته بألف وسممته بألف لأقتل عليّاً بن أبي طالب».

فابتسمت وقالت: «ولكنني أرجو أن يكون ذلك عاجلاً لئلا تفوت الفرصة».

فقال: «إن موعدنا قريب لم يبقَ منه إلا يوم وليلة سأقتله في صباح يوم ١٧ من هذا الشهر أي بعد غد، فاطمئني».

قالت: «وكيف عيّنت اليوم والساعة، ألا يُستحسن أن يكون ذلك غداً؟».

قال: «إن لذلك سبباً سأذكره لك فيما بعد، فإنني مقيد بهذا الموعد في إنفاذ مهمتي».

فسكتت قطام وهي تتجاهل ما علمته من أمر المؤامرة.

وكانت لبابة عالمة بغياب ريحان، ولا بد من زاد يتناوله الضيف، فدعت عبدها في أثناء قدومها فجاء وأعد لهم طعاماً تناولوه.

وما صدقت قطام أن خلت بلبابة لحظة حتى أشارت إليها أنها تحب الانفراد بها لأمر ذي بال، فاحتالت هذه على عبد الرحمن حتى

استأذن في الخروج إلى السوق في حاجة له، وخلت قطام بلبابة.

وكانت لبابة قد أدركت ريحان في الطريق قبل عثوره على عبد الرحمن، فأمرته أن يسرع ليلقى سعيداً خارج الكوفة وزودته بنصائحها لتضمن نجاح مهمته. فسار أولاً إلى ساحة كبيرة في وسط الكوفة تجتمع فيها القوافل من كل حدب وصوب. ولا بد للقادم إلى الكوفة من المرور بها أو النزول فيها.

وسمع عن بعد هدير الجِمال وصهيل الخيل فلما وصل رأى الساحة غاصة بالدواب وبينها الناس في هرج بين راكب وراجل، ورأى الأحمال ملقاة هنا وهناك، فجعل يتفرس في الوجوه لعله يرى سعيداً أو أحداً من خدمه، فلم يرَ أحداً. وذهب إلى بيت سعيد يسأل عنه فقيل له إنه لم يأت بعد فخرج إلى الطريق خارج الكوفة وهو ينظر إلى الأفق لعله يرى هجاناً أو فارساً. فمشى ساعتين ولم يرَ أحداً حتى وصل إلى شجرة كبيرة استظل بها المسافرون للراحة قبل دخولهم المدينة ولا بد لمن كان قادماً من الشام أو مصر من المرور بها. فجلس هناك وعيناه تحدقان في الأفق وذهنه يعمل لفتق حيلة تنطلي على سعيد فيستبقيه أو يسير به إلى بيت قطام. فغربت الشمس ولم يأت أحد، وكان القمر بدراً فلم تكد تغرب الشمس حتى طلع البدر وانعكست الظلال من الشرق نحو الغرب. فاتكأ على حجر وعيناه ترقبان.

وقضى أوائل الليل على هذه الحال، وكلما رأى شبحاً ظنه سعيداً، فاشتد به البرد وهو يصبر ويتجلد. وحدثته نفسه أن يرجع فخاف إن انتصف الليل غلبه النعاس وهو يتجلد ولكنه لم يقوَ على سلطان النوم فأغمضت عيناه، ولكنه لم ينم طويلاً حتى استيقظ بغتة أسفاً على رقاده خشية أن يكون سعيد قد مرّ ولم يرَه. فوقف يفكر في الأمر، حتى دنا الصباح فلم يأت أحد، فخيّل إليه أن سعيداً مر في

أثناء نومه. فعاد إلى الكوفة بأسرع من لمح البصر، يبحث في ساحتها وسار إلى بيت سعيد فتحقق أنه لم يأت بعد فرجع إلى الشجرة وقضى معظم النهار تحتها أو حولها كأنه على جمر الغضا. وهو مع ذلك صابر لا يتذمر ولا يتضجر حتى غابت الشمس وطلع القمر. فقال في نفسه: «لم يبقَ إلا هذه الليلة فإذا لم يصل الرجل لم يبقَ ثمة حاجة إلى بقائي إذ يكون قد نفذ السهم وقُتِل عليٌّ». وتمنى ألا يأتي سعيد فيتخلص هو من الاحتيال عليه لأخذه إلى قطام، وقد قرب أجل الموعد المضروب.

ولما دنا العِشاء رأى جملين قادمين عن بُعد وعليهما راكبان فاختلج قلبه واصطكت ركبتاه وزاده البرد ارتعاشاً. فلما اقتربا وقف وتقدم نحوهما فإذا هما سعيد وبلال عبد خولة، وكانا ملثمين فعرف سعيداً من قيافته وأما بلال فلم يعرفه.

وكان سعيد قد قضى مسافة الطريق في قلق على الإمام، فما كاد يطل على الكوفة حتى قرر أن يسير تواً إلى منزل عليٍّ. فلما وصل إلى الشجرة ترجل وترجل عبده ليستريحا قليلاً ثم يستأنفان المسير. فاستقبله ريحان وسلّم عليه، فلما رآه سعيد استأنس به وردّ السلام وقال له: «ما الذي جاء بك يا ريحان؟».

قال: «إن سيدتي مضطربة البال لطول غيابك». وأشار إليه أن يدنو منه ليبث إليه ما اؤتمن عليه من السر. فدنا منه على انفراد وشغل بلال بأمر الجملين.

فقال ريحان: «إن سيدتي قطام تقرئك السلام وتذكر لك أنك أطلت الغيبة عليها أنت وسيدي عبد الله».

فتنهد سعيد وقال: «لا تذكر عبد الله فقد تركناه في مصر». قال ذلك وهو لا يريد أن يطارح العبد الحديث في مثل هذه الشؤون

أنفة وترفعاً، فسكت ريحان وهو يعلم أن عبد الله أُغرِق في جملة مَن أغرقهم عمرو بن العاص في النيل، ثم قال: «وماذا أقول الآن لسيدتي أقادم أنت للمبيت عندنا الليلة، فإنها قد أعدت لك كل شيء».

فلبث سعيد برهة تتنازعه عوامل الشوق إلى قطام وبواعث العجلة إلى عليٍّ، فرأى أن ميعاد القتل قد دنا فإذا بات الليلة في منزل قطام فإنه قد يتمتع برؤيتها ويشنف سماعه بحلو حديثها ولكنه يصبح في الغد وقد قُتِل علي، لأن المجرم لا يتأخر عن فعلته إلى ما بعد صباح السابع عشر من الشهر. ثم بدا له أن يزورها للتو زيارة قصيرة ثم ينطلق من بعدها إلى عليٍّ. والتفت إلى بلال فرآه مهتماً بإعداد العَشاء فناداه باسمه فأقبل. فلما سمع ريحان اسم بلال اختلج قلبه في صدره، وتفرّس فيه فعرف أنه عبد خولة، وكان قد لقِيَه في الفسطاط وباحَ له بمهمته ولم يكن يخطر له يومئذ أنه سيأتي مع سعيد. فارتبك في أمره وحاول إخفاء نفسه لئلا يراه بلال فيعرفه. أما بلال فلما دعاه سعيد أسرع إلى ما بين يديه فقال سعيد: «ألا ترى أن نسير تواً إلى الكوفة؟». قال بلال: «الأمر لمولاي ولكنني أعددت لك الطعام. ألا ترى أن تتناول منه شيئاً ونستريح هنيهة ثم نذهب إلى حيث نشاء».

قال: «ولكن بعض أهلي بعثوا يدعونني إلى العشاء».

والتفت بلال إلى ناحية وقوف ريحان فرآه قد تقهقر إلى جذع الشجرة يستتر بظلها فلم يره، وكان سعيد في أثناء الطريق قد استأنس ببلال وأطلعه على خبر المؤامرة. فاغتنم بلال فرصة انفراده به وقال: «ألا ترى يا مولاي أن نتم مهمتنا التي جئنا لها من الفسطاط قبل كل شيء فإني أخاف أن يكون ذهابنا إلى أهلك سبباً في التأخير، وهم ربما لا يعلمون الغرض الذي يدعونا إلى الإسراع، وربما حدث لك

بعد العَشاء ما يعيقك. أما إذا أنفذنا مهمتنا وأطلعنا الإمام عليّ ما خبأه له أهل البغي فإننا نمضي بعدئذ حيث تشاء. هذا ما أراه والأمر لك. على أني قد أعددت لك الطعام الآن فإذا شئت أكلت ثم فعلت ما يتراءى لك».

فارتاح سعيد لهذا الرأي، ولكنه أراد أن يخبر بلالاً باطلاع ريحان على سر الأمر فقال له: «ولا أخفي عليك أن هذا الهمام (وأشار إلى ريحان) من جملة الساعين فيما نحن فيه».

فقال بلال: «إذن فهو يعذرنا إذا رأى أننا نؤثر أن نذهب أولاً إلى منزل الإمام. هلم الآن إلى طعامك وأنا أهيىء الجمَلين معه ثم نذهب جميعاً بعد انتهائك من الطعام».

سار بلال إلى حيث جلس ريحان وراء الشجرة. وكان هذا يحاول أن يختبىء، وحدثته نفسه بأن يرجع إلى الكوفة لئلا يراه بلال فينكشف أمره. ولكنه ما لبث أن رأى بلالاً قد دنا منه وكلّمه فأجابه بصوت منخفض وهو يتشاغل بإصلاح نعليه وشملته لا يرفع نظره إليه. فاستغرب بلال ذلك فتقدم إليه. قال: «تعالَ يا أخي نقعد ريثما يتناول مولاي طعامه ثم نسير معاً».

فسكت ريحان ولم يجب، وتظاهر بأنه أضاع عصاه وأخذ في البحث عنها وبلال يتبعه ويعجب لما يبدو منه. فلما بعُدَ ريحان عن ظل الشجرة بانت سحنته فتذكر بلال أنه يعرفه، ثم فطن إلى أنه هو الذي أسرَّ إليه خبر مهمته في الفسطاط. فأدرك أن في الأمر خديعة، ولا سيما لما رآه يحاول إخفاء وجهه. فتقدم إليه وأمسكه بيده وقال: «تعالَ يا صاحبي نقعد هنا إلى أن ينهض مولانا فنسير معاً». فجذب ريحان يده من يده مغضباً، فتبعه بلال وهو يقول: «يظهر أنك لم تعرفني يا صاح ألا تذكر أننا التقينا في الفسطاط».

فصاح به ريحان: «وأي فسطاط؟ إني لا أعرف الفسطاط ولا أعرفك، وليتني لم أعرفك فقد أضعت عصاي بسببك».

فسمع سعيد صياحه وكان قد جلس إلى الطعام، فنظر إليهما من بعيد، فرآهما يتحاوران فوقف ونادى عبد قطام قائلاً: «لا تغضب يا ريحان إن بلالاً على دعوتنا».

فسكت ريحان، واضطر أن يجيء لئلا يُثير الشبهة، ولكنه بقي مصرّاً على أنه لم يذهب إلى مصر.

فلما دنا من سعيد قال له: «ما بالك تخاصم بلالاً؟».

قال: «إني لا أخاصمه، ولكنني أضعت عصاي، وفيما أنا أبحث عنها جاءني بحديث لا أعرف له أصلاً».

قال سعيد: «وما ذلك يا بلال؟ وما الذي قلته له؟».

قال: «لم أقل له شيئاً، ولكنني تذكرت أني رأيته في الفسطاط منذ بضعة عشر يوماً، فأنكر وتنصل».

فقال سعيد: «يحق له أن ينكر عليك ذلك لأنه لم يبرح الكوفة منذ أشهر».

فأعاد بلال النظر إلى ريحان وتفرّس في وجهه وقال: «بل أنا على يقين مما أقول، وقد لقيته هناك غير مرة وقد يعذر عليَّ إنكاره، لأن وجوده هناك عاد بشرّ العواقب على سيدي ورفيقه».

فبغت سعيد وكانت اللقمة في فمه فلم يستطع ازدرادها، وكاد يغص بريقه ووقف للحال وقال: «ماذا تقول يا بلال؟ أظنك تخلط في القول. إن ريحان عبد قطام بنت شحنة، وقد تركته هنا يوم سفري وأنا واثق بأنه لم يبرح الكوفة، فلعلك رأيت في الفسطاط عبداً آخر يشبهه».

فلما سمع ريحان اعتذار سعيد عنه اطمأن وقال بهدوء: «يلوح لي أنه أخطأ، لأن البشر يتشابهون، ولكنه سامحه الله جاءني مغضباً وأنا أبحث عن عصاي فأغاظني فأسمعته كلاماً مؤلماً وها أنذا الآن أطلب منه غفران ما فرط مني». والتفت إلى بلال وابتسم حتى يجيز عليه حيلته.

أما بلال فكان في أثناء ذلك يتفرس في ريحان فلا يزداد إلا اعتقاداً بأنه هو الرجل الذي قابله في الفسطاط وحدث أن نادته سيدته خولة وهو يكلمه فذهب إليها وقصّ عليها خبره كما مر، فلما آنس منه ذلك اللين ظل يتفرس فيه وهو صامت. فلما أتم ريحان كلامه قال له بلال: «ربما كنت مخطئاً في ظني ولكني أسألك سؤالاً أرجو أن تجيبني عليه».

قال: «قل ما بدا لك».

قال: «ألا تذكر أنك رأيت وجهي؟».

فتفرس فيه ريحان وهو يظنه يقول ذلك بسذاجة، ثم قال: «لا يا أخي، لا أذكر أني رأيتك قبل الآن».

فقال: «يا للعجب ولكنني واثق بأني لقيتك وكلمتك، فرأيت هذا الوجه وسمعت هذا الصوت. فالظاهر أنك زرت الفسطاط قبل اليوم».

قال: «نعم إني صرت إليها منذ بضعة أعوام».

فضحك بلال وقال: «ولكنك قلت الآن إنك لا تعرفها».

فارتبك ريحان وعمد إلى المغالطة فقال: «دعنا من هذه الأوهام ولا تشغلنا بما لا طائل تحته».

وكان سعيد في أثناء ذلك يسمع كلامهما مصدقاً ما يسمع.

أما بلال فخاف أن يؤدي سكوته إلى ذهاب سعيد مع ريحان. فقال لريحان: «إذا كان الحال كما تقول فعليك أن تساعدنا في إنفاذ المهمة التي جئنا من أجلها. دعنا نذهب إلى منزل الإمام الآن».

قال: «إني أشدّ رغبة منك في هذا، ولكن الليل طويل، ويحسن أن يذهب مولاي معي إلى سيدتي قطام لتراه ثم يذهب بعد ذلك حيث يشاء».

قال: «فليذهب هو معك وأذهب أنا إلى منزل الإمام أقوم مقامه».

فضاق ريحان به ذرعاً وظهرت البغتة على وجهه فلم يرَ له مخرجاً من المأزق غير التظاهر بالغضب فقال: «ولماذا هذا اللف والدوران؟ هل بلغ بك الأمر إلى إساءة الظن بنا ونحن أولى منك بهذا الأمر؟».

فتحقق بلال حينئذ أن ظنه في محله فقال: «نعم إني أسيء الظن وبسيدتك أيضاً».

فخاف ريحان أن يُفضي الأمر إلى افتضاح حاله فتظاهر بالغضب وقال لسعيد: «إني لأعجب من قحة هذا الأحمق ومن سكوت مولاي عليه، وها أنذا أترككما فافعلا ما تشاءان».

قال ذلك وأخذ يعدو نحو الكوفة، وظل سعيد وبلال صامتين كأن على رأسيهما الطير.

مضى ريحان وهما ينظران إليه لا يفوهان بكلمة. فلما توارى قال سعيد: «ما الذي أراه يا بلال؟ إني أحسب نفسي في حلم؟ ما الذي تقوله عن هذا العبد، أواثق أنت أنك رأيته في الفسطاط؟».

قال: «نعم يا مولاي، وقد زادني إيماناً بذلك تناقض أقواله،

وغضبه بعد ما اقترحته عليك».

قال سعيد: «ما الذي يدعوه إلى إنكار ذهابه إلى الفسطاط؟».

قال: «يدعوه إلى هذا ما ارتكبه من الخيانة هناك. تباً له من نذل، يا ليتني قضيت عليه قبل فراره. إنه وشى بكما إلى عمرو بن العاص».

فبغت سعيد وبدأت الغشاوة تنحسر عن عينيه، وتذكر ما قصته عليه خولة من حديث عبدها مع عبد آخر وشى بهما إلى ابن العاص، وإنه استغرب يومئذ أن يصل خبر قدومهما إلى الفسطاط وهما إنما قدما إليها سراً لا يعلم بهما أحد غير قطام ولبابة وهذا العبد. فوضح له أن ريحان لا يأتي الفسطاط إلا بإيعاز من سيدته، وتذكر ما كان يراه في ابن عمه عبد الله من الشك في قول قطام، فندم على استسلامه لها وعضّ على سبابته. وظل واقفاً لا يُبدي حراكاً، وبلال واقف بين يديه صامتاً. ثم التفت إلى بلال وقال: « ألا بارك الله في خوله، إنها والله ملاك بعثه الله من السماء لكشف تلك الخديعة. ولكن واأسفاه، فقد نفذت حيلة قطام في عبد الله فمات غريقاً. على أنها لن تنفذ في الإمام عليٍّ بعد أن افتضح أمرها قبل دنو الأجل المضروب والحمد لله». ثم صمت وتذكر حبه القديم لقطام وما أكنه لها من الإخلاص، وما بذلته هي من الخداع، فعظم الأمر عليه وأمست عواطفه تتراوح بين ما انغرس في قلبه من الحب وبين ما انكشف له من المكر السيء، فلم يملك نفسه عن البكاء. وخجل أن يذرف الدمع أمام بلال، فأومأ إليه أن يهيىء الجِمال، وأدار وجهه إلى الخلاء ومشى وأطلق لنفسه عنان البكاء، ولا سيما وقد تمثل له ما أصاب ابن عمه عبد الله من البلاء بسببه، فجعل يندبه وينذب سوء حظه ويقول:

«تباً لك يا قطام. أصحيح أنك بعثت عبدك للوشاية بنا إلى ابن العاص ليقتلنا؟ أين عهودك وأين وعودك؟ أين ما سمعته منك من التوبة عن قتل الإمام عليٍّ؟ واأسفاه يا أخي عبد الله، إنك ذهبت ضحية غفلتي ودهاء هذه المرأة. آه يا قطام!.. هل يخلق الله قلوباً تقسو إلى هذا الحد؟ (قتل الإنسان ما أكفره). أتسمحين بقتل محب تفانى في سبيل هواك؟ وتقتلين بريئاً حملته غيرته على السعي في إنقاذ أمير المؤمنين؟ وتسعين بعد ذلك إلى قتل أمير المؤمنين وأنت تنظرين. آه لو كان أمامي متسع من الوقت لأسرعت إلى الانتقام منك قبل الذهاب إلى الإمام».

ثم وقف فجأة وانتبه كأنه أفاق من رقاد، ونظر إلى ما حوله فإذا هو في ليلة مقمرة صفا هواؤها ورقّ نسيمها، فجعل يعيد في ذهنه ما مر به من الأهوال، وتذكر حبه قطام فغلب عليه طيب عنصره فقال في نفسه: «لعل قطام بريئة، وربما كان ريحان صادقاً وبلال مخطئاً». فسرى عنه بعض الشيء، ثم أدرك أنه إنما يخادع نفسه في التماس العذر لها، وقد تثبت عليها الجريمة. ثم التفت فرأى بلالاً قد أعد الجملَين وهَمّ بالقدوم إليه فمسح دموعه وتقدم إليه وهو يقول في نفسه: «لقد نفذت حيلتها في أخي عبد الله، ولكنها لن تنفذ في الإمام عليٍّ. ها أنذا ذاهب الآن إلى بيته وسأستعين به على قتلها وقتل العجوز المحتالة وذلك العبد الشرير».

وركب جملَه، وركب بلال في أثره، وسارا يقصدان منزل الإمام عليٍّ.

- ١٢ -

مقتل الإمام عليّ وإحراق قاتله

كان منزل الإمام عليٍّ بجانب المسجد، وبينهما باب السدة

يدخل منه الإمام للصلاة. وكان للمنزل دار واسعة فيها المقاعد والمجالس لمن يفد عليه من الولاة وأهل الأمصار. وبجانب المنزل ساحة واسعة فيها مرابط للخيل ومواقف للجماعات لا تبرح غاصة بجماهير الناس من دعاة الإمام، وكلهم متفانون في نصرته معترفون بإمامته لا يرون أحداً أَولى بها منه. وكان أهل العراق وغيرهم قد أجمعوا تلك السنة على نصرته فبايعه منهم أربعون ألفاً على الموت. ولعله كان ينتظر إتمام صيام رمضان ليحمل على معاوية بذلك الجند العظيم، غير آبه بمثل ما مرّ به من حيلة «صفين» وغيرها بعد أن رأى ما قد أدى إليه ذلك من تأييد سلطان معاوية.

وكان الداخل إلى مجلس الإمام حينذاك يرى رؤساء القبائل يترددون عليه ولا حديث لهم إلا ما كان من اجتماع كلمتهم وما يتوقعونه من النصر ويرجونه من إحقاق الحق وكبح جماح الطامحين إلى الخلافة من غير أهل البيت.

ذلك كان شأن الكوفة في شهر الصيام المبارك. أما عليٌّ فلم يكن يشغله عن فروض الصوم والصلاة شاغل، فإذا دنت الساعة وأذن المؤذنون تهافت الناس في صحن المسجد إلى سماع ما عهدوا في كلامه من البلاغة وشدة الغيرة على الإسلام والمسلمين. فإذا صعد المنبر رأيت الناس سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير إعجاباً بما يسمعونه من درر ألفاظه وبديع حِكَمِه وبليغ آياته، وهم يُعجبون لما قام في أنفس المعارضين ممن تخلفوا عن بيعته، وبخاصة الخوارج الذين اختلقوا لمعاداته أسباباً ما أنزل الله بها من سلطان.

وكان إذا فرغ من صلاة المغرب ذهب إلى داره ومعه جماعة من الأمراء يتقدمهم أولاده وسائر أهله، فيجلسون إلى الأسمطة للإفطار، والقراء يتلون القرآن في جوانب الدار، والكل يسبّحون ويهلّلون حتى

يخيّل إليك أنهم في يوم الحساب، وما فيهم مَن يخاف عقاباً لما يعتقدونه من صدق دعوتهم وقيامهم بالحق المبين.

وكان الإمام إذا فرغ الناس من الإفطار وجلسوا للأحاديث أقلهم كلاماً. وربما مكث ساعة أو بضع ساعات لا ينبس ببنت شفة كأنه يفكر في أمر ذي بال، وربما كان تفكيره فيما يخشاه من سفك الدماء إذا حمل برجاله على الشام، ونفوس الناس وديعة عنده يضن بها أن تذهب ضياعاً ولا يضن بها أصحابها في سبيل نصرته.

كان ذلك شأنه في أواسط رمضان، وعلى الأخص في ليلة السابع عشر منه، وهي الليلة التي بات فيها ابن ملجم يترقب انبلاج الصبح ليقوم بفعلته للفتك بابن أبي طالب. وفي تلك الليلة أسرع سعيد وعبده إلى دار الإمام لينبئاه بعزم ذلك الرجل.

وما ظنك بابن ملجم في تلك الليلة.. هل تظنه بات رابط الجأش مطمئن القلب؟ وهل عرف الكرى جفناه؟ لا نخاله قضى ليلته إلا قلقاً مضطرباً لهول ما عوّل عليه من الأمر الجسيم. وأي شيء أفظع من أن يُسفك دماً بريئاً، دم رجل جمع إلى كرامة الخلافة شرف النسب، وأحرز من العلم ما لم يحرزه أحد من المسلمين في ذلك العهد؟ أليس هو ابن عم الرسول وخليفته وصهره؟ أليس هو ذلك العالم التقي العادل المخلص الغيور على الإسلام والمسلمين؟ لا نخال ابن ملجم قضى ليلته إلا على شوك القتاد لم يغمض له جفن وقد طال ليله. وربما حدثته نفسه بالرجوع عن عزمه فيغلب عليه عهده لرفقائه ووعده لخطيبته قطام بنت شجنة، ولا سيما بعد أن أشركت معه في الجرم ابن عم لها يُقال له «وردان» حرضته على الأخذ بناصره. ولقي هو رجلاً من «أشجع» يُقال له «شبيب» استحثه على ركوب ذلك المركب الخشن معه. فتواعد الثلاثة على العمل معاً في فجر الغد.

فهل تظنه بعد تلك العهود والمواثيق يصغي لنداء ضميره إن كان له ضمير؟.

على أنك لو سبرت غور قلبه في تلك الليلة وهو يتقلب على فراشه وسيفه المسموم إلى جنبه، لرأيته يناجي نفسه ويدفع تبكيت ضميره بحجة أنه عمد إلى ذلك دفعاً لفتنة كان سببها تنازع عليّ ومعاوية وعمرو على السلطة، والفتنة أشد من القتل.

وكأن نفس الإمام عليٍّ حدثته في هذا الأوان بخطر يتوقعه على حياته وكان مذ أَهَلَّ رمضان يتعشى ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند جعفر، لا يزيد على ثلاث لقمات. ثم يقول: «أحب أن يأتيني أمر الله وأنا خميص». وأما في تلك الليلة فإنهم تعشوا جميعاً في منزل الإمام وهو جالس لا يأكل إلا قليلاً وأولاده بين يديه ينظرون إليه ويُعجبون لحاله.

وكان حاجبه «قنبر» رجلاً كهلاً من أهل الحبشة إذا نام الإمام بات هو عند بابه، وكان في تلك الليلة أشد الجميع قلقاً لم يتناول الإفطار ولا هدأ له بال. أكل الناس وهو جالس القرفصاء عند الباب وعيناه شاخصتان إلى الفضاء يتوقع قدوم قادم وهو لا يكلم أحداً ولا انتبه أحد لحاله، ولو سأله أحدهم عن علة قلقه لباح له بما اطلع عليه من الأسرار التي ظن أنه كشفها وهم يبحثون عنها عبثاً.

وبعد صلاة العِشاء ارفضَّ المجلس، فذهب كل إلى منزله وناموا جميعاً إلا «قنبر» فإنه لبث ساهراً وقد أخذ الاضطراب والقلق منه مأخذاً عظيماً. وما سهر للحراسة وهو يعلم أن الإمام لا يريد حرساً يحرسه. ولكنه جلس يفكر في أمر أذهب رقاده وألقاه في حيرة.

أما سعيد وبلال فإنهما دخلا الكوفة وأسرعا إلى دار الإمام

عليٍّ وكان القمر بدراً أو حوالي البدر، وقد تكبّد السماء فأرسل أشعته على أبنية الكوفة، وقد انقشعت الغيوم عن السماء على غير المعتاد في ذلك الفصل. فلما دخلا الكوفة رأياها ساكنة هادئة لانقضاء ميقات السهر، وقد نام الناس وهم يتوقعون أذان السحر لينهضوا للسحور.

سار سعيد وهو يستحث جمله وقلبه يرقص طرباً لنجاح مهمته لاطلاعه على حيلة قطام قبل فوات الوقت. فلما دنا من المسجد ترجل وقال لبلال: «خذ الجمل وسر به إلى ساحة الكوفة وامكث حتى آتيك».

فعمل بما أمره به، ومشى سعيد وركبتاه تصطكان من الاضطراب، حتى أقبل على دار الإمام فرأى السكون مخيماً عليها، فوقف يفكر كيف يدخل الدار وأهلها نيام، فتردد خشية أن يُظن به السوء لقدومه في ذلك الوقت، ولم يكن قد دخل الدار من قبل ولا لقي الإمام عليّاً لقاء أهل الولاء. ولكنه لم يرَ بداً من الإقدام فمشى متردداً حتى دنا من باب الدار فرأى شبحاً جالساً لم يعرفه، ولكنه سُرّ به لعلمه أنه لا يبعد أن يكون من رجال عليٍّ فيسهل رسالته، على أنه لم يكد يقبل عليه حتى وقف الشبح بغتة واعترضه سائلاً: «مَن القادم؟».

فقال سعيد وهو يتلجلج: «إني رسول إلى الإمام عليٍّ، ومَن أنت؟».

قال: «أنا قنبر حاجب الإمام. ومَن أنت؟».

قال: «إني سعيد الأموي، أريد مقابلة الإمام عليٍّ».

فصاح قنبر قائلاً: «أأنت سعيد؟ تعال معي».

فسُرّ سعيد لإجابة طلبه تواً، ومشى في أثر قنبر حتى دخلا باب الدار وتوجها إلى حجرة فيها مصباح، فدخل قنبر أولاً وأيقظ رجلين نائمين هناك، فلم يكد يدخل الحجرة حتى أطبق عليه الرجلان وقيدا يديه ورجليه وهو واقف لا يبدي حراكاً من هول المفاجأة، ولما عاد إليه وعيه قال لقنبر: «ماذا تصنعون بي، وما هذه الوقاحة؟ أين الإمام عليٌ؟».

فأجابه قائلاً: «لقد خاب فألك أيها الوغد اللئيم، إنك لن ترى عليّاً حتى ترى الموت قبله».

فكاد سعيد أن يُجن، ولم يدرك الباعث على عملهم فصاح بهم: «ما لكم تفعلون بي هكذا وقد جئتكم في رسالة لأنقذ الإمام عليّاً من القتل».

قال قنبر: «إخسأ ولا تكثر الكلام، إنك أموي وما أتيت إلا لتغتال الإمام، ولكن دون وصولك إليه خرط القتاد».

فقال: «وكيف أريد به شراً، وقد جئت لإنقاذه من القتل؟».

فأمسك قنبر بتلابيبه ويداه ترتعدان اضطراباً وقال له: «أتظن حيلتك تنطلي علينا؟ أما كفى بني أمية ما فعلوه، حتى جئتم تقتلون الإمام في عقر داره؟».

فبهت سعيد، وجمد الدم في عروقه، وقال: «ما بالكم تسيئون بي الظن وأنتم لم تروا مني خيراً ولا شراً، ألا تسمعون قولي ثم ترون رأيكم؟».

فقال قنبر: «وماذا تريدنا أن نسمع وأنت أموي أخذ عليك العهد لتقتلن الإمام عليٌ مهراً لفتاة خطبتها».

فذهل سعيد وأراد أن يدافع عن نفسه فرأى قنبر قد أخرج من

جيبه رقّاً دفعه إليه وجذبه بيده إلى المصباح وقال له: «اقرأ أليس هذا خطك؟».

فلما وقع نظر سعيد على الرق رأى العهد الذي كتبه لقطام يوم خطبها، فأيقن أن قطام هي التي أرسلت هذا الرق إلى دار الإمام لتوقع به. ورآها لفرط حيلتها قد محت اسمها عنه ووضعت اسم فتاة أخرى فصمت ولم يُجب. فاتخذ قنبر سكوته حجة عليه فصاح: «أجب، قل. أليس هذا خطك؟».

فارتبك سعيد في أمره ولكنه ظل يؤمل أن ينجو اتكالاً على النبأ الذي جاء به عن مكيدة ابن ملجم فأجاب: «هب أنه خطي ولكنني جئتكم بخبر المكيدة التي كادها بعض الناس للإمام. ألا تمهلوني ريثما أخبركم».

فلم يصبر قنبر على سماع كلامه وصاحَ قائلاً: «وأي مكيدة أعظم من أن تتعهد بقتل الإمام. امكث هنا الليلة، وسنرى في أمرك غداً». قال هذا وأوصد الباب دونه.

فلما خلا سعيد إلى نفسه في تلك الحجرة ظن نفسه في حلم، وجعل يفكر في أمره وفي دهاء قطام وكيف أوصلت هذه الورقة إلى هذا الرجل لإتمام حيلتها. ولكنه لم يكترث لما عامله به قنبر، وصمم على مقابلة الإمام في الصباح الباكر واطلاعه على سر الأمر.

وأما وصول الصك إلى قنبر، فإنما سعت فيه لبابة المحتالة بإشارة قطام بعد أن تداولتا في إتمام الحيلة مخافة أن يطلع سعيد على مكيدتها قبل وصوله إليها، أو أن يذهب إلى منزل الإمام قبل المرور بها. فأخرجت ذلك العهد وغيّرت فيه ألفاظاً رفعت بها الشبهة عنها، وكلفت لبابة فأتت منزل قنبر في صباح ذلك اليوم بدعوى أنها دلاّلة تبيع الأقمشة وألقت إلى قنبر حديثاً لفّقته بحيث تلبس الشبهة سعيداً

فلا يصغي أحد إلى كلامه. وكان أنصار عليٍّ قد سمعوا إشاعة اعتزام بعض الناس قتل الإمام. فلما رأى قنبر الصك وعلم أن صاحبه أموي رُبِّيَ في بيت عثمان وقام بنصرته لم يبق عنده شك في إجرامه، ولا سيما بعد أن رآه قادماً قدوم اللص بعد منتصف الليل. فلما قبض عليه حبسه إلى صباح الغد ليرى الإمام رأيه فيه بعد أن يعود من صلاة السحر.

أما بلال فإنه مكث بالجَمَلين في ساحة الكوفة ينتظر قدوم سعيد. فلما أبطأ عليه قلق، ولكنه لم يظن سوءاً لما يعلمه من سلامة نية سعيد. وفيما هو جالس يفكر في ذلك سمع أذان السحر وكان يعلم أن عليّاً يخرج في تلك الساعة للصلاة فهرول إلى المسجد فدخله فرأى فيه قبة مضروبة علم أنها قبة بعض النساء ممن يجلسن لسماع الصلاة. فوقف يجيل نظره لعله يرى سعيداً. فإذا برجال دخلوا وفيهم رجل ملثم وقد التف بعباءة يخفي تحتها سيفاً فتفرس فيه عن بعد فرأى على جبهته أثر السجود فعلم أنه ابن ملجم، فارتعدت فرائصه وحدثته نفسه أن يصيح به ولكنه خاف على نفسه ولم يكن يشك في أن عليّاً قد اطلع على سر المؤامرة فلا يلبث أن يدخل المسجد ويأمر بالقبض عليه، ثم رأى ابن ملجم وقد توجه ومعه رجل آخر هو شبيب نحو تلك القبة فكلَّما مَن فيها، وكان فيها قطام بنت شحنة، ثم مشى ابن مُلجم حتى اقترب من السدة وبلال يرقبه ويتوقع سماع الأمر بالقبض عليه حالما يدخل عليٌّ.

وبعد هنيهة، فتح باب السدة، ودخل منها الإمام عليٌّ وهو يمشي الهوينا وعمامته على رأسه تغطي صلعته وكان ذا بطن ولحية كثيرة الشعر ضخم العضل وفي يده درة (سوط) كان يوقظ بها الناس للصلاة كل صباح، فمشى الإمام وابن النباح المؤذن بين يديه والحسن

ابنه خلفه. فلما دخل أنصت الناس وبلال ينظر إليه موقناً أنه سينادي مَن يقبض على ابن ملجم، فإذا به قد وقف ونادى: «أيها الناس الصلاة الصلاة».

والتفت بلال إلى ابن ملجم فإذا هو لا يزال واقفاً لكن رفيقه (شبيب) تقدم مسرعاً وسيفه بيده فضرب به الإمام عليّاً فأصاب عضادة الباب وسقط السيف من يده فأجفل بلال وهَمَّ بأن يسرع إلى عليٍّ يخبره بأمر ابن مُلجم فإذا بابن ملجم قد أقبل على عليٍّ بأسرع من لمح البصر والسيف يبرق في يده وضربه على جبهته وهو يقول: «الحكم لله يا عليّ وليس لك ولأصحابك».

فصاح عليٌّ: «فزت ورب الكعبة». ثم قال: «لا يفوتنكم الرجل».

فتكاثف الناس على ابن ملجم فدفعهم بسيفه ففرجوا عنه فهجم عليه المغيرة بن شعبة وتلقاه بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الأرض وقعد على صدره وانتزع السيف منه. وأما شبيب فأفلت في الغلس وخرج من المسجد هارباً.

وانفرط عقد الناس ونظر بلال إلى القبة المضروبة فرأى امرأة خرجت من تحتها وإذا هي قطام أسرعت وفرت في غمار الناس. فذهل لما رآه ولكنه أمِل ألا تكون الضربة قاضية، ثم تذكر أن سيف ابن ملجم مسموم فيئس من نجاة الإمام، وجعل يتفرس في الناس لعله يرى سعيداً فلم يقف له على أثر فتقدم فيمن تقدم إلى السدة حيث كان عليٌّ مطروحاً فسمعه يقول: «أحضروا الرجل». فأحضروه إليه.

فقال له علي: «أي عدو الله.. ألم أحسن إليك؟».

قال: «بلى».

فقال: «فما حملك على هذا؟».

قال: «شحذت سيفي هذا أربعين صباحاً، وسألت الله أن يُقتل به شر خلقه!».

فقال علي: «لا أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا شر خلق الله».

ثم التفت إلى مَن حوله وقال: «النفس بالنفس إن هلكت فاقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي. يا بني عبد المطلب لا ألفيتكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل أمير المؤمنين. ألا لا يقتل إلا قاتلي. أنظر يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه بضربة، ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور)..».

قال ذلك وابن ملجم موثق، وكانت أم كلثوم ابنة علي واقفة بجانب أبيها فقالت لابن مُلجم: «أي عدو الله لا بأس على أبي والله مخزيك». فالتفت إليها ابن مُلجم وقال: «على مَن تبكين؟ والله إن سيفي اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم أحد».

ثم تقدم جندب بن عبد الله إلى علي وقال: «إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن».

قال علي: «ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر».

ولما علم الناس أن سيف ابن مُلجم مسموم أيقنوا دنو أجل الإمام، وخافوا الفتنة فيمن يخلفه، ولكنهم بعد أن سأله جندب بن عبد الله ما سأله عمن يخلفه فأجابه بأنه لا يأمرهم ولا ينهاهم، لم يسعهم إلا تأجيل النظر في الأمر، ثم نقلوه إلى داره ماشياً وهو يتوكأ

على ولديه الحسن والحسين والدم يغشى جبينه وكأن السم لم يفعل فعله بعد.

أما ابن مُلجم فكان لثامه قد وقع عن وجهه وبانت سحنته، وكان أسمر أبلج في جبهته أثر السجود، فساقوه إلى السجن ولو لم يوص أمير المؤمنين بألا يقتلوه إلا إذا مات هو من الضربة لقطعوه إرباً إرباً. ولكنهم اضطروا امتثالاً لأمر الإمام إلى أن يسوقوه إلى السجن ريثما تظهر عاقبة الجرح.

أما بلال فسار في أثر الجمع إلى منزل الإمام علي، وقد راعه ما رآه من هول تلك الساعة، ومما زاد في أسفه وضاعف حزنه ما أصابه من الفشل بحبوط مسعاه ومسعى سيدته، لأنه إنما كان يود نجاة الإمام من تلك المؤامرة إكراماً لمولاته خولة، ولا سيما بعد أن صحب سعيداً وسمع منه في اثناء الطريق ما حدثه به جده أبو رحاب عن فضائل الإمام علي التي يندر اجتماعها في رجل.

على أنه كان مع ذلك في شاغل عما كان فيه الناس من الاضطراب والاهتمام والانهماك بأمر الإمام وجرحه بالتفكير في سعيد وحاله، وقد عجب لفشله في مهمته مع علمه أنه إنما أسرع بعد طول مشقة السفر وسعى في منتصف الليل لينبىء القوم بالخطر الداهم، فمشى وهو يتفرس في الناس واحداً واحداً لعله يرى سعيداً بينهم فلم يقف له على أثر. على أنه ما لبث أن رأى الجمع دخلوا المنزل وأدخلوا الإمام محمولاً إلى حجرته، وتفرق الباقون في صحن الدار جماعات، وحديثهم يدور حول الحادث، وما عسى أن يصيب الإسلام بعده مما لم يكن في الحسبان، وما فيهم إلا مَن يقول: «ليتني أشفي غليلي بضرب عنق ذلك الباغي».

وفيما هو ينظر في وجوه الناس لعله يرى سعيداً، إذا بقنبر

حاجب الإمام عليٍّ قد خرج من الغرفة والدمع ملء عينيه وهو يقول: «اقتلوني أيها المسلمون، اقتلوني إني جنيت على أمير المؤمنين».

فنهض الناس والتفوا عليه وهم لا يفقهون حديثه، فإذا به قد اخترق الجمع ومشى إلى الحجرة التي كان سعيد مسجوناً فيها وفتحها وأخرج سعيداً منها وهو ما زال في أغلاله.

ولم يكن سعيد قد درى بما أصاب الإمام علياً. فلما أخرجه قنبر على تلك الصورة ورأى الجمع متكاثفاً ظنهم يريدون به سوءاً. فقال: «أروني الإمام علِيّاً فأطلعه على دسيسة دبرها له أهل البغي ولا تظنوا بي سوءاً».

فعلا صوت قنبر بالبكاء وقال: «لقد نفذ السهم يا سعيد، إنهم فتكوا بأمير المؤمنين».

فصاح سعيد: «ومَن فتك به؟».

قال: «ابن ملجم، ضربه ضربة قاتلة قتله الله».

فصاح سعيد: «ويلاه، واحسرتاه، كيف يقتله وقد قطعت البراري والقفار سعياً في تلافي المصاب؟ ألم أقل لك ذلك يا قنبر؟».

قال: «إنك لم تفصح المقال، وقد نفذ السهم وجرح الإمام جرحاً لا أظنه ينجو منه، ولو أصغيت إليك لنجا أمير المؤمنين، لقد وقع القضاء ولا مرد لقضاء الله».

ولم يتم قنبر كلامه حتى بكى سعيد وبكى الناس، وعلا الصياح وهم مبهوتون ينظرون إلى قنبر يتوقعون منه تفصيلاً لما أجمل.

أما هو فاشتغل بحل قيود سعيد وهو يقول: «قاتل الله تلك العجوز المحتالة، إنها غرتني بك وقد نجحت حيلتها».

فهمّ سعيد بأن يقص حديثه على أثر ما رأى من رغبة القوم في

ذلك فإذا ببعض الناس يقول: «إن الإمام في عافية وهو يحدث إبنيه الحسن والحسين».

فتحول الجمع إلى غرفته كالسيل. وانتهز بلال الفرصة فدنا من سعيد كأنه يستفهمه سبب فشله في مهمته. فقص عليه الخبر باختصار، ووعده بإتمام الحديث في فرصة أخرى. وسار مع الجمع إلى غرفة الإمام فلم يستطع الدخول إليها لتزاحم الأقدام. فأطل من نافذة فرأى عليّاً متوسداً فراشه وهو معصوب الرأس بمنديل يغطي الجرح وكانوا قد غسلوا الدم عن وجهه ولكن آثاره بقيت ظاهرة على لحيته.

فتذكر سعيداً جده أبا رحاب وما أوصاه به فأجهش بالبكاء، على أنه ما لبث أن سمع علياً يتكلم فوجه إليه انتباهه فرآه يخاطب ولديه الحسن والحسين وهما جاثيان عند رأسه وقد اشتد بهما الحزن، ولكنهما يتجلدان تجلد الرجال، وهما ينصتان وأعينهما شاخصة في وجه الإمام الجريح، والناس سكوت وكلهم آذان يسمعون ما يتلوه الإمام من الآيات البيّنات وهي آخر خطبة ألقاها. فإذا هو يقول:

أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما. وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضائع واصنعا للأخرى، وكونا للظالم خصيماً وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذكما في الله لومة لائم».

ثم نظر إلى محمد بن الحنفية فقال: «هل حفظت ما أوصيت به أخويك؟».

قال: «نعم».

قال: «فإني أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك، ولا تقطع أمراً دونهما». ثم قال لهما: «أوصيكما به

فإنه أخوكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما يحبه». وقال للحسن: «أوصيك أي بني بتقوى الله وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة عند محلها، وحسن الوضوء فإنه لا صلاة إلا بطهور، وأوصيك بغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعهد للقرآن، وحُسن الجوار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش».

وما أتم وصيته حتى أجهد وتعب من الكلام وما كان العهد به أن يتعب من الوعظ والخطب ساعات متوالية. ثم أمر بتلك الوصية فكتبت ودُفعت إلى الحسن، ولم ينطق الإمام بعد ذلك إلا بقوله: «لا إله إلا الله». حتى مات فعلا الضجيج وزاد العويل والبكاء. ثم غسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وكفّن بثلاثة أثواب ودُفن.

ولما رأى سعيد وقوع المصاب تذكر قطام وخبثها وقال في نفسه: «والله لم يقتله إلا هي ولولاها لم يُقتل أمير المؤمنين».

وفيما هو يفكر في ذلك ويبكي جاء قنبر فقبض على يده وجرّه فسار في أثره وهو لا يدري ما يريده منه. وسار بلال في أثرهما حتى دخلوا سجن ابن ملجم وكان مغلولاً هناك. فلما دخلوا عليه هَمَّ سعيد بالكلام فقال قنبر: «تمهل لنرى ما يقول هذا اللعين». فلما رآهم ابن مُلجم قادمين عليه ظل جالساً ولم يعبأ بهم، ولكنه خاطب قنبر قائلاً: «أظنك جئت تدعوني إلى النطع، لأن صاحبكم مات».

قال: «إلى ذلك جئت، ولكنني اسألك عن هذا الرجل هل تعرفه؟». (وأشار إلى سعيد) فقال: «كلا».

وكان قنبر قد أراد أن يتحقق براءة سعيد، وقد شك في اشتراكه مع ابن مُلجم في المؤامرة، فقال له: «ألم يكن لهذا الأموي يد

معك في القتل؟».

فتبسم ابن مُلجم وقال: «إنه أضعف من أن يقدم على ذلك. إني لا أعرفه».

فقال بلال: «هل تعرف قطام بنت شحنة؟».

قال: «أعرفها وهي خطيبتي ودم ابن أبي طالب مهرها».

فصاح فيه قنبر: «اخسأ يا لئيم إنك ملاق حتفك قريباً، قم إلى الموت».

أما سعيد فلما سمع قوله أن قطام خطيبته اشتد حنقه وغيظه من تلك المرأة، وقال في نفسه: «إني والله سآخذ بالثأر منها بيدي».

وكان الحسن هو الذي أمر بإحضار ابن ملجم ليقتله عملاً بوصية أبيه، فلما حضر بين يديه، نظر إلى ما حوله فرأى الناس ينظرون إليه بأعين تلتهب حنقاً وكل يود أن يقتله بيده، فلم يعبأ بما رأى، ولم يصبر حتى يكلمه أحد منهم فنظر إلى الحسن وقال: «هل لك في خصلة، والله قد أعطيت الله عهداً ألا أعاهد عهداً إلا وفيت به، وإني عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل عليّاً ومعاوية أو أموت دونهما، فإن شئت خليت بيني وبينه. فلك عهد اللّه علَيَّ أن أقتله ثم إن بقيت آتيك حتى أضع يدي في يدك».

فقال له الحسن: «لا والله حتى تعاين النار».

وكان الناس قد جاؤوا بالنفط والبواري والنار وقالوا: «نحرقه». فقال عبد الله بن جعفر والحسين بن علي ومحمد بن الحنفية: «دعونا نشف ما في أنفسنا منه، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه، فلم يجزع ولم يتكلم ثم كحل عينيه بمسمار محمى فلم يجزع، وجعل يقول: «إنك لتكحل عيني عمك بمكحول محمص».

وجعل يقرأ: «إقرأ باسم ربك الذي خلق». حتى أتى على آخر السورة وإن عينيه لتسيلان على خديه، ثم أمر به فعولج على لسانه لقطعه فجزع فقيل له: «قطعنا يديك ورجليك وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تجزع فلما صرنا إلى لسانك جزعت».

قال: «ما ذاك من جزع إلا أني أكره أن أكون في الدنيا فواقاً لا أذكر الله». فقطعوا لسانه ثم جعلوه في قوصرة فأحرقوه بالنار.

ولما اشتم سعيد رائحة القتر المتصاعد من بقايا ابن ملجم شفي بعض غيظه، ولكن قوله: «إن قطام خطيبتي وإن قتل عليٌّ مهر لها»، بقي يرن في أذنيه، وازداد تعجباً من دهاء تلك المرأة واستغرب أن يكون في النساء واحدة في مثل ذلك الدهاء، وتذكر ما حدث له معها من الوعود وما ارتكبته في سبيل الانتقام لأبيها وأخيها من الجرائم، وكم قُتل بسببها من الرجال وعبد الله ابن عمه في جملتهم. فاتقد غيظاً وظل برهة غارقاً في هواجسه لا ينتبه لما يدور حوله من الأحاديث ولا يفقه شيئاً من انهماك الناس في مبايعة الحسن. ولم ينتبه حتى ناداه بلال فلبّاه فقال: «هلم بنا يا مولاي من هنا إن لي كلاماً أقوله لك».

قال: «هيا بنا»، ومشيا ولم ينتبه لهما أحد لاشتغال الناس بالمبايعة.

وعادا تواً إلى ساحة الكوفة حيث تركا الجمَلين. وسارا من هناك إلى منزل سعيد، وكانا في أثناء الطريق يلتقيان بأهل الكوفة مسرعين زرافات ووحداناً إلى منزل الإمام عليٍّ على أثر ما سمعوه عن مقتله، وهما لا يكلمان أحداً.

ولم يكن سعيد قد دخل منزله منذ ذهابه إلى الفسطاط فلم يجد فيه أحداً لأن الخدم ساروا في جملة السائرين إلى منزل الإمام. وكان

التعب قد أخذ منه مأخذاً عظيماً لهول ما قاساه بعد سفره الطويل. فدخل الدار من باب خاص به وترك بلالاً يهتم بالجمَلَين. وبدَّل ثيابه وهو يفكر فيما رآه من الأهوال وما يتوقعه بعد موت الإمام عليٍّ من تغيّر المآل.

ثم توسد وسادة يلتمس الراحة وهو يفكر فيما يتوقع سماعه من بلال ولكن التعب تغلب عليه وغلب عليه النعاس فنام. ودخل بلال عليه فرآه نائماً فتوسد مقعداً في غرفة أخرى، وأخذ يتهيأ لمكاشفة سعيد بما يجول في خاطره من الشؤون حتى نام.

ظل سعيد وبلال نائمين حتى الغروب فأفاق سعيد على صوت الخدم وهم يفتحون الباب بعد عودتهم، وقد بغتوا لما رأوا سيدهم هناك على غير انتظار.

أما هو فعذرهم لغيابهم ودعا بلالاً فوقف بين يديه فدعاه للجلوس فاستأذن في إغلاق الباب دونهما، فأمر خادماً فأضاء له مصباحاً وضعه على مسرجة وخرج. فأغلق بلال باب الغرفة وجلس إلى سعيد والاهتمام بادٍ على وجهه.

فقال سعيد: «قل يا بلال ما بدا لك».

قال: «أيأذن لي سيدي في أن أسأله ما الذي دعا إلى فشل مهمته؟».

فتنهد سعيد وقال: «إن السبب قديم يا بلال لم أكن لأقصه عليك لو لم آنس منك ما آنسته من الغيرة والمروءة».

قال بلال: «ولم يكن من شأني أن أسألك عنه لو لم ألحظ من خلال الأحداث ما يشف عن بعض السر، ولعلي إذا اطلعت على حقيقة الحال أن آتيك بخبر جديد».

قال: «لا أخفي عليك أن السبب في فشلي امرأة أظنك سمعت اسمها في هذا الصباح من فم ابن مُلجم».

قال: «أظنها قطام بنت شحنة».

قال: «نعم، قبَّحها الله من داهية محتالة، فإنها كانت سبباً في قتل ابن عمي وقتل الإمام وابن مُلجم. ولا يُخفى عليك أن قتل الإمام لا يقتصر شره على قتل النفس ولكننا نخاف منه الفتنة، ولا ريب في أنها أرادت أيضاً أن تقتلني بوسيلة دبرتها». وقص عليه حديثه مع قطام مختصراً من أول معرفته بها إلى تلك الساعة.

فلما فرغ سعيد من كلامه عضّ بلال على أنامله وتحرّق ثم تنهد وسكت.

فقال سعيد: «ما بالك يا بلال، وما الذي يدعوك إلى التنهد؟».

قال: «يدعوني إليه ندمي على ما فاتني من القبض على هذه المرأة في صباح هذا اليوم لأني رأيتها في قبتها بالمسجد وقد مرّ بها ابن مُلجم ورفيقه فكلماها قبل إقدامهما على تلك الفعلة الشنعاء، ولكنني كنت أظن علياً، والَهفي عليه، قد علِم منك بما ينويه ابن مُلجم فلا يترك له فرصة لارتكاب ذلك المنكر. وقد رأيت بنت شحنة خارجة من المسجد بعد أن تحققت نيلَ بغيتها بقتل الإمام، فيا ليتني قبضت عليها. ولكن ما قدر كان. وقد قُتل الإمام وقُتل قاتله والأمر في ذلك لله. على أنني إذا عشت فسأنتقم لك وللإسلام من هذه الفاجرة. ومن غريب الاتفاق أن ابن مُلجم هذا كان قد خطب سيدتي خولة من أبيها ولكنها لم تكن تحبه ولم ترض به».

ولم يكن بلال عارفاً باطلاع سعيد على هذا الخبر من خولة فلم يشأ سعيد أن يعترف له به فظل صامتاً ليسمع بقية الحديث.

فقال بلال: «ولا شك أن سيدتي خولة ستفرح إذا سمعت بمقتل هذا الغادر لنجاتها من شركه».

قال سعيد: «وما الذي يحملها على قبوله إذا لم تكن ترغب فيه؟».

قال: «إن أباها هو الذي أطمعه بها ووعده بزفافها إليه، أما هي فإنها كانت قد عزمت على رفضه مهما تكن العاقبة».

تذكر سعيد حديث خولة، وتمثلت له صورتها ملكاً كريماً وما هي عليه من الحمية والأنفة والمروءة، وما شعر به من الميل إليها يوم لقيها في الفسطاط أيام كان لا يزال مخدوعاً بمواعيد قطام ومشغولاً بأمر الإمام عليٍّ، فلم يترك لقلبه يومئذ مجالاً للحب، فلما سمع ذكرها الآن تجددت ذكراها وأحب أن يسمع حديثاً عنها فقال: «هل أنت واثق من أنها كانت مصممة على رفضه ولو أغضبت أباها؟».

قال: «نعم إني واثق بما أقول وقد لحظت شيئاً آخر..». وسكت وهو يبتسم.

قال: «وما هو؟». قال: «ألم تلحظه أنت؟».

قال: «كلا وما هو؟ قل». قال: «لحظت أنك وقعت من نفسها موقعاً عظيماً، ولحظت أيضاً أنك لم تجهل ذلك».

قال: «كيف عرفت أني لم أكن أجهله؟».

قال: «عرفته مما رأيت من خروجها إليك غير مرة ليلاً، التماساً لنجاتك وهي تستجهلني ولا تنتبه إليّ. ولكنك كنت في شاغل يومئذ بلهفتك على إنقاذ الإمام عليٍّ من كيد الحاقدين».

فعجب سعيد لما ظهر له من اطلاع بلال على سرّه، وتذكر أنه شعر بشيء منه يوم كان في الفسطاط وأن اشتغاله بأمر الإمام وخوفه

عليه مع تعلقه بقطام وعهودها حالَ بينه وبين تمكين حبل المودة مع خولة. فلما سمع ما سمعه من بلال ساعتئذ أحب أن يستطلع جلية الخبر فقال له: «افصح عما في نفسك إني لم أفهم مرادك».

فقال بلال: «إن مرادي واضح مما ذكرته لك، وها أنذا أفشي لك سراً هو أن مولاتي خولة حين أمرتني بأن أسير في ركابك، أوصتني بأن أنتظر حتى نكشف دسيسة ابن مُلجم وننقذ الإمام علياً ثم اطلعك على رغبتها في عودك إلى الفسطاط لأنها تكون قد نجت من خطبة ابن مُلجم وتكون أنت قد فرغت من مهمتك، ولا أدري ما تنويه هي في رجوعك؟».

ففهم سعيد ما وراء ذلك فقال له: «أما رجوعي إلى الفسطاط فلا يخلو من مجازفة لما في ذلك من الخطر عليَّ لأني إنما جئت منها فراراً من القتل. فإذا عدت فإنما أعرض نفسي لما هو شر من القتل، وابن العاص لا يعفو عني، ناهيك بكرهي لبلد فقدت فيه ابن عمي». وسكت هنيهة وتنهد ثم قال: «وهل أنت واثق من ميلها إليّ. فإني والحق يُقال رأيت في خولة من الحمية وعزة النفس مع التفاني في نصرة الإمام ما جعل لها في نفسي مقاماً رفيعاً. ولا أكتمك ما خالج قلبي يومئذ من الميل إليها ولكنني كنت عالق القلب بقطام أخزاها الله فإنها خدعتني».

فابتدره بلال قائلاً: «لا تذكر هذه الخائنة يا مولاي، إني والله أكره أن أسمع ذكرها، لأني أشعر بقصوري وجهلي اللذين سببا نجاتها، وهي والحق يُقال أصل هذا الشر العظيم... ففي سبيل انتقامها لأبيها وأخيها ارتكبت أعظم إثم حدث في الإسلام فقتلت ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكنني سوف أذيقها حتفها وأسفك دمها ولو بذلت في هذا حياتي». قال ذلك وهو يحرق أسنانه

حنقاً وأسفاً.

فقال سعيد: «وما ظنك بها الآن.. أباقية هي في الكوفة؟».

قال: «لا أظنها تبقى بعد ما ارتكبته فيها، وقد افتضح أمرها وعلم الخاص والعام أنها شريكة في القتل».

قال: «وأين تراها تذهب؟».

قال: «لا أدري، وسأبحث في ذلك صباح الغد، أما الآن فلنعد إلى ما كنا فيه فإنك إذا لم ترجع معي إلى الفسطاط أحسبني مقصراً فيما عهد إليَّ فيه. وخولة يا مولاي يندر مثلها بين البنات جمالاً وتعقلاً وأنفة. ولولا أبوها وتشيّعه لمعاوية لأتت بما لم يأته أعاظم الرجال. ولكنه كثير التشيع لابن أبي سفيان وكثيراً ما كانا يختلفان أمامي ويختصمان على أمور استدل منها على ذلك».

وأحس سعيد بعاطفته تتجدد، وشاقه حديث خولة وتاقت نفسه إليها، ولكنه استثقل الذهاب إلى الفسطاط مخافة الوقوع في قبضة عمرو بن العاص. ثم تذكر أن المتآمرين كانوا قد أجمعوا على قتله وقتل معاوية في مثل ذلك اليوم، فقال: «ألم أخبرك أن اثنين آخرين تآمرا على قتل ابن العاص ومعاوية أيضاً».

قال: «بلى أخبرتني ولكنني لا أخاف على ابن العاص الوقوع في الشرك».

قال: «وما الذي ينجيه منه وهو لا يدري ما يمكرون، فإذا فتكوا به سهل عليَّ الدخول إلى الفسطاط ويكون ذلك أسهل أيضاً إذا قُتل معاوية في الشام».

قال بلال: «إن البحث عن ذلك يحتاج إلى وقت، ولا بد لنا من التربص حتى تأتينا الأخبار أو أن نذهب نحن للبحث عنه».

قال سعيد: «لا صبر لي على الانتظار، ولا أظنك تصبر عليه. فأرى أن تسير أنت على عجل إلى الفسطاط تستطلع جلية الخبر، وتعود باليقين. وإذا جعلت طريقك على الشام جئت بالخبرين معاً».

قال: «أمرك يا سيدي. وأنت ماذا تفعل؟».

قال: «أبقى هنا للبحث عن تلك الخائنة قطام، فإني أتوق للإنتقام منها. فإذا لم أوفّق إلى ذلك عشت منغص العيش طول عمري، إنها قتلت ابن عمي وأمير المؤمنين وكادت تقتلني!».

قال: «بالله دع أمرها لي، فإني أريد أن أشفي غليلي منها ومن عبدها الزنيم ريحان لا أراحه الله، ولكنني أرى سفري إلى الفسطاط أدعى إلى العجلة».

فأُعجب سعيد بحماسة بلال، وزاد ميلاً إليه وشوقاً إلى خولة. وأخذ يعيد إلى ذهنه ما آنسه فيها من الخلال الحميدة والغيرة عليه، وكيف كان التقاؤه بها سبباً في نجاته من القتل ليلة ذلك الاجتماع. فضلاً عما رآه فيها من الغيرة على أمير المؤمنين. ولكنه لم يكد يذكر عاقبة ذلك السعي وحبوط ما دبره حتى اشتعل غيظاً، ولكنه لم يرَ حيلة فيما مضى فقال: «لقد قُضِي الأمر يا بلال ولم تبق لنا حيلة فيما مضى، فاذهب أنت إلى الفسطاط وعرج في طريقك على الشام ثم عد إليَّ بالخبر اليقين عن عمرو ومعاوية. وأما أنا فإني باقٍ هنا أبحث عن قطام وعجوزها وعبدها، فإذا عدت فوافني إلى هذا المنزل».

قال: «وخولة؟ ماذا أقول لها؟».

قال: «أذكر لها أن شوقي إليها لا يوصف، وإن ما عندي أضعاف ما عندها، ولها مني عهد الله أن لن ينالها سواي».

قال: «أما رضاها فأنا الضمين لك به». وسكت بلال وقد

أبرقت أسرّته سروراً بما سمعه. ثم قطب وجهه بغتة وقال: «ولكن هب أن ابن العاص ما زال حياً وأبوها كما تعلم شديد التشيع له فلا أظنه يرضى بك زوجاً لها، فما الحيلة؟».

قال: «هذا راجع إلى اختيارها، ومتى عدت إليَّ بالخبر نتدبر الأمر في حينه، أما الآن فلا نضيع الوقت. امض إلى الفسطاط على عجل وعد إليَّ بالخبر اليقين وعلى الله الاتكال».

فأخذ بلال يستعد للرحيل، وسعيد صامت يفكر فيما هو فيه. وأصبح الحصول على خولة شغله الشاغل، ولكن فشله في إنقاذ الإمام أثار فيه حب الانتقام من قطام. فصمم على الفتك بها إما بيده وإما بمساعدة الحسن بعد تبوئه عرش الخلافة.

ـ ١٣ ـ

نجاة عمرو بن العاص

فلنترك سعيداً وبلالاً على حالهما، ولنعد إلى خولة في الفسطاط، فقد تركناها عائدة في ذلك الليل إلى منزلها على طريق عين شمس. وكان أبوها قد حسبها فيه. فلما أخرجها سعيد منه وسارا معاً إلى الدير ثم خرجت هي وحدها لم ترَ خيراً من أن تتظاهر بالبكاء والخوف فهرعت إلى منزل أبيها باكية وكان هو لا يزال غائباً يتداول مع عمرو بن العاص في شأن الذين قبض عليهم في ذلك اليوم. فلما فرغ من أمرهم وحرّض ابن العاص على إغراقهم سار إلى محبس ابنته فرأى الباب مفتوحاً وليس هناك أحد. فاستغرب الأمر وعاد تواً إلى منزله فرأى خولة جالسة في غرفتها تبكي. فتجاهل سبب بكائها وقال: «ما بالك يا خولة؟».

قالت: «كيف تتركني وحدي في ذلك البيت ألم تخف عليَّ من أبناء السبيل؟».

قال: «ألم تري أني أقفلت الباب وأوصدته خوفاً عليك من ذلك؟».

قالت: «كيف تفعل بي هذا؟ أعاصية أنا أمرك؟». واستغرقت في البكاء.

فتحركت فيه عاطفة الأبوّة، وظنها تقول ذلك عن سذاجة فقال لها: «وكيف خرجت؟».

قالت: «لما رأيت نفسي حبيسة هناك خفت على حياتي فجعلت أناديك وأستغيث بك، ثم سمعت قرقعة وضجيجاً ووقع حوافر كثيرة فازداد خوفي فصحت واستجرت، فقيض الله لي رجلاً فتح الباب بالعنف فخرجت وهرولت إلى البيت وأنا أرتعد من شدة الاضطراب».

فطيّب خاطرها ولامَها على خوفها، ولكنه سُرّ لظنه أن حيلته قد انطلت عليها، وما زال يهون عليها حتى تظاهرت بالرضا فتركها وخرج وهو يظنها عازمة على الرقاد. ثم سمعت لغط الناس في المدينة فانتبهت إلى أن الجند لا يلبثون أن يفتحوا بيت الغفاري، فإذا رأوا سعيداً هناك قبضوا عليه فخرجت لإنقاذه كما تقدم. وقبل خروجها أوصت عبدها بأن يوصد الباب، وإذا سأل أبوها عنها يقول له إنها نامت وأقفلت الباب عليها لشدة ما اعتراها من الخوف في ذلك المساء. فبات أبوها تلك الليلة وهو يحسبها نائمة، أما هي فبعد إنقاذها سعيداً عادت إلى غرفتها مضطربة فلم تستطع رقاداً، وجعلت تفكر في وسيلة تنقذ بها عبد الله، ولم تمكث قليلاً حتى سمعت لغطاً في دار أبيها، وفهمت من خلال اللغط أن ابن العاص عوّل على إغراق أسراه في النيل، وسمعت أباها يضحك سروراً لهذا القرار، فأسفت أسفاً شديداً، ولبثت برهة تفكر فيما تفعل، حتى حدثتها

نفسها لفرط انفعالها، بأن تخرج في أثر الخارجين لعلها تستطيع إنقاذ عبد الله. فغافلت أباها وكان قد ذهب إلى فراشه وخرجت وأوصدت الباب وراءها، وبلال نائم أمام عتبته، وسارت في اتجاه ضفة النيل حيث ظنت أنهم ساقوا الأسرى وهي عزلاء دفعتها حماستها إلى الخروج هكذا. فالتقت هناك بسعيد ودار ما دار بينها وبينه ووعدته بإرسال عبدها ليصحبه إلى الكوفة كما تقدم. ثم عادت وحدها.

فلما أشرفت على المنزل رأته هادئاً وأهله نيام، فانسلت إلى الدار فرأت عبدها بلالاً نائماً فأيقظته فهبَّ من رقاده مذعوراً وكانت تعلم شدة تعلقه بها وتفانيه في مرضاتها، فدعته إلى غرفتها فتبعها فلما خلت به قالت: «أتدري لماذا دعوتك؟».

قال: «كلا يا مولاتي ولكنني رهين إشارتك».

قالت: «أتطيعني يا بلال؟».

قال: «كيف لا وأنا عبدك وطوع أمرك؟».

قالت: «أريد أن أعهد إليك في أمر خطير فهل تقوم به ولو أدى إلى الموت؟».

قال: «إن الموت هيّن في سبيل مرضاتك، مري يا سيدتي بما تشائين فإنني في خدمتك».

قالت: «أسمعت بما حدث اليوم في عين شمس وما فعل ابن العاص بالمجتمعين هناك؟».

قال: «نعم وقد ارتكب أميرنا فيه أمراً جسيماً وقتل كثيرين».

قالت: «أما سرك ما فعله ابن العاص بأولئك العلويين؟».

قال: «إذا كان سرَّك فإنه يسرني».

قالت: «وما ظنك بي؟».

قال: «لا أظنك راضية عن هذا العمل، لعلمي أنك على غير دعوة الأمويين، وإن يكن سيدي أبوك متفانياً في سبيل التشيع لهم».

قالت: «وكيف عرفت ذلك؟».

قال: «أنت تحسبينني ساذجاً وقد قضيت في خدمتك أعواماً طوالاً واطلعت على مكنونات قلبك وأنت لا تعلمين. وأما الآن فقد دفعتني إلى التصريح بأني أعلم غرضك ولم يفتني شيء مما تقاسينه في سبيل الدفاع عن الإمام عليٍّ ولا سيما أمس، وأنت لا تعلمين شيئاً إلا أني أحرس هذا الباب الموصد وأكتم خروجك منه عن أبيك».

فاستغربت خولة قوله ولكنها سُرّت به وقالت: «وما قولك فيما حدث أمس؟».

قال: «أتحسبينني غافلاً عما قاسيته في سبيل إنقاذ ذلك الشاب الغريب الليلة، وقد كان في جملة من خيف عليهم الوقوع في شرك ابن العاص فأنقذته بهمتك؟».

فتحققت أنه كان يراقب حركاتها وسكناتها. فتهلل قلبها سروراً فقالت: «وأما الحال على ما أرى فأخبرك أن ذلك الشاب مسافر الآن إلى الكوفة، وأريد منك أن تذهب إليه بالجَمَلَين إلى سفح المقطم، فإذا التقيت به هناك فَسِرْ في ركابه إلى الكوفة واحذر أن يدري بك أحد أو أن تذكر ذلك لأحد».

ولم تتم كلامها حتى خرج مسرعاً يهمُّ بإعداد الجَمَلَين، فاسترجعته وقالت: «قف يا بلال بورك فيك واسمع كلمة أخرى أقولها لك».

فعاد وقال: «لبيك يا مولاتي قولي ما تشائين».

قالت: «إنك ذاهب مع هذا الشاب إلى الكوفة لإنقاذ الإمام

علي من القتل، وستعلم تفصيل ذلك منه. وأما الآن فيكفيني أن أوصيك به خيراً، وإذا انتهيتما من تلك المهمة فارجع به إلينا، فإني أكره ابن مُلجم الذي يريده أبي خطيباً لي. هل فهمت؟».

فضحك بلال وهز رأسه ولسان حاله يقول: «فهمت».

فقالت: «سر في حراسة الله، وكنت أود أن أزيدك بياناً، ولكن الوقت ضيق فاذهب وعد سالماً بإذن الله، واحذر أن تبوح لأحد بما سمعته أو رأيته».

فخرج وهو يلتفت إليها كأنه عاتب على ما ظهر من ضعف ثقتها بأمانته، ولكنه كان فرحاً بما كلفته به، فأعد الجمَلَين وخرج إلى سفح المقطم وصحب سعيداً كما تقدم.

ولما خرج بلال عادت خولة إلى غرفتها، وغلقت الباب واستلقت على فراشها وقد تعبت مما قاسته في ذلك اليوم من المشاق، وكان قد هَمّ بها النعاس لولا ما شغل ذهنها من عظائم الأمور، وما تخلل ذلك من شعورها بالميل إلى سعيد، ولولا الحياء واهتمامها بإنقاذ الإمام لصرحت به. وذلك لما آنست فيه من الرغبة في إنقاذ الإمام علي، مع ما في قلبها من النفور الشديد من ابن مُلجم حتى كرهت أباها من أجله ومن أجل تشيّعه للأمويين.

قضت بقية ليلها لم يغمض لها جفن، وهي تفكر في سعيد، وقلبها يخفق ميلاً إليه وخوفاً من فشله في مهمته. فجعلت تقدر الوقت اللازم لسفره إلى الكوفة فرأت أنه إذا أسرع لا يفوته الوصول إليها قبل الأجل المضروب للقتل. وكان يعترض مجرى أفكارها خوفها مما قد يطرأ عليه في الطريق فيعيق وصوله فترتعد فرائصها فرقاً على حياة الإمام. وفي قتله ضربتان كبيرتان: الأولى موته، والأخرى عودة ابن مُلجم إليها. ولكنها كانت تتعزى بأن ابن مُلجم إذا ظفر

بقتل الإمام لا ينجو من القتل. ثم تحوَّل ذهنها إلى أبيها وخروج عبدها بالجمَلَين، وأعدت أعذاراً تنتحلها في سبب خروجه فلم تجد خيراً من أن تدعي فراره إلى حيث لا تعلم.

وكان أبوها قد أفاق في أثناء الليل وهي غائبة فجاء غرفتها ليراها فوجد الباب موصداً فسأل العبد عن ذلك فقال: «إن سيدتي استولى عليها الخوف على غير المعتاد فأوصدت الباب وأوصتني بأن أنام خارجاً».

فقال أبوها في نفسه: «مسكينة خولة إن رعبها من ذلك الحبس لا يزال مؤثراً فيها». وعاد إلى فراشه وهو مصدق ما قاله العبد.

وفي الصباح جاء الغرفة فرأى الباب لا يزال موصداً ولكن بلالاً ليس أمامه فقرعه فنهضت خولة وفتحته وهي تتظاهر بالذبول لطول استغراقها في النوم. فأمسكها بيده الواحدة ووضع الأخرى على كتفها وهو يقول: «لعلك لا تزالين خائفة يا بنية؟».

قالت: «كلا يا سيدي إني تحت جناحك في أمن وطمأنينة».

فقال: «بورك فيك تعالي نتناول الطعام». ثم نادى بلالاً فلم يجبه أحد فقال: «أين بلال؟».

فقالت: «لا أدري لعله ذهب إلى السوق».

فانتظر هنيهة فلم يجىء، فأرسل خادماً في أثره فلم يقف له على خبر ثم علم بضياع الجمَلَين ولما انقضى معظم النهار ولم يعد بلال ولا الجمَلان أشكل عليه أمره، فقالت خولة: «يظهر أنه أخذ الجمَلَين وفرّ». فبعث أناساً في أثره إلى ضواحي المدينة فلم يأته أحد منهم بخبره، فصدق أنه فرّ.

أما خولة فلما تحققت انطلاء الحيلة على أبيها عادت إلى

هواجسها وتذكرت المهمة التي ذهب فيها سعيد، وأخذت تفكر في أمره وهي خائفة أن يتأخر في الطريق عن الوقت المضروب لقتل الإمام فيذهب سعيها هباء منثوراً، ولكنها كانت مع ذلك فرحة لنجاتها من ابن مُلجم، لعلمها أنه إن فاز بقتل الإمام عليٍّ فلا ينجو من سيوف أشياعه وهم كُثُرٌ في الكوفة. ولكنها شغلت من ناحية أخرى بسعيد بعد أن انتهت من تدبير سفره ولم تكن واثقة من وقوعها من نفسه مثل وقوعه من نفسها وتمنت لو يعود عبدها بلال ليطمئن قلبها، على أنه لم يكن قد أزف زمن رجوعه بعد فصبرت على مضض تترقب أحداث القدر.

وجاء أبوها ذات مساء بعد عودته من حانوته وعلى وجهه سيماء البِشر وقرأت فيه خبراً جديداً، فأحبت أن تعرف كنهه، فلما جلسا إلى الطعام احتالت على استطلاع حديثه فذكرت له أمر العلويين والقبض عليهم وتفننت في استرضائه، فابتسم وانقاد إلى الكلام مع ما هو فيه من الالتهاء بالطعام، وكأنها أدركت ما في ضميره فتوقفت عن طعامها تنتظر حديثه، فالتفت إليها وقال وهو يبتسم: «لقد عودتني يا خولة أن أحاذر في الكلام معك فيما أخشى إفشاءه».

فاستغربت وقالت: «إني لأعجب يا أبتاه من سوء ظنكِ بي، فأنا فتاة متحجبة في هذا البيت لا أعرف من أهل الدنيا أحداً سواك، فكيف تقول إنك تحاذر أن تذكر أمامي ما تخاف إفشاءه. أي سر بحت به إليَّ فأفشيته؟». قالت ذلك وهمّت بأن تتباكى.

وعاد هو فابتسم وقال: «لم أقل إنك تبوحين بالسر ولكن...». وسكت.

فقالت: «ولكن ماذا يا أبتاه؟ إنك تظلمني بظنونك، ويسوءني ألا يكون لي نصيب من الثقة حتى ولا من أبي الذي لا أعرف أحداً

سواه».

قال: «لا أخفي عليك يا ابنتي أنني كنت ولا أزال أعتقد أنك ميالة إلى الأعداء... و...».

فابتدرته وقالت: «وأي أعداء تعني؟ أعوذ بالله من هذه التهم! كيف تقول ذلك؟». وتنحت عن المائدة وأعرضت عن الطعام.

فقال: «إني ألحظ ميلك إلى العلويين، وأنت تعلمين أن علياً حاربنا وقتل جماعة منا في النهروان وغيرها. ولا ألومك على ميلك إليه، لأنني كنت أنا أيضاً مثلك في جملة المتشيعين له، ولكني أصبحت بعد وقعة صفين ناقماً عليه لما ارتكبه في مسألة الحكمين بحيث أخرج الخلافة من يده وجعل لمعاوية يداً فيها».

فأدركت أنها إذا أقرت بحقيقة ميلها ألقت نفسها في تهلكة، فلم ترَ خيراً من الإنكار فقالت: «وما أدراك أني باقية على الرأي القديم، فإنك إن كنت أنت انحرفت عنه فمن أكون أنا حتى أخالفك فيه».

قال: «لو لم تكوني على هذا لما تمنعت عن زواج ابن مُلجم وأنت تعلمين أن هذا الرجل قد عاهد نفسه على القيام بعمل لم يقدم عليه أحد من المسلمين في هذا العصر. فقد صمم على قتل عليٍّ».

فأجفلت عند سماعها ذلك التعريض وحدثتها نفسها بأن تبوح بحقيقة ميلها ولكنها خافت ضياع الفرصة وهي إنما افتتحت الحديث لتستطلع ما في نفس أبيها، فأنكرت التهمة كل الإنكار وقالت: «إن ما تنسبه إليَّ من أمر ابن ملجم ظلم يا مولاي، فإني لم أرفض الرجل وهو خطيبي متى عاد من رحلته هذه. وكيف تقول إني لم أقبله وأنا لم أفه بكلمة في هذا الشأن؟».

فضحك أبوها وهو يتشاغل بتقطيع فخذ من الضأن بين يديه، وقال: «نعم إنك لم تفوهي بكلمة، ولكنني أدركت من مجمل حالك أنك غير راضية به». وكان قد أتم تقطيع اللحم فقدم لها قطعة فأبت أن تتناولها وأعرضت دلالاً وحنقاً.

فقال لها: «خذي كلي يا خولة ولا يسؤك كلامي».

قالت: «إنما ساءني لأني أراني مظلومة وأظنك عاملتني معاملة العدو فحبستني في ذلك البيت المظلم بناء على هذه الظنون».

قال: «لقد أذكرتني حديث تلك الليلة وما كان فيها من الأهوال، وهو الأمر الذي جئت لأقص خبره عليك، ولكنني لا أقول كلمة قبل أن تصدقيني الخبر: هل أنت على ولاء أبيك تأتمرين بأمره. أم ماذا؟».

فتغاضبت وقالت: «إني أراك تحرجني وتلجئني إلى الانحراف عن دعوتك بما تثيره عليَّ من الظنون وأنا لا أبغي من هذه الحياة غير مرضاتك».

فمد يده وهو لا يزال قابضاً على قطعة اللحم وقال: «خذي إذن هذه اللقمة واصغي لما أقوله لك».

فتناولتها من يده وقالت: «قل». ووضعت اللقمة في فمها وهي لا تمضغها لانشغال ذهنها بما ترجو سماعه فقال: «اعلمي يا خولة أن أميرنا حفظه الله علم بقدوم رجلين أتيا من الكوفة للاجتماع ببعض كبار العلويين الذين كانوا يجتمعون سراً في خرائب عين شمس، فبعث جنداً من شرطته فقبض عليهم في مجتمعهم تحت الأرض. ألم تسمعي بهذا؟».

قالت: «عرفت بعض خبره بعد حدوثه».

قال: «فاعلمي أننا وجدنا بين المقبوض عليهم في تلك الليلة واحداً من ذينك الاثنين اسمه عبد الله، وأما الثاني فقد نجا، ولا ندري مَن هو، ولعله لم يشهد الاجتماع. أما الأول فساقوه مع مَن سيق تلك الليلة إلى دار الإمارة وقد يكون وقع إليك أن الأمير رأى أن يقتل أولئك المتآمرين، وكنت أنا ممن أشار عليه بذلك مخافة الفتنة إذا ظلوا أحياء. فأمر عمرو بإغراقهم في النيل وعبد الله معهم، وقد عدت أنا من حضرة الأمير وهم يتهيأون لإرسالهم إلى النيل وعلمت في اليوم التالي أنهم أغرقوهم».

فلم ترَ خولة في حديثه شيئاً لم تكن تعرفه، ولكنها رأت أن الحديث لم يتم فصبرت وتظاهرت بخلو الذهن من هذا الموضوع الغريب.

أما هو فقال: «وقد كنت أعتقد أنه أغرقهم جميعاً حتى كان اليوم وأنا في منزل الأمير فرأيت في بعض جوانبه غرفة مقفلة كنت كلما جئته أراها مغلقة فلم أهتم بشأنها، فلما كان عصر اليوم دخلت على الأمير وأنا عائد من عملي، فذكرت له أمر ابن ملجم ومهمته وطفقنا نتحدث فيما عسى أن يكون من أمره في الكوفة، فلما وصلنا إلى ذلك رأيته يبتسم وتوسمت في وجهه خبراً فرغبت إليه أن يطلعني على ما حدث، وأنت تعلمين ما لي من الدالة عليه. فتردد أول الأمر، فألححت عليه فقال لي: «أتعلم مَن هو المقيم بهذه الغرفة؟».

قلت: «لا يا مولاي، لا أعلم، وليس من شأني السؤال عما في منزل الأمير».

فضحك عمرو حتى رقصت لحيته وقال: «إني حبست فيها رجلاً سينقذ حياتي من القتل».

فعجبت لقوله واستغربت ما يشير إليه، ولبثت أنتظر الافصاح

فقال لي: «اعلم يا صاحبي أني حبست في هذه الغرفة عبد الله الأموي الذي كان قدومه سبباً في قتل العلويين منذ أيام».

فلما سمعت خولة ذكر عبد الله علمت أنه رفيق سعيد، وخفق قلبها فرحاً بنجاته، ولكنها استغربت سبب تلك النجاة، على أنها ظلت متجاهلة تتوقع سماع تتمة الحديث، وأبوها يتشاغل عن إتمامه بالمضغ والبلع، وكان أكولاً.

فلما خلا فمه من الطعام عاد إلى الحديث فقال: «فاستغربت كلامه وسألته عما عساه أن ينجيه من الموت؟ فذكر لي أن صاحبك ابن ملجم خطيبك هو أحد المتآمرين على قتله أيضاً مع عليٍّ في يوم واحد، وأنه سمع ذلك من عبد الله هذا فلم يصدق قوله لغرابته وأساء به الظن لعلمه أن ابن ملجم من رجال دعوتنا، ولكنه لم يسعه إلا أن يستبقيه ويحبسه في منزله ريثما يأتي الأجل المضروب لقتل عليٍّ وقتله وهو يوم ١٧ رمضان، فإذا تحقق صدق قوله أفرج عنه وإلا ضُرب عنقه. فلما سمعت ما قاله الأمير استغربته كل الاستغراب وخفت أن يكون قد أساء الظن بي، فأقسمت له الأيمان المغلظة أني لم أكن عالماً بغير عزم ابن ملجم، وسألته هل عرف اسم الرجل الآخر الذي تعهد بقتله فذكر لي أن الأموي الأسير لا يعرف الاسم».

قالت خولة: «وماذا تنوي أن تصنع؟». قال: «الحق يا ابنتي أنني لم أدر كيف أؤكد للأمير صدقي وإخلاصي مخافة أن يبقى على سوء ظنه بي، فبالغت في إظهار الغضب من ابن ملجم، وقلت له: (إني لو عرفت خداع الرجل ما رضيت به صهراً، وأنا منذ الآن مانعه من خولة). ولما قلت له ذلك التفت إليّ وقال: (لا يكفيني هذا الوعد وأنا أعرف خولة وأعرف مقامها، وطالما كنت أريدها لأحد أولادي، وأما الآن فإني أطلب إليك إذا صدق هذا الأموي في قوله أن تكون

ابنتك خولة عروساً له، لأن الرجل أموي وكان على دعوتنا حتى أغراه بعض الناس بالتشيع لعليٍّ)..».

فلما وصل إلى هذا الحد علمت خولة أن عبد الله لا يزال حياً، واطمأن قلبها وأدركت أنه لم يذكر اسم المتآمر الثالث على قتل معاوية مخافة أن يرسل عمرو بخبره إلى الشام فينجو معاوية منه.

ولكنها لما سمعت ذكر خطبتها له أطرقت حياء وسكتت وقلبها يختلج فرحاً بنجاتها من ابن ملجم، ثم تذكرت حبها سعيداً وما بعثت به إليه مع عبدها بلال، فاحتارت في أمرها على أنها لم يسعها إلا كتمان كل ذلك والتظاهر بالاستغراب فقالت وهي تهز رأسها استغراباً: «أصحيح أنهم تآمروا على قتل عمرو أيضاً إنها لمصادفة غريبة؟».

قال: «حقاً إنها مصادفة نادرة. ولكن ما قولك في اقتراح عمرو؟».

فسكتت ولم تجب.

فقال: «ما معنى سكوتك وأنت تعلمين أننا لا نستطيع رد ذلك الاقتراح؟».

قالت: «دع هذا الآن، فإنه ليس بالأمر المهم، وما خولة إلا جارية حقيرة لا تستحق هذا الاهتمام، ولنصبر إلى الأجل المسمى لنرى ما يكون».

فقال: «إننا صابرون، وأرجو أن يكون خطيبك الجديد أهلاً لك وليس مثل ابن ملجم الخائن، على أني أدركت من خلال حديث عمرو أن عبد الله رجل كريم، وهو أموي رُبِّيَ في منزل الخليفة عثمان، ولكنهم أغروه بالتشيع لعليٍّ، ثم عاد إلى ما كان عليه.

وأذكر أني رأيته ليلة قبضوا عليه فإذا هو شاب في مقتبل العمر وأظنك سترتاحين إليه».

فظلت خولة ساكتة، فحسب والدها سكوتها قبولاً فسكت، وكانا قد فرغا من الطعام فنهض ونهضت خولة فغسلت يديها وذهبت إلى غرفتها وهي تفكر فيما سمعته من أبيها وتحسب نفسها في حلم.

فلما خلت بنفسها تذكرت سعيداً وحبها له فتقاذفتها الهموم، وهي تخاف أن يحملها عمرو على الاقتران بعبد الله قبل أن تعلم مصير سعيد ومهمته في الكوفة، وقد أعجبت بدهاء عبد الله لأنه باح بخبر المؤامرة على قتل عمرو وكتم أمر المؤامرة على معاوية، ولكنها خافت ألا تتم نبوءته فلا يأتي القاتل في الأجل المعين فيقتله عمرو. وكانت إذا تصورت صدق نبوءته ونجاته من القتل يخفق قلبها لاضطرارها عند ذلك إلى قبوله زوجاً لها وهي تحب سعيداً، فهاجت أشجانها وارتبكت في أمرها، وجعلت تبحث عن سبيل تنجو به من هذا التردد فلم ترَ خيراً من الصبر والنزول على حكم القدر.

أما عبد الله فكان قد جنح إلى هذه الحيلة خوفاً على حياته، وكان يخشى أن يتأخر المتعهد بقتل عمرو عن المجيء لسبب من الأسباب فيذهب سعيه عبثاً.

وظل عمرو أياماً لا يخرج للصلاة، فلما كان فجر ١٧ رمضان شكا ألماً في بطنه فلم يخرج، واتفق خروج خارجة بن أبي حبيبة صاحب شرطته للصلاة وهو لا يعلم بخبر المؤامرة، ولم يأمره عمرو بالخروج ولو علم بخروجه لمنعه، على أنه لم يكن يحسب أن القاتل يأتي لقتله في الفجر وهو يصلي، بل كان يحسب أنه سيراقب خروجه في أثناء النهار في بعض شؤونه. ولكن منية خارجة عاجلته فخرج فجر ذلك اليوم إلى الجامع ليصلي بالناس، ولم يكد يبدأ بها حتى هم به

رجل من الوقوف وهو يحسبه ابن العاص فضربه بالسيف فقتله فقبضوا عليه وساقوه إلى عمرو. فلما رآه عمرو بغت وصاح به: «ويلك قد قتلت صاحب شرطتي قتلت خارجة بن أبي حبيبة». فأجابه الرجل بقلب لا يهاب الموت: «والله إني كنت أحسبه أنت».

فقال له عمرو: «أردتني وأراد الله خارجة. مَن أنت يا غادر؟».

قال: «عمرو بن بكر». قال: «وممن أنت؟». قال: «من تميم».

فقال: «اقتلوه». فقتلوه. وقد حزنوا لمقتل خارجة ولكن ما قدر كان.

أما خولة فإنها باتت ليلة ١٧ رمضان على مثل الجمر وهي تتوقع أن تسمع خبراً جديداً في اليوم التالي ولم تكن تتوقع أن يفعل الغادر فعلته في الفجر فأصبحت وقد ضجت الفسطاط بخبر خارجة وجاءها أبوها فأخبرها به ولسان حاله يقول: «لقد صحت أقوال عبد الله فتأهبي للاقتران به».

تحققت وقوع المحظور ولم تعد تدري ماذا تفعل وندمت لأنها لم تغادر بيت أبيها سراً قبل ذلك اليوم على أنها لم تكن من الجهة الأخرى موقنة من أن سعيد يبادلها ودّاً بود، فإنها لما لقيته في الفسطاط لم تتحقق ميله إليها. فوقعت في حيرة ولكنها كانت مع هذا في قلق على الإمام عليٍّ لا تدري هل نجا كما نجا عمرو أم ذهب فريسة ابن ملجم وتمنت لو أن عبدها يعود في ذلك اليوم بالخبر اليقين.

تركنا سعيداً وبلالاً في الكوفة وقد أخذ الأخير يتأهب للسفر إلى الفسطاط، وأخذ سعيد يفكر فيما يفعل بعده وكان هو الذي أمره بالذهاب إلى الفسطاط ليعود إليه بالنبأ اليقين عن عمرو. ثم رأى أنه

قد يطول به الانتظار ولا صبر له عليه. فقال لبلال: «كنت قد أمرتك بالذهاب إلى الفسطاط، ولكني أرى أجل عودتك بعيداً فلهذا رأيت أن أذهب إلى دمشق لأنتظرك بها، على أن توافيني إلى مسجدها بعد عشرين يوماً، وسواء أتمكنت من الفتك بقطام أم لا، فإنني سأعرف هناك مصير معاوية».

وسافر بلال، وصبر سعيد إلى الغد ثم خرج قاصداً بيت قطام فرآه مقفراً من أهله، فوقف عند باب الحديقة يتأمل نخلاتها وطرقاتها ويفكر فيما مرّ به هناك من الأحداث وما انطلى عليه من مكر قطام غير مرة، وتذكر آخر مرة زارها في ذلك المنزل ومعه ابن عمه عبد الله فازداد ميلاً إلى الانتقام منها. وفكر في المكان الذي عساها أن تكون قد ذهبت إليه، فخطر له أن تكون قد سارت إلى أهلها في جوار الكوفة، فمضى للبحث عنها هناك، ولكنه لم يقف لها على أثر، فملّ البحث وخاف أن ينقضي الأجل الذي ضربه لبلال كيما يوافيه هذا في دمشق، ولاحَ له أن قطام قد تكون سافرت إلى دمشق لتلتجىء إلى معاوية بعد أن نجحت في قتل الإمام على منافسه، فحزم أمره وقصد إلى دمشق على ناقة تسابق الرياح.

أما قطام فكانت قد علمت من ريحان بقدومه في الليلة التي وصل فيها إلى الكوفة، إذ عاد إليها ريحان وأخبرها بما دار بينه وبين بلال عبد خولة، وحكى لها ما فضحه هذا من سره وكيف كان سبباً في انكشاف أمره لدى سعيد فلم يعد يصدقه ولم يرض المجيء معه إلى بيتها، فحنقت على بلال وعلى سيدته خولة، وشعرت مع كرهها لسعيد بالغيرة تأكل قلبها من أجل علاقته بخولة، ولا سيما أن هذه كانت عوناً على عرقلة مساعيها لقتل الإمام عليٍّ، فأضمرت لها السوء ولكنها شغلت عنها تلك الليلة بما كانت فيه من انتظار الفتك

بعليٍّ. وكان ابن ملجم بائتاً عندها. فلما كان الفجر خرجت هي وعجوزها وعبدها، وضربت قبتها في المسجد كما تقدم. وفي ذلك من الجرأة ما فيه، ولم تكن تخشى كشف حيلتها لما دبرته من إرسالها لبابة المحتالة بالصك بعد تغييره إلى قنبر حاجب الإمام.

- ١٤ -
نجاة معاوية

قُتِلَ الإمامُ عليٌّ، ورأت قطام أنه قد قُبض على ابن ملجم كما توقعت فسارعت إلى الفرار بعبدها وعجوزها إلى مكان خارج الكوفة، وقد شفت حزازة صدرها بقتل الإمام. ولكنها بقيت ناقمة على سعيد وزادت نقمتها بعدما علمته من أمر خولة، فعزمت على الذهاب إلى الفسطاط، لتشي بها إلى عمرو بن العاص لاعتقادها أنه لا بد مقدر لها ما أنبأته به عن سر اجتماع العلويين. ولم يخامرها شك في نجاح وشايتها بخولة، لأنها من أنصار علي، فيقتلها إذا كان هو قد سلم. أما إذا كان قد قتل، فإنها لن تعجز عن تدبير حيلة أخرى. واستشارت لبابة فيما عنَّ لها فاستحسنت رأيها، وحسنت لها المسير إلى الفسطاط. واستشارت ريحان فقال لها: «إني في ركابك، أينما توجهت». فأثنت على غيرته، وأصبحت في اليوم التالي قاصدة الفسطاط على أن تمر بدمشق وتستطلع حال معاوية وما كان من أمره بعد ١٧ رمضان. فإذا كان قد قتل، فتحمل الخبر إلى عمرو، وتحرضه على طلب الخلافة لنفسه.

فلما وصلت إلى دمشق سمعت أن رجلاً اسمه البرك بن عبد الله التميمي الصريمي، قعد لمعاوية في فجر ١٧ رمضان في مسجد دمشق. فلما خرج معاوية للصلاة شد عليه بالسيف فوقع السيف في إليته. فلما أخذوه إليه قال له: «إن عندي خبراً أسرك به،

فهل ينفعني أن أنبئك به؟».

فقال له معاوية: «نعم».

قال: «إن أخاً لي قتل عليّاً هذه الليلة».

فقال: «لعله لم يقدر على ذلك».

قال: «إن عليّاً ليس معه أحد يحرسه. فلا بد أن يكون قد قتله».

فأمر به معاوية فقتل، ومضى هو يطبب جرحه.

فلما علمت قطام بنجاة معاوية لم يبق لديها إلا الشخوص إلى الفسطاط للإيقاع بخولة.

أما عبد الله فلبث في سجنه بمصر وقلبه واجف لما يخشى من حبوط المؤامرة، وقد خطر له أن يحتاط لذلك، فلما باح لعمرو بالسر اشترط عليه ألا يطلع أحداً عليه لأنه إذا شاع وبلغ خبره المتآمر فقد يعدل خطته، فيقدم الميعاد أو يؤخره، واقتنع عمرو بهذا، فكتم أمر المؤامرة عن كل الناس حتى صاحب شرطته، أما أبو خولة فقد كان من أكثر الناس تقرباً من عمرو، وأعظمهم غيرة عليه، وكان عمرو يثق فيه، على أنه لولا رغبته في معاتبته على خيانة صهره ابن ملجم لما كشف له الأمر.

فلما كان ليل ١٧ رمضان أخذ القلق من عبد الله مأخذاً عظيماً لعلمه أنه أصبح بين الحياة والموت. فلما كان الصباح وهو في سجنه يطل من كوة ليرى أو يسمع ما يجري وصل إلى أذنيه لغط لم يفهم منه شيئاً صريحاً، فانتظر حتى جاءه الحارس بالطعام على عادته، فعلم منه ما حدث، فاطمأن. وبعد العشاء جاء أحد رجال عمرو إلى السجن فحلَّ قيوده ودعاه إلى مجلس الأمير، فمشى في أثره وهو يرى نفسه قد

خرج بذلك من عداد الأموات. فقاده الرجل إلى قاعة جلس فيها عمرو بن العاص على وسادة. وفي يده درة (سوط) يلاعبها بين أصابعه، وليس في القاعة أحد سواه. فلما أشرف عبد الله على القاعة نزع حذاءه ودخل تواً إلى مجلس الأمير وهَمّ بتقبيل يده، فأمسكه ابن العاص بيمينه وأجلسه إلى جانبه وهو يقول بصوت منخفض: «لقد كانت نجاتنا على يدك فحق لك علينا التكريم، ولكن وقع صاحب شرطتنا في الشرك الذي كان منصوباً لنا، ولو علمنا الساعة أو المكان المعينين لتلك الفعلة الشنعاء لاستطعنا تداركها، أو لاطلعت خارجة على سر الأمر فربما كان نجا بنفسه، ولكني لا أظنه كان يستطيع ذلك وهو لا يعلم الزمان والمكان المعينين».

فقال عبد الله: «إن حياتي كانت رهناً ببقاء الأمر سراً، ولو أنه شاع لغير الغادر خطته تأخيراً أو تقديماً، وكنت أنا المقتول الآن بدلاً من خارجة، لأنك كنت تسيء الظن بي فتقتلني».

ولم يتم كلامه حتى دخل خادم يقول: «إن أبا خولة بالباب». فقال عمرو: «ادخلوه».

فدخل أبو خولة ولم يكن من مصاف الأمراء ولا من القواد الأنداد حتى تكون له تلك المنزلة عند عمرو، ولكنه نال الحظوة عنده عندما أطلعه على عزم ابن ملجم على قتل عليٍّ، وظل يتردد على دار عمرو ويبذل وسعه في خدمته حتى عده عمرو من أصحابه.

فلما دخل أبو خولة القاعة حيّا، وقبل أن يجلس قال له عمرو: «أغلق الباب، ومر الخدم ألا يأذنوا لأحد». ففعل ودخل. فدعاه عمرو إلى جانبه وعرف إليه عبد الله، فأُعجب أبو خولة به لأنه كان شاباً جليلاً مع نباهة وذكاء، وسر لما دبره عمرو من مصاهرته له. وأما عبد الله فكان خالي الذهن من كل هذا.

فلما جلس الثلاثة التفت عمرو إلى عبد الله وقال له: «لقد عرفتك بصاحبنا أبي خولة، وأزيدك علماً أنه من أعز أصدقائي، وقد كتمت أمر المؤامرة عن كل أحد سواه، ولكنني اشترطت عليه شرطاً أظنه يعود عليك بالمنفعة، وقد فعلته مكافأة لك على خدمتك لي».

فوقف عبد الله منادياً وقال: «أيأذن لي مولاي في كلمة؟».

قال: «قل». قال: «لا تحسب أيها الأمير أن لي فضلاً بما بحت لك به، فإني والحق يُقال إنما فعلته استبقاء لحياتي، فلا تظنني أخدعك أو أخدع نفسي».

فأُعجب عمرو بصراحة عبد الله وقال له: «لم تزدني بما قلت إلا رغبة في مكافأتك، إن ابن العاص لا يجهل قدر الرجال وليس من السذاجة بحيث لا يدرك أنك لو لم تقع في يده وتشعر بالخطر على حياتك وبألا نجاة لك بغير إفشاء ذلك السر، ما أقدمت عليه. ولكني مع كل ذلك أقدر جليلك، وأريد مكافأتك. وقد رأيت من صدق قولك ما أكد لي أنك لو كنت من أنصارنا لكان لنا بك نعم النصير، وأنت أموي على ما علمت فليس تشيعك للعلويين معقولاً». قال ذلك وفي صوته غنّة استفهام كأنه يستفهم عن سبب تشيعه فسكت عبد الله. فقال عمرو: «ولكنك لم تسألني عن المكافأة التي أعددتها لك».

قال: «قلت إني لا أستحق مكافأة».

قال عمرو: «أمتزوج أنت؟».

قال: «كلا يا مولاي».

قال: «إذن فاعلم أن في الفسطاط فتاة يتحدث بجمالها وتعقلها أهل هذه المدينة، وهي ابنة صاحبي هذا (وأشار إلى أبي

خولة). ولا أخفي عليك أنها كانت مخطوبة لعبد الرحمن بن ملجم، وهو أحد المتآمرين على قتلي وقتل علي بن أبي طالب، ولا ندري ما كان من أمره اليوم فإنه الموعد المضروب».

ولما قال عمرو ذلك تذكر عبد الله ما كان قادماً من أجله مع سعيد وكيف فشلت مهمتهما فانقبضت نفسه ولكنه تجلد وصبر إلى آخر الحديث.

فأتم عمرو كلامه قائلاً: «إن خولة هذه كانت مخطوبة لابن ملجم، على أن يتزوجها بعد عودته من الكوفة، ولا ريب أن ذلك الخائن كان عالماً بتواطؤ عمرو بن بكر على قتلي فكتم ذلك، وسار ولم يطلعني على شيء منه، ولهذا عددته شريكاً في قتلي، فحرمته من خولة، ولي دالة على أبيها لأنها بمنزلة ابنتي، وقد خطبتها لك منه، ومنى رأيتها تحققت أن قد أزوجناك زهرة الفسطاط وخير بناتها». ثم التفت عمرو إلى أبي خولة وقال: «ولا تظننا فرطنا في خولة، فإن هذا الشاب من سلالة الأمراء، ويكفي أنه أموي وبينه وبين الخليفة معاوية نسب قريب. أما الخائن ابن ملجم فإن عاد إلينا فلا أبقاني الله إن أبقيته حياً. ولكنني لا أظنه إلا مقتولاً في دار ابن أبي طالب فاز في مهمته أم لم يفز». قال ذلك والغضب بادٍ على وجهه. ففرح عبد الله بما ناله من الحظوة في عيني عمرو، وارتاح لما سمعه عن خولة، ولكنه بقي قلقاً على ابن عمه سعيد، وما كان من أمره بعد أن فارقه في مسجد الفسطاط يوم اجتماع عين شمس. وحدثته نفسه أن يسأل عمرواً عنه مخافة أن يكون وقع في أيدي رجاله، ولكنه لبث ساكتاً يتردد، وقد نسِي اقتراح عمرو. فظنه عمرو غير راض فقال: «ما بالك لم تجب؟ لعلك لم ترض بخولة، والله إني أرضاها لأعز أبنائي».

فابتدره عبد الله قائلاً: «عفوك يا مولانا، كيف لا أرضى بما

رضيته أنت لي؟ وما سكوتي إلا لأني حسبت اقتراح الأمير أمراً نافذاً لا خيرة لي فيه، على أني أرجو أن تسألها هي رأيها في الزواج بغريب مثلي».

فقال أبو خولة: «إن خولة جارية مولانا الأمير، وما يرضاه لها لا مندوحة لها عنه، وأنا وهي طوع إرادته».

واستولى السكون عليهم لحظة، ثم التفت عمرو إلى عبد الله فقال: «كنت أظنكما اثنين جئتما معاً إلى الفسطاط، ولكنني لم أرَ سواكَ».

فاضطرب عبد الله، ونظر إلى عمرو وقال: «هذا هو الأمر الذي شغل بالي في أثناء حديث مولاي. إن رفيقي هو ابن عمي، وقد جئنا معاً إلى هذه المدينة ولكني يممت عين شمس وحدي وتركته في المسجد على أن أستطلع المكان وأعود إليه، فقبضوا عليَّ ولم أعد أعرف شيئاً عنه إلى الآن. فهل عثر الشرطة به فقتلوه؟».

قال عمرو: "لم أسمع عنه شيئاً، ولا أخبرني أحد بخبره، فقد يكون نجا بنفسه لما سمع بما وقع لكم في ذلك الاجتماع".

فهدأ روع عبد الله، ولكنه ظل مشتاقاً لاستطلاع حال سعيد وتمنى أن يسير تواً إلى الكوفة فيستطلع كل شيء ويتحقق ما وقع للإمام عليّ، ولكنه خجل من إبداء رأيه هذا لعمرو، ورأى أن يتظاهر بالرغبة في السفر للبحث عن ابن عمه فقال: «لقد أوضحت لمولاي ما أنا فيه من القلق على ابن عمي هذا، فهل يأذن لي الأمير بالذهاب إلى الكوفة لأستطلع حاله ثم أعود، وأكون في خدمتك إلى الممات فقد أوليتني جميلاً لا أنساه؟».

قال عمرو: «يكون ذلك بعد عقد قرانك بخولة، حتى إذا صرت من أصهارنا، كان لك أن تسير إلى حيث شئت».

وكان عمرو لدهائه وحُسن سياسته قد أدرك أن رجلاً حراً صادقاً مثل عبد الله لا يفرط فيه. لأنه إذا أخلص الخدمة كان نفعه عظيماً. فلم يرَ لكي يقيده خيراً من أن يبادئه بالجميل، وأن يزوجه ابنة صاحبه وهو يحسب خولة على دعوته فتحبب إليه الرجوع إلى حزب الأمويين. ولم يكن يعلم آنئذ هل نجح ابن ملجم في مهمته أم لا. فلما اقترح على عبد الله عقد قرانه قبل السفر، قبل عبد الله وأطاع، فضرب عمرو أجلاً لذلك وقال: «تقيم عندنا في أثناء ذلك ضيفاً كريماً، فإذا آن الزمن عقدنا لك على خولة ثم تنصرف للبحث عن ابن عمك».

فوقف عبد الله بين يدي عمرو يهم بتقبيل يده وقال: «لقد غمرني فضلك ولست بمستطيع أن أفي يدك عليَّ حقها». واستأذن في الخروج فأذن له.

وخرج أبو خولة أيضاً وهو يكاد يطير فرحاً لما رأى من خلق عمرو. وسره الخطيب الجديد لابنته، فسار تواً إلى المنزل وكانت خولة جالسة هناك على مثل جمر الغضا تتقاذفها الهواجس بعد أن تحققت نجاة عمرو وعلمت بما فرضه من زواجها بعبد الله. بينما هي تؤثر البقاء على حب سعيد وهو أول مَن وقع في نفسها مع عدم نفورها من عبد الله، فلما كان المساء وأبطأ أبوها في العودة إلى البيت قلقت ولبثت تنتظره بفارغ الصبر لعلمها أنه لا بد من مروره بعمرو على أثر ما كان من نجاته في ذلك اليوم. وحسبت لإبطائه ألف حساب. وأخوف ما خافته من ذلك الإبطاء أن يكون سببه البحث في أمرها وأمر عبد الله وهي لا تريد ذلك.

فلما انقضى العشاء ومضى بعده ساعتان سمعت قرع الباب فأسرعت دقات قلبها وعلت وجهها صفرة الوجل، وظلت مستلقية

على الوسادة في حجرتها. وما لبث باب الدار أن فتح. فاتجه أبوها تواً إلى غرفتها فقرع الباب فنهضت لتفتح له وركبتاها تصطكان من الاضطراب، فدخل والمصباح في يده فوضعه على مسرجة وجلس إليها وعلى محياه أمارات البِشر والسرور، وهو يحسب إن قد جاءها ببشرى عظيمة. فرآها مضطربة الحواس قلقة الخاطر رغم تجلدها، فقال لها: «ما بالك يا بنية ما الذي أزعجك؟».

قالت: «لم يزعجني شيء، ولكنني قلقت لغيابك وأنا وحدي في هذا البيت لا أرى فيه أحداً غير الخدم».

قال وهو يبستم: «لقد دنا الوقت فلن تكوني وحدك بعد الآن».

فتجاهلت مراده وقالت: «يظهر أنك علمت بما أقاسيه من الوحدة فعزمت على ألا تتركني وحدي؟».

فضحك لسذاجتها وقال لها: «ليس هذا قصدي يا خولة، ولكنني أذكرك باقتراح الأمير الذي اطلعتك عليه منذ بضعة أيام، فإنه قد تم اليوم بعد أن صدق قول عبد الله الأموي، فجمعني عمرو به الليلة في داره، فرأيته شاباً جميلاً عليه مهابة الأمراء، تتجلى الشجاعة والأنفة في وجهه. ويكفي أن الأمير سحر به وبالغ في إطرائه أمامي، فهذا هو خطيبك ومتى عقد قرانكما لا تكونين وحدك».

ولم يتم كلامه حتى صبغ وجهها حمرة الخجل وظلت صامتة، ثم أخذ العرق ينسكب عن جبينها كاللؤلؤ المنثور وهي مطرقة لا تفوه بكلمة.

ولم يكن الخجل وحده سبب اضطرابها كما ظن أبوها، ولكنها أصبحت كريشة في مهب الريح حائرة بين أن تطيع عواطفها وبين أن تطيع أباها وأميرها. ولو أنها لم تبعث إلى سعيد مع بلال بخبر حبها له

لكانت المعضلة أيسر، وقد علمت أنها إذا رفضت عبد الله رفضاً باتاً تغضب عمروا وأباها. وهي مع ذلك لا تدري مصير سعيد ولا ما آلت إليه مهمته بعد خروجه من الفسطاط مع بلال، ولم تر فرجاً إلا بالاصطبار

فصبرت حتى يعيد أبوها السؤال فتستمهله.

أما هو فلما آنس فيها ذلك الاضطراب حمله محمل الخجل، وهو أمر عادي في الفتيات في مثل هذه الحال. فوضع يده على شعرها المسدول على كتفها وقال لها: «لا تخجلي يا بنية، إن أباك هو الذي يخاطبك، وقد تم الأمر على يد الأمير وهو شرف كبير لنا لو تعلمين».

فأجابت وهي مطرقة وقالت: «وهل ضرب لذلك أجلاً؟».

قال: «لقد ضرب أجلاً لذلك أسبوعاً».

قالت: «فليكن ثلاثة أسابيع».

قال: «وما الداعي إلى هذا التأجيل فإني أخشى أن يغضب عمرو فأطيعيني وعليَّ تبعة ذلك. فإن عبد الله فتى قلما يجود الزمان بمثله، وإني بمصاهرته لفخور فلا محل للاعتراض». قال ذلك وفي كلامه شيء من الخشونة على عادته معها إذا أصرّ على أمر. فخافت سوء العقبى إذا جادلته فسكتت وأظهرت الارتياح. فلما رآها هكذا قال لها: «بورك فيك يا بنية، بعد أسبوع تتم معدات الزواج».

فظلت مطرقة وقد عوّلت على اتخاذ وسيلة أخرى للتأجيل.

ـ ١٥ ـ
الزفاف الكاذب

أما عبد الله فأخذ في البحث عن بيت يقيم به، وبينما هو في

ذلك جاءه بعض رجال عمرو وأخبروه بأن الأمير قد أمرهم بأن يعدوا له منزلاً في داره ضيفاً عليه. فازداد عبد الله اعترافاً بجميل عمرو، وفرح لأنه غريب لا يدري أين يذهب. وتبع الرجل الذي كلمه إلى غرفة فيها فراش وغطاء وبعض الآنية، وسأله الرجل: «هل تحتاج إلى طعام؟». فاعتذر وسار تواً إلى فراشه.

ولما خلا بنفسه جعل يفكر في نجاته وصورة ابن عمه سعيد عالقة بذهنه لا تبرح ذهنه. على أنه اطمأن على حياته، وأحب أن يتم ما أتى الفسطاط لأجله ويعلم ما حدث للإمام عليٍّ.

وكانت ذكرى خولة تعترض تصوراته واشتاق رؤيتها والتحدث إليها، وقضى ليله هكذا.

ولما أصبح سار إلى المسجد فصلّى وهو يتوقع أن يرى أبا خولة لعله يدعوه إلى منزله فيتيسر له رؤية خولة ولو خلسة. وكان أبو خولة قد مرّ بالجامع في ذلك الصباح عمداً، فلقيه فسلّم عليه ودعاه إلى العَشاء فقال له: «إني في ضيافة الأمير ولا يليق بي قبول الدعوة إلا بعد استئذانه».

فقال: «أنا أستأذنه عنك».

قال: «حسناً». وافترقا. فمشى عبد الله في طرق الفسطاط وأسواقها، فمر ببيت خولة وهو لا يعرفه. وكانت خولة قد أصبحت في ذلك اليوم مضطربة قلقة، فخرجت تمشي في الدار فوقع نظرها على عبد الله وهو مار، ولم تكن رأته من قبل، ولكنها استنتجت من لباسه وقيافته وشبهه سعيداً أنه هو عبد الله خطيبها، فاختلج قلبها في صدرها ونفرت لأول وهلة، ولكنها أرادت أن تتبين حاله فتفرست فيه وهو ماش فرأته معتدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيته وسرت به لمشابهته سعيداً ولكنها ما لبثت أن نفرت منه لما تذكرت أنه

سيحرمها من حبيبها وما زالت تتبعه بنظرها حتى توارى ولم ينتبه.

وعادت خولة إلى غرفتها منقبضة النفس، وقضت نهارها لم تذق طعاماً. ولما كان الغروب آن موعد مجيء أبيها، وكان الخدم قد أعدوا المائدة له ولضيفه وخولة لا تدري. وما عتم أن دخل الدار، وسعل على عادته كأنه ينبه أهل المنزل إلى مجيئه. فتظاهرت خولة بارتياحها إلى قدومه ولكنها تمارضت وما لبثت أن رأت معه شاباً عرفت أنه عبد الله فخفق قلبها وسادها الاضطراب، وتوارت في حجرتها.

وأما أبوها فذهب بضيفه إلى قاعة الضيوف، وأجلسه هناك، وجاء إلى خولة فرآها مستلقية على الفراش، وقد امتقع لونها فتحفزت للنهوض وهي تتظاهر بالضعف. فقال: «ما بالك يا خولة؟».

قالت: «لا شيء، غير أني أشعر بانحطاط في قواي لا أدري سببه».

فدنا منها وهمس في أذنها قائلاً: «شددي عزمك فقد جاءنا ضيف عزيز».

فأجابت متجاهلة: «ما لي وللضيوف؟ إني لا أستطيع النهوض لمقابلة الضيوف».

قال: «إن الضيف أصبح من أنسبائنا ولا بأس من رؤيته نزولاً على أمر الأمير عمرو بن العاص».

قالت: «ولكنني منحطة القوى. دعني الآن وسأراه في فرصة أخرى وأنا في عافية إن شاء الله».

قال: «لقد كنت أظنك أكثر رغبة مني في رؤيته بعد أن أبلغتك أمر خطبتك له، أيليق بنا الآن أن نظهر له الجفاء».

فتحيرت خولة ولم تدر بماذا تجيبه وهي تخشى غضبه لما تعلمه من سوء خلقه وحمقه، فظلت صامتة.

فأمسك بيدها وأنهضها، فوقفت مرغمة وسارت معه مطرقة، فلما وصلا إلى باب الغرفة وقف وقال لها: «ضعي خمارك على رأسك وتشجعي واستقبلي الرجل بما يليق بأمثالك، لئلا يبلغ عمرواً عنا ما يدل على عصيان أمره فيغضب».

فرأت خولة من الحكمة أن تتجلد وتصبر إشفاقاً من غضب أبيها، فخفت إلى خمارها فوضعته على رأسها وأصلحت هندامها وخرجت في أثر أبيها حتى دخلا على عبد الله.

وكان عبد الله قد استبطأ مجيئها فحمله على محمل الخفر والدلال، وازداد شوقاً إلى رؤيتها ولو إلماماً. فلما أشرفت على الغرفة وتبين جمالها واعتدال قوامها انشرح قلبه وحمد الله على توفيقه بعد نجاته من الموت. فدخلت وحيت بما يجدر بمثلها في مثل هذا المقام، وجلست على وسادة بجانب أبيها. وكان عبد الله يسارقها اللحظ فلا يزداد إلا إعجاباً بها، ولم تمض تلك الليلة حتى علق بها ووقعت من نفسه موقعاً سامياً لما آنسه من جمالها وذكائها وتعقلها في أثناء الحديث مما يندر مثله في أمثالها من ربات الخدور. فخرج مأخوذاً بخولة.

قضى عبد الله بقية الأسبوع في مثل ذلك، وهو يتردد على بيت خولة ويزداد تعلقاً بها. ولما أزف يوم الزفاف دعاه عمرو إليه وقال: «أريد أن أعقد لك عليها في داري، وتقيما عندنا حتى يتراءى لكما غير ذلك». فعل عمرو ذلك التماساً لما عزم عليه من كسب عبد الله إلى حزبه، فشكر له عبد الله، ولما حل الميعاد زفت خولة إلى عبد الله، وعقد قرانه بها على العادة المتبعة، وعبد الله مفعم سروراً بهذا النصيب، ولولا ما يجول في خاطره من القق لغياب سعيد

والخوف على الإمام لكان أسعد خلق الله لأنه رأى في خولة ما طالما تاقت إليه نفسه في النساء من التعقل والرزانة مع الجمال والذكاء.

فلما انفض حفل العرس دخل العروسان إلى مخدعهما.

فلما خلا عبد الله بخولة تقدم لنزع الغطاء عن وجهها فأمسك النقاب ورفعه فأعادته إلى ما كان عليه، فظنها تداعبه فضحك وقال لها: «يلوح لي أنك لا تحبين عبد الله؟».

قالت وهي مطرقة: «يعلم الله أني لا أكرهه».

فمد يده إلى النقاب ثانية وحاول رفعه فمنعته. فتحير في أمره، وأمسك يدها وقال بلهجة الجد ونغمة المحب العاتب: «ما بال خولة تمنعنا مما أحله الله ودعانا إليه القلب؟».

وكانت خولة واقفة بجانب الفراش فابتعدت عنه وأسندت ظهرها إلى الحائط تبالغ في غطاء النقاب مطرقة ولم تحر جواباً.

فاستغرب عبد الله سكوتها وتمنعها وظن في الأمر خديعة، فأظهر الجد وهو لا يزال قابضاً على يدها حتى وقف بجانبها وقال لها: «ما الذي أراه يا خولة؟ ما الذي تحدثك به نفسك؟ إن كنت إنما تفعلين ذلك خفراً فهو غلو لا محل له وقد عقد قراننا بحضور أمير مصر ونخبة الأعيان والأمراء. وإن كنت قد أكرهت على القبول وأنت تحبين غيري فقولي».

فلما قال ذلك رفعت رأسها إليه، وجذبت يدها من يده بلطف وقالت: «نعم إني أحب غيرك، ولكنني قلت لك إني لا أكرهك بل أحبك محبة الأخ لا محبة الزوج».

فبغت عبد الله وعلته الدهشة، وكاد الغضب يغلب عليه لو لم يتجلد ليعرف جلية الأمر. فنظر إليها غاضباً وقال: «لقد رأيت منك

العجب، وأعجب منه احتقارك إياي مما لم أكن أتوقعه بعد عقد القران، هلا كشفت عن السبب؟».

فأمسكت النقاب وأزاحته عن وجهها وقالت: «إني لا أرى الحجاب واجباً بيني وبينك، ولا أنا خائفة من اطلاعك على ما في ضميري. ولكنني أسألك سؤالاً إذا أجبتني عنه بحت لك بسري».

فقال: «اسألي فإني مجيبك».

قالت: «كيف رضيت عقد قرانك وابن عمك غائب؟».

فقال: «وأي ابن عم تعنين؟».

قالت: «أعني ابن عمك سعيداً الذي جئت معه إلى الفسطاط، ألا يهمك أن تعرف ما آلت إليه حاله؟».

فاستغرب ذلك منها، ولم يكن يعلم اطلاعها على شيء من ذلك فقال: «من أين لك أن تعرفي ابن عمي وما جئت من أجله إلى الفسطاط؟».

فتنهدت وقالت: «عرفته بقدر من الله، وإني أعجب من نسيانك تلك المهمة التي جئتما من أجلها. هل تظن الإمام عِلِياً نجا من القتل؟».

فازداد عبد الله استغراباً، ونسي ما كان يعد به نفسه من قربها وهاجت به أشجانه، وتذكر ابن عمه فقال: «لقد أذهلتني يا خولة بما سمعته منك، فافصحي عما في ضميرك وأخبريني كيف عرفت ابن عمي وما العلاقة بينه وبين تمنعك الليلة؟».

قالت: «أتعدني بالكتمان وحفظ الذمام؟».

قال: «نعم أعدك وعداً صادقاً، فافصحي فليس لي صبر على هذه الرموز».

فتنهدت وعلت وجهها حمرة الخجل، وهمّت بالكلام فارتج عليها، وعبد الله يتأمل ملامحها ويراقب ما يبدو منها صامتاً، فلما لم يسمع منها شيئاً، قال لها: «بالله لا تطيلي السكوت فقد نفد صبري، قولي ما بدا لك وفرجي كربتي».

قالت: «أقول ولا أخشى لوماً أني أحببت سعيداً قبل أن أراك، وهو أحبني على ما أظن، وحبنا قائم على اشتراكنا في الذود عن الإمام عليٍ ما استطعنا. وقد ذهب سعيد ضحى الليلة التي أغرق فيها عمرو أصحاب عين شمس، وهو يظنك في جملة الغرقى. ولا أظنه إذا عرف بقاءك حياً إلا طائراً إليك من الفرح». وقصت عليه حديثها مع سعيد من أوله إلى آخره.

ولم تكد خولة تتم حديثها حتى استولت الدهشة على عبد الله، وخيّل إليه أنه في حلم. ولما تحقق أن خولة تحب سعيداً وثابتة على حبه، أحس لساعته أنه لم يبق له حق فيها. وازدادت رفعة في عينيه فقال لها: «اعلمي يا خولة أني أعدك أختاً لي من هذه الساعة، وإني سأبذل جهدي في جمعك بسعيد فإنه بمنزلة أخي. وقد أوصيت بكفالته وصية مقدسة، وقد أحسنت أنتِ بما بسطته من حقيقة حالك، وعلى هذا سأسافر غداً إلى الكوفة، لأبحث عنه وأستطلع ما جرى للإمام عليٍّ».

فابتدرته خولة قائلة: «لا تعجل يا عبد الله في ذهابك، لأننا لا نلبث بعد قليل أن نسمع الخبر من عبدي بلال الذي رافق سعيداً إلى الكوفة، فقد أوصيته بالعودة حالاً وأظنه يصل إلينا بعد أيام. وأما الآن فاكتم ما دار بيننا واجعل كأنك زوجي ريثما نرى ما يكون».

فالتفت عبد الله إليها وقد ازداد إعجاباً بحميتها وثبات جأشها، وقال: «إني أهنىء أخي سيعداً بمثلك، وأرجو أن يكون قد

نجا من مكايد الغادرين». وقد أراد بذلك قطام، فإنه ما زال يسيء الظن بها وقد أدرك أنها هي التي وشت بهما إلى عمرو بن العاص.

فقالت: «إني أتوقع رجوع بلال لأسمع منه ما آلت إليه حال الإمام عليٍّ ومعاوية. هل نجا أحد منهما. أما عمرو فقد نجا والفضل في ذلك راجع إليك».

فقال: «ولكنني إنما بحت بذلك لعمرو فراراً من الهلاك، ولم أذكر له المؤامرة على قتل معاوية لئلا يبعث إليه بمن يحذره فينجو».

قالت: «إني لم أُلُمك قط. فهذه مشيئة الله. فالآن لا بد من الصبر فامض إلى فراشك وأنا أفترش هذا البساط».

قال: «لا والله إنك لا تبيتين إلا على الفراش وأنا أَولى بهذا البساط».

وباتا تلك الليلة، وقد سرت خولة بنجاتها مما كانت تخشاه. وأما عبد الله فإنه بات معجباً بخولة كل الإعجاب وقد أسِف لحرمانه منها بعد أن عرف فيها هذه الخصال. ولكنه فرح لأنها ستكون من نصيب سعيد.

وأصبحا في اليوم التالي والناس لا يعلمون إلا أنهما زوج وزوجة، وظلا مقيمين في دار الأمير حتى قدرت خولة دنو الوقت الذي كانت تتوقع رجوع بلال فيه، فاستأذنت في المضي إلى بيت أبيها مخافة أن يأتي بلال في أثناء غيابها فيطرده أبوها أو يتهدده فلا يراها هناك فيعود من حيث أتى.

فوافقها عبد الله على ذلك، واستأذنا عمروا في الذهاب إلى بيت أبيها فأذن لهما فاستقبلهما أبوها بالترحاب.

ولم يمض يومان على مكثهما في بيت خولة حتى قدم بلال،

وكان وصوله إلى الفسطاط في أثناء النهار، وأبو خولة في حانوته، وكان بلال قد دخل الفسطاط متنكراً فمر بحانوت سيده ونظر إليه خلسة فلما وجده هناك هرول إلى البيت ودخل تواً إلى غرفة سيدته بلا استئذان، فوجد عندها شاباً لا يعرفه، ورآها بجانبه كأنها جالسة إلى شقيق أو قرين. فبغت لذلك ولكنه أخذ بما آنسه من ترحابها به فقالت له: «أغلق الباب وادخل». ففعل ودنا منها وهو ينظر إلى عبد الله شزراً. فأدركت خولة ما يجول في خاطره فقالت له: «لا تسىء الظن، إن هذا أخي بعهد الله فاقصص علينا خبرك، وقل لنا بادىء ذي بدء كيف فارقت الإمام عليّاً؟».

فسكت ولم يجب، فألحت عليه وقد ذُهلت، فأجابها بصوت مختنق: «إن علِياً ذهب ضحية الغدر».

فدقت خولة يداً بيد وصاحت: «والَهفي عليك يا أبا الحسن». وقال عبد الله مثل ذلك. ثم قالت: «وماذا جرى لابن مُلجم؟». قال: «إنه قُتل شر قتلة وأُحرق بالنار لعنه الله».

فقال عبد الله: «وكيف فارقت سعيداً؟».

قال: «فارقته بخير وعافية وقد سار للبحث عن تلك الخائنة اللعينة».

قال عبد الله: «أوَتعني قطام؟».

قال: «نعم، وما أدراك، إني أعنيها؟ وكيف عرفتها؟».

قالت خولة: «ألم تعلم مَن هذا؟». قال: «كلا».

قال: «ألم يذكر سعيد أمامك أنه فقدَ ابن عمه هنا؟».

قال: «بلى». قالت: «هذا هو عبد الله ابن عمه».

فبهت بلال وغلب عليه البكاء من الفرح وصاح: «أنت حي يا

مولاي؟ مَن لي بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك؟ والله إني حاملها إليه الساعة بعد أن أسر إلى سيدتي كلاماً أؤتمنت عليه».

فالتفتت إليه وقالت: «قل يا بلال، ليس على عبد الله سر، فهو أخي كما قلت لك. قل كيف فارقت سعيداً؟».

قال: «فارقته يا مولاتي وهو مشتاق لرؤيتك، ولم يأت معي مخافة أن يكون عمرو قد نجا من المكيدة فلا يأمن على حياته. وقد علمت وأنا مار في الفسطاط الساعة أنه نجا وقُتل غيره خطأ، ولا أدري كيف حال سيدي معك فلا آمن عليكما منه».

قالت: «اعلم يا بلال أن ابن العاص نقم على ابن ملجم ورضي عني، وهو يحبني حبه لأولاده، وهو لا يعرف سعيداً ولا أبي رآه، فإذا جاء لم يكن عليه بأس وشأنه في الفسطاك شأن كل غريب يدخلها. فاقصص علينا خبر ابن ملجم والإمام عليٍّ وكيف قتله».

ثم أمرته بالجلوس فجلس متأدباً وقص عليهما الخبر. فلما بلغ إلى حديث قطام وما أرادته من قتل سعيد هاجت في نفسها الغيرة والانتقام وقالت: «قبح الله هذه المرأة، إني أعرفها وأسمع بدهائها فكيف انطلت حيلتها على سعيد؟».

فابتدرها عبد الله قائلاً: «إني والله توسمت فيها الشر عندما رأيتها». وقص عليها ما كان من أمره معها، فانكشفت لهما الحقيقة وشكرا الله على نجاة سعيد، ولكنهما حزنا على مقتل الإمام عليٍّ، ثم استدركت في حديثها فقالت: «وهل سمعت شيئاً عن معاوية؟».

قال: «لقد مررت بدمشق في طريقي فعلمت أنه نجا أيضاً. وقص عليها خبره كما سمعه فعجبت لأحكام القضاء كيف تسامح بقتل عليٍّ وتبقى على معاوية وعمرو، ثم قال عبد الله: «وأين سعيد الآن؟».

قال: «هو في انتظاري بدمشق، فإذا أمرت مولاتي عدت إليه حالاً وجئت به على عجل، وأرجو أن يكون قد ظفر بتلك الخائنة وانتقم منها، وإذا لم يظفر هو بها فلست أنا بتاركها حتى أنتقم منها لما ارتكبته من الإجرام».

قالت خولة: «بورك فيك يا بلال، فاذهب الآن وأت بسعيد على عجل».

فقال: «وهل آتي به إلى بيتك هنا؟».

فاستصوبت خولة سؤاله، لأن مجيئه إلى بيت أبيها يعقد الأمور، فنظرت إلى عبد الله كأنها تستفتيه في الأمر فأشار إليها بأنه يريد البحث معها في ذلك سراً.

فالتفتت إلى بلال وقالت: «اخرج الآن قبل أن يأتي أبي وهو ناقم عليك، لاعتقاده أنك فررت بالجَمَلَين من داره، وانتظر عبد الله في المسجد الليلة وهو ينبئك بما تفعل».

- ١٦ -
العزم على الكوفة

خرج بلال وبقي عبد الله وخولة على انفراد فقالت خولة: «وما العمل يا عبد الله؟ أخاف إذا جاء سعيد وأردنا الطلاق أن ينفتح علينا باب للأخذ والرد ونحن نود كتمان الأمر فما الرأي؟».

قال: «أرى أن نلتمس من عمرو الإذن بالخروج من الفسطاط والذهاب إلى الكوفة، فقد كنت طلبت منه ذلك فأخرني إلى ما بعد عقد القران. فهم لا يعرفون الآن إلا أنك امرأتي، والرجل يذهب بامرأته حيث شاء. فإذا سرنا إلى الكوفة وأوصينا بلالاً بأن يوافينا بسعيد إلى هناك عقدنا قرانكما هناك، ولا رقيب علينا ولا واشٍ. وإذا طاب لنا أن نعود إلى الفسطاط عدنا بعد ذلك وإلا فإننا نقيم بالكوفة

إلى ما شاء الله».

فصمتت خولة برهة تفكر في الأمر، فرأت عبد الله مصيباً فقالت: «نِعم الرأي رأيك، ولكنني اعتدت الحياة في الفسطاط وألفت الإقامة بواديها ولي فيه الأهل والأصدقاء، فإذا أتيح لي البقاء فيها كان أولى وأبقى».

قال: «لا أنكر ذلك، وهو ميسور لك فيها، وأما الآن فلا أرى خيراً من الذهاب إلى الكوفة».

قالت: «أخشى ألا يأذن أبي في ذهابنا إلى الكوفة فهو يريدني أبداً بقربه، وليس له سواي فلا أخاله يرضى بغير إقامتنا هنا».

قال: «نحتال ونتملقه حتى يأذن لنا ولو بعد حين، ونوصي بلالاً بأن يخبر سعيداً أن يبقى بانتظارنا حتى نأتيه».

قالت: «افعل ما بدا لك وعلى الله التوفيق».

قال: «فلنعد الآن إلى دار الأمير، فإن خروجنا من عنده أسهل، لأنه هو الذي وعدني بإخلاء سبيلي للبحث عن ابن عمي سعيد، فأذكره بوعده ولا أظنه يمنعنا من السفر».

قالت: «نبيت الليلة هنا ونصبح إلى دار الأمير».

قال: «حسناً». فلما كان العصر خرج إلى المسجد، فوجد بلالاً في انتظاره فأوصاه بأن يذهب بسعيد إلى الكوفة ويبقى بها حتى يأتيا إليه، فسُرّ بلال وابتسم وقال: «هذا ما كنت أرجوه يا مولاي، لأني أقدر على الانتقام من قطام اللعينة إذا كنت بالكوفة».

فضحك عبد الله وقال: «وأوصيك إذا أنت ظفرت بها بألا تعفو عن عجوزها لبابة فإنها شرّ منها».

ولما رأى عبد الله نفسه بباب المسجد، والصلاة قائمة والناس

يدخلون أفواجاً، دخل مع الداخلين، فرأى ابن العاص على المنبر يعظ الناس وهم صامتون، فوقف حتى انتهى عمرو من خطبته وانقضت الصلاة، فهمّ بالخروج. ولم يكد يبارح صحن المسجد حتى اعترضه بعض الشرطة قائلاً: «تمهل يا مولاي إن الأمير يستوقفك لأمر يريد أن يخاطبك في شأنه».

فقال: «وأين الأمير؟».

قال: «كان في المسجد، وقد ذهب الآن إلى داره من باب في المحراب».

قال: «وهل يريد مقابلتي الآن؟». قال: «نعم».

فاضطرب عبد الله وخاف أن يكون قد وشى به أحد ممن اطّلعوا على مهمته في الفسطاط، ومشى حتى أقبل على مجلس عمرو، وكان إذا وصل إلى المجلس دخل بلا استئذان. فلما هَمّ بالدخول اعترضه الحاجب قائلاً: «تمهل حتى نستأذن لك». فوقف عبد الله ودخل الحاجب ثم عاد فقال: «إن الأمير يريد الخلوة بك هذه الليلة، فإذا أتيت في العِشاء تعالَ وحدك».

فاستغرب عبد الله ذلك الشرط، وأشكل عليه المراد منه، فاستزاد الحاجب إيضاحاً وسأله: «هل المراد أن آتي وحدي من غير خولة؟».

قال: «أظن هذا هو مراده، فإنه قال: (ليأت وحده لكلام سألقيه إليه على انفراد)».

فعظم الأمر على عبد الله وحسب لذلك ألف حساب. ولم تكن الشمس قد مالت إلى الغروب فعاد إلى البيت والهواجس تتقاذفه وظهرت عليه علامات القلق، فلما أقبل على خولة ورأت على وجهه

آيات الاضطراب ابتدرته قائلة: «ما بالك يا عبد الله؟ ماذا أصابك؟ إني أرى في وجهك قلقاً، قل رعاك الله ما أوجب ذلك؟».

قال: «ليس هناك ما يوجب القلق». واعتذر وأبهم.

فلم تقنع، ولكنها سكتت على أن تستطلع السر بلباقة بعد قليل. فقالت: «وهل رأيت بلالاً؟».

قال: «نعم وقد أوصيته بما يقوله لسعيد».

قالت: «وهل سافر؟».

قال: «أظنه يستريح الليلة خارج الفسطاط ويرحل في الغد مبكراً».

وفيما هما يتحادثان جاء أبوها والغضب بادٍ عليه وكانت خولة تعرف حاله تو النظر إليه. فلما رأته هكذا ازداد اضطرابها وجعلت تفكر في غضب الإثنين. فخطر لها أنهما تخاصما ولكنها لم تجد سبباً لذلك. ولم تجسر على سؤال والدها، ولم ترد أن تلح على عبد الله فتركت ذلك إلى الاختلاء به.

وبعد قليل حضر الطعام فجلسوا إليه وليس فيهم مَن يتكلم إلا تفضلاً.

فلما انتهى عبد الله من طعامه نهض وقال لخولة ولأبيها: «إني ذاهب في حاجة تقتضي غيابي ساعة». وكأن قوله جاء طبق ما يرجوه أبو خولة، فلم يسأله عن سبب ذهابه ولم يطلب منه التعجيل بالعودة.

فازدادت خولة حيرة وظلت ساكتة، ولم يخطر لها أن لذهاب عبد اللّه علاقة بما بدا لها في وجهه من الانقباض، ولكنها رافقته إلى باب الدار وتوسلت إليه ألا يطيل الغياب. فأجابها بأنه لا يدري متى يعود، ولم يشأ أن يبوح لها بسبب ذهابه ولا ترك لها فرصة

للاستفهام، فودعها وخرج وهو يسرع في مشيته، وأفكاره تائهة فيما عسى أن يكون غرض عمرو من دعوته إليه في مثل هذا الوقت.

ولما وصل إلى دار عمرو خفق قلبه مخافة أن يسمع من الحاجب خبراً جديداً يزيد بلباله فلم يزد الحاجب على قوله: «إن الأمير في انتظارك في غرفته».

فمشى عبد الله يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، حتى وصل إلى الباب فإذا هو مغلق فقرعه ووقف ينتظر فتحه فسمع خطوات تسرع نحو الباب يتخللها همس لم يفهم منه شيئاً. وبعد هنيهة فتح الباب فإذا بعمرو نفسه يفتحه بيده، فبغت لما رآه أمام عينيه وعلى وجهه دلائل الغضب. فحياه عبد الله فلم يزد عمرو على قوله: «وعليكم السلام». وسار إلى صدر الغرفة فتبعه عبد الله وهو ينظر إلى جوانب المكان لعله يرى أحداً، فلم يجد. فالتبس عليه الأمر لما سمعه من الهمس وهو واقف خارجاً. ولكنه رأى في جدار من جدران الغرفة باباً عليه ستار والباب يستطرق إلى غرفة أخرى فظن أن إحدى نسائه كانت عنده فلما علِم بقدومه صرفها من الباب الآخر واستقبله. وظل يفكر في ذلك وهو ماش في أثر عمرو. فلما جلس هذا على مقعده وقف عبد الله بين يديه ينتظر أمره بالجلوس، فأشار إليه فجلس على وسادة بالقرب منه وهو ينتظر ما يقوله وقد نفد صبره.

سكت عمرو لحظة وهو يعبث بدرة (سوط) كأنه يتشاغل بها عن قلق يخامر ذهنه، ففتح عبد الله الحديث قائلاً: «كيف حال مولاي الأمير، وما الذي يأمر به عبده فقد لبّيت دعوته وأنا راجٍ أن يكلني أمراً أقوم بقضائه جزاء لبعض ما له من اليد عليَّ؟».

فالتفت إليه عمرو وهو يمشط لحيته وقال: «إنما دعوتك لأسألك سؤالاً واحداً، وأرجو أن تصدقني الجواب بما أحسبني أجزلته لك

من الجميل وأبقيت عليك بعد أن رأيت الموت رأي العين».

فوقف عبد الله احتراماً وقال: «يعلم الله أني لا أنسى جميلاً أوليتني إياه، بإغضائك عن جريمة اقترفتها، ثم بإنعامك عليَّ بحياتي وهي خير هبة، فكيف لا أصدقك القول؟». قال ذلك وقلبه يخفق خوفاً من سماع ما قد يكون سبب نقمته عليه.

فأقعده عمرو وقال: «بلغني اليوم من مطلع على أحوالك أنك إنما جئت الفسطاط مع رفيقك سعيد للفتك بي فهل هذا صحيح؟».

فنهض عبد الله ثانية وقال ولهجة الصدق بادية على وجهه: «كلا يا مولاي، إن ما بلغته كذب وافتراء».

قال: «وما الذي جاء بكما إذن؟».

قال: «أما وقد سألتني، فاسمح لي بأن أقول الحق وأرجو منك أن تصدقني».

قال: «قل الصدق ولا تبال، فلا بأس عليك إلا إذا رأيت في كلامك عوجاً فلا تلم إلا نفسك».

قال: «أقسم برأس الأمير أني لا أقول غير الحق، ولكن حديثي طويل فهل أبسطه كله؟».

قال: «أجبني أولاً عن سؤالي موجزاً، فإذا رأيت ما يدعو إلى التفصيل طلبته. سألتك عما دعاكما إلى المجيء إلى الفسطاط والاجتماع بتلك الزمرة المعادية؟».

قال: «إنما جئت للبحث عن الغادر الطامع في قتل الإمام عليٍّ».

قال: «ولماذا؟». قال: «لكي أبذل جهدي في زجره وإنقاذ الإمام من الموت».

قال: «كيف تفعل ذلك وأنت أموي على ما أعلم؟».

قال: «لقد ألجأتني يا مولاي إلى بعض التفصيل. ألم تعرف جدي أبا رحاب؟».

قال: «بلى أعرفه وقد سمعت بوفاته قريباً».

قال: «نعم إنه مات وقد كان إلى يوم مماته يكره علياً ويدعو إلى قتله، ولكنه في يوم مماته استحلفني واستحلف ابن عمي سعيداً ألا نبغي شراً بعلي، بل إذا رأينا سبيلاً إلى الدفاع عنه أن نفعل، فلما سمعنا بالمؤامرة علمنا أن المتآمر من أهل مصر، ولكنا لم نعلم مَن هو فجئنا للبحث عنه وردعه بالتي هي أحسن. ولم نرَ سبيلاً لمعرفته إلا عن طريق أصحاب عين شمس لأنهم على دعوة عليٍّ».

فقال: «ألم تكن عالماً أيضاً بتآمر رفيق ابن ملجم على قتلي؟».

فقال: «بلى ولولا ذلك لم أستطع اطلاعك عليه».

قال: «وكيف لم تطلعني عليه حال قدومك؟ ألا تعلم أنك تعد شريكاً مع القاتل؟». قال ذلك ولحيته ترقص غضباً ولسان حاله يقول: «لقد لزمتك الحجة وتبينت خياتنك».

فقال: «نعم أعلم ذلك، ولكن حلمك قد وسعني من قبل فعفوت عما مضى وغمرتني بإنعامك، فإذا رأيت أن تعود إلى مطالبتي به كان لك الأمر. ولكنني لا أخال مولاي الأمير إذا عفا عن مذنب يعدل عن عفوه».

فلما سمع عمرو كلامه أفحم وسكت.

وشعر عبد الله عند ذلك بقوة انبثت فيه، وثارت الحمية في رأسه فهمّ بأن يستأنف الكلام فابتدره قائلاً: «لقد علمت أنك عرفت خولة قبل أن أخطبها لك، وأنها كانت عالمة بخبر المؤامرة فكيف لما

ذكرتها لك ليلة الخطبة تجاهلتها؟».

فارتبك عبد الله ولم يدر كيف يجيب، ولكنه ما لبث أن استرد رباطة جأشه، فاعتزم التزام الصدق على طول الخط فقال: «حاش يا مولاي أن أخدعك، فإني ورأسك وكل غال عندي، لم أكن أعرف هذه الفتاة قبل أن تذكرها لي».

قا: «وما تقول في اطلاعها على خبر المؤامرة؟».

فتحيّر عبد الله في الجواب، ولكنه تخلص فقال: «ليس لي أن أجيب عنها، فهي جاريتك ورهن إشارتك، فادعها للمثول بين يديك واسألها، ولا أشك في أنها تقول إلاّ الصدق. ولكنني أرغب إلى مولاي أن يخبرني عمن وشى بنا إليه لعلنا نكذبه بين يديك».

قال: «سأجمعكم جميعاً وأسمع حجتكم جهاراً، فإذا سمعت أقوالكم جازيت كلاً بما يستحقه. اذهب إلى فراشك عندنا، وعد إلينا غداً». قال ذلك ونادى «يا غلام». فدخل حاجبه فقال له: «خذ عبد الله إلى غرفة يبيت فيها الليلة وأتني به غداً متى دعوته». فقال الحاجب: «سمعاً وطاعة».

وخرج عبد الله والحاجب يسير أمامه، حتى دخل به غرفة في دار الأمير التمس فيها النوم، ولكنه لم يغمض له جفن طوال ذلك الليل.

وأصبح عبد الله حائراً، لا يدري أيخرج إلى الأمير أم ينتظر حتى يدعوه إليه. ولبث جالساً حتى الضحى وإذا بالحاجب قد جاء يدعوه إلى مجلس خاص عقده الأمير في غير مكان مجلسه العادي، فمشى وهو يفكر فيما عسى أن يكون أمر تلك الجلسة، ومَن هو الواشي، وهل تستطيع خولة الدفاع عن نفسها بما يضمن نجاتها.

ولاحت منه التفاتة إلى ساحة الدار، فرأى عبداً تذكر أنه رآه فيما مضى، ولم يلبث أن عرف أنه ريحان عبد قطام فاختلج قلبه وقال في نفسه: «إنها والله وشاية هذه الخائنة، وأظنها أرسلته إلى عمرو».

وما زال ماشياً يفكر في ذلك وقد زلزل زلزالاً عظيماً، حتى رأى الحاجب دخل من باب، فدخل هو في أثره، فإذا هو في قاعة تصدرها الأمير عمرو بن العاص، كأنه جالس للقضاء وعليه جبة بيضاء، وعلى رأسه عمامة كبيرة، وقد قعد الأربعاء على وسادة من الدمقس، وفي يده الدرة والسبحة معاً، فتقدم عبد الله نحوه وحيّاه دون أن يلتفت إلى سواه. فأمره عمرو بالجلوس، في فتور لم يعهده فيه في مقابلاته الأولى. فجلس عبد الله في بعض جوانب الغرفة، وأرسل نظره فرأى إلى جانبه أبا خولة، وعن يسار عمرو ثلاث نسوة قد أرسلن النقاب على رؤوسهن فلم يظهر منهن غير العيون من ثقوب فيه. فعرف منهن خولة ولم يكن يجرؤ على التفرس في الأخريين حياء. فجلس وهو يسترق اللحظ ويفكر، فخطر له أن إحداهما قطام، جاءت هذه المرة لإنفاذ حيلتها بنفسها. ثم ما لبث أن عرف الأخرى فإذا هي لبابة العجوز، فتحقق أنهما وشتا به وبسعيد. وكانت قطام قد خلعت الحداد على أبيها وأخيها بعد قتل الإمام عليٍّ، فارتدت كساء من الحرير الأحمر الفاقع المزركش بالقصب، من صنع فارس، لا يستطيع لبسه إلا الأغنياء. وكان نقابها مزركش الأهداب يدل على بذخ وترف. وتصور عبد الله جمالها وفصاحتها وحيلتها فعلم أنها غلبت عمروا على رأيه، فأخذ يتأهب للدفاع.

ومضت برهة والكل صامتون، وعمرو ينظر إلى الأرض والدرة في يده كأنه ينكت البساط بها، ويده الأخرى على لحيته يداعب شعرات منها بين أنامله، والاهتمام بادٍ في وجهه. ثم رفع بصره

ونظر إلى الباب ونادى غلامه، فدخل فقال له: «لا تأذن لأحد». قال: «سمعاً وطاعة». وخرج.

ثم التفت عمرو إلى أبي خولة وقال: «أهذا جزاء إحساني إليك يا أبا خولة؟».

فوقف أبو خولة وقد عرته الدهشة وقال: «ماذا حدث يا مولاي؟ إني ما زلت مخلصاً لك، خادماً لمقاصدك».

قال: «ربما كنت كذلك، ولكن خولة هذه (وأشار إليها) تواطىء الناس على قتلي، وتسعى في إنقاذ ابن أبي طالب».

فلما سمع أبو خولة قوله، مشى مسرعاً حتى أمسك ابنته وقال: «إني لا أعرفها إلا جارية من جواري مولاي، فإذا ارتكبت شيئاً من ذلك فإني أذبحها بين يديك». قال ذلك وجذبها كأنه يريد تقديمها لعمرو.

فقال له عمرو: «عد إلى مكانك، ودعها تتكلم، فإني لا أريد أن أعاقبها إلا بعد مقاضاة، فإذا صح ما قيل عنها كان القتل أخف قصاص لها».

فلما سمع عبد االله تلك اللهجة الشديدة، اختلج قلبه في صدره، وخاف عاقبة تلك الجلسة، ولكنه تجلد وصبر.

- ١٧ -
دعوى قطام على خولة

ثم التفت عمرو إلى خولة وقال: «ما قولك يا خولة؟».

فوقفت وقالت بصوت رائق وجأش ثابت: «ماذا أقول يا سيدي؟ وأنا لا أعرف التهمة التي وشى بها إليك الواشون. فإذا سمعتها ذكرت لك الحقيقة، ولك الأمر بعد ذلك، فإذا استوجبت

القتل فما أنا خير ممن قتل من رجال الإسلام في هذه الفتنة؟».

فعجب عمرو لتلميحها إلى الأحداث التي وقعت أخيراً فقال لها: «ما لك ولهذا الكلام يا خولة؟ قولي ما جوابك عن سؤالي».

قالت: «إذا كان الأمير حرسه الله قد جعل دمي حلالاً إن ثبتت التهمة عليَّ فلا أقل من أن أسمع التهمة الموجهة إلي».

قال: «صدقت وسأمد لك في حبل الدفاع حتى تبدي كل ما لديك منه، ولا أظنك إلا مقرة بجنايتك، لأنها ثابتة ثبوت النور في النهار». قال ذلك ثم أمرها بالجلوس، فجلست.

فقال عمرو وقد وجّه حديثه إلى قطام: «ما قولك يا قطام في خولة، وما تعرفينه عنها؟».

وكانت قطام لما ارتاح بالها من أمر عليٍّ وقتله، وعلمت مما دار بين خادمها وبين بلال خادم خولة أنها تحب سعيداً وهي التي وجهت عبدها معه واستحثته في الوصول إلى عليٍّ قبل انقضاء الأجل المضروب لقتله، قد حملتها الغيرة، وهاجها حب الانتقام وطاوعها خلق السوء الذي فطرت عليه أن تأتي الفسطاط لتشي بها وبسعيد، وهي لا تشك أنها تثبت الخيانة عليها فتتقرب بذلك من عمرو فتنال حظوة في عينيه، فتقيم عنده مكرمة أو يتزوجها أحد أبنائه. وكان عمرو يعرفها من قبل، فأسرعت إلى الفسطاط ومعها عجوزها وعبدها، فوصلت إليها أمس، وأسرعت إلى عمرو وبشَّرته بمقتل الإمام عليٍّ، ووشت إليه بخولة وأنها كانت متواطئة مع سعيد على إنقاذ الإمام عليّ، وإنهما كانا يعلمان خبر المؤامرة على عمرو وسكتا عنها، وقد كانا يستطيعان لو أخلصا له أن يطلعاه عليها. فأعارها عمرو أذناً صاغية، وبعث إلى عبد الله كما تقدم. ثم رأى من الحزم أن يجمعهم ويسمع أقوالهم قبل إصداره حكمه.

فلما قالت خولة قولها، وطلب عمرو من قطام أن تبسط التهمة، نهضت ومشت خطوتين نحو الأمير، وثوبها المزركش يجر وراءها تيهاً وبذخاً، ثم وقفت وقالت بلسان مبين: «أما ما يسألني الأمير عنه فلا أحتاج في إثباته إلى دليل. وتفصيل الأمر أن مولاي الأمير يعلم إخلاصي له ورغبتي في خدمته، حتى إنني عندما سمعت بمجتمع العلويين في عين شمس بعثت إليه رسولاً يخبره خبره. ولو لم أجد من أبعثه في تلك المهمة لجئت بنفسي. ولم أذكر هذا الدليل الصغير إلا تدليلاً على إخلاصي. أما خولة واطلاعها على خبر المؤامرة فأمر لا شك فيه لأني أعلم علم اليقين أن سعيداً ورفيقه هذا (وأشارت إلى عبد الله) لما قدما الفسطاط كانا عالِمين بخبر تلك المؤامرة، وقد سمعت ذلك منهما بأذني. وهما إنما أتيا للإجتماع بالعلويين. وبعثت يومئذ عبدي بخبر ذلك إلى مولاي الأمير، فلما عاد عبدي أخبرني أن جند الأمير قبضوا على العلويين، وأن عبد الله وسعيداً في جملتهم. ولم يكن يعلم أن سعيداً نجا بمساعدة خولة هذه، أما أنا فإني عرفت ذلك لما عاد سعيد إلى الكوفة مسرعاً، لاطلاع عليٍّ بن أبي طالب على خبر المؤامرة، غيرة منه عليه. وقد ترك حياة الأمير عمرو بن العاص في خطر. وكان رفيقه في عودته بلالاً خادم خولة هذه، فإنه صحبه إلى الكوفة، وهناك التقيا وعبدي ريحان، واتضح له من خلال الحديث أن بلالاً وخولة عالِمين بسر الأمر. ولما لم ينجح مسعاهما في إنقاذ عليٍّ، قنعا بأن يكون مولاي حرسه الله قد أصيب بما أصيب به ذاك. ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه من مخالب الموت وحرسه بعين عنايته، فترى يا مولاي مما قدمته أن خولة كانت عالمة بخبر المؤامرة، كما كان يعرفها عبد الله وسعيد، فلو كانت مخلصة لمولانا الأمير ما كتمتها عنه».

فقال عمرو: «وما الذي يثبت لنا أن سعيداً وعبد الله كانا عالِمين بالمؤامرة على قتلي لما أتيا الفسطاط؟».

وكانت لبابة العجوز صامتة إلى تلك الساعة، فلما طرح عمرو هذا السؤال ابتدرته هي قائلة: «لا شك أنهما كانا عالِمين لأنهما أخبرانا بها ليلة سفرهما إلى الفسطاط».

كانت قطام تتكلم وخولة مطرقة تفكر بماذا تجيب. أما عبد الله فإنه لعن الساعة التي أتت فيها تلك الخائنة، وخاف على خولة أن تتلعثم أو تفحم بالأدلة التي قامت على إتهامها.

أما أبو خولة فلم يكد يسمع حديث قطام حتى استشاط غضباً، وصاح في خولة بأعلى صوته: «الله عليك يا خائنة، لقد فهمت الآن تلاعبك ونفاقك». ثم التفت إلى قطام وقال: «متى لقِي عبدك عبدي مع ذلك الرجل في الكوفة؟».

قالت: «ليلة ١٧ رمضان».

فأطرق برهة ثم اقترب من خولة وجذبها بيدها إلى وسط القاعة وقال لها: «لقد انكشف لي القناع الآن وعلمت سبب سفر بلال، فقد أرسلته مع حبيبك ليساعده على إنقاذ أبي تراب (عليٍّ بن أبي طالب). وقلت لي: (إنه فرّ بالجمَلَين). والواقع أنه أخذهما معه ليركب هو ورفيقه». ثم التفت إلى عمرو وقال: «إن ابنتي يا سيدي تستحق القتل، فاقتلها أو دعني أقتلها بين يديك».

فوقف عبد الله وقد ثارت فيه الغَيرة على خولة، وهو يظن سكوتها خوفاً أو ارتباكاً، لأنه لم يرَ ملامحها من وراء النقاب، فأمسك أباها وقال برزانة وسكينة يخاطب عمرو: «ألتمس من مولاي الأمير وقد أمر أن تكون خولة زوجة لي، أن يوقف أباها عند حده، فهو الآن لا يملك من أمرها شيئاً. أما إذا اقترفت هي ذنباً يستوجب

قصاصاً فالأمر فيه لمولاي وليس لأحد سواه».

وكان عمرو قد اقتنع بثبوت الجريمة على خولة، ولكنه أحب أن يسمع دفاعها، ورأى عبد الله يتكلم بحق وعدل، فقال لأبي خولة: «دع خولة فأنت كما قال عبد الله لا تملك من أمرها شيئاً».

فتنحى أبو خولة وهو يلهث ويدمدم، ولحيته ترتعش على صدره. وتنحى عبد الله أيضاً وخولة لا تزال واقفة. أما قطام فقد أزاحت خمارها فبان الابتهاج على وجهها لنجاح مهمتها.

فقال عمرو: «ما بالك يا خولة لا تدافعين عن نفسك؟ أليس ما قالته قطام عنك صحيحاً؟ هل كنت عالمة بخبر المؤامرة على قتلي؟».

قالت: «نعم».

قال: «وهل عاونت سعيداً على إنقاذ الإمام عليٍّ، فأرسلت معه خادمك وجَمَلَيك؟».

قالت: «نعم كل ذلك صحيح».

فتعجب عمرو وسائر الحاضرين من صراحة إقرارها، وقد كانوا يتوقعون إنكارها أو تلعثمها أو سكوتها. فلما رآها تجيب بهذه الصراحة قال لها: «وكيف تظهرين الغيرة على صاحب الكوفة (عليّ) مع علمك أن أباك لا يريد ذلك، ثم لا يخطر ببالك أن تخبري أباك بالمؤامرة على قتلي لكي يطلعني عليها؟ ألا تعلمين أن عملك هذا يُعد خيانة تستوجبين عليها القتل؟ وها إني لا أزال أطيل لك حبل الدفاع لأسمع كل أقوالك، فأخبريني كيف تكونين على غير ما يريده أبوك وأمير البلاد؟ وكيف تسعين في إنقاذ عليٍّ بن أبي طالب ولا تسعين في إنقاذ أمير مصر؟».

وقبل أن تهم خولة بالجواب اعترضتها قطام قائلة: «أرى

مولاي الأمير يتعب نفسه بما لا طائل تحته. هل بعد قرارها الصريح شيء؟ وهل لهذه الخائنة من دواء إلا القتل؟».

قالت خولة وهي تنظر إلى قطام شزراً: «سوف يتضح مَن هي الخائنة، وقد كان يجدر بك التأدب في حضرة الأمير، فإنه أعلم منك بقواعد الحكم».

ثم وجهت خولة خطابها إلى عمرو وقالت: «أرجو من الأمير أن يطلق للساني الحرية لأقول كل ما يجول في خاطري».

قال: «قولي ما بدا لك».

قالت: «أما سبب مخالفتي أبي في رأيه وتحزبي للإمام علي، فلأني صادقة مخلصة في فكري وقولي، وهو المنحرف المتقلّب. وما كنت لأصف أبي بهذا العيب لو لم يضطرني إلى ذلك».

قال عمرو: «وما معنى هذا؟».

قالت: «يعلم مولاي الأمير أن أبي رُبّيَ في نعمة الإمام عليٍّ، وأنا في حجره، مع إيماننا بأنه ابن عم الرسول ﷺ وأنه على الحق في أعماله». فأراد أبوها أن يقطع حديثها، فاعترضه عمرو وألزمه السكوت فقالت: «فلما كانت وقعة صفين كان أبي في جملة مَن خالفه من الخوارج في أمر التحكيم. فهو الذي انحرف عنه. أما أنا فظللت على رأيي ولا أزال عليه إلى اليوم».

فقال عمرو وهو معجب بشجاعتها: «ولكن عليّاً شارك الجهال في قتل الخليفة عثمان، فقتلوه ظلماً ونحن إنما قمنا نطالب بدمه».

قالت: «أما مقتل الخليفة عثمان فأرجو من مولاي الأمير ألا يلجئني إلى الخوض في شأنه، لأني ربما اضطررت إلى ما أتجنب ذكره».

قال: «وما الذي يخيفك بعد ما أبديته من الجرأة».

قالت: «يخيفني غضب الأمير لأمر يعلمه».

قال: «قولي كل ما يبدو لك ولا تخافي».

قالت: «أما مقتل الخليفة عثمان فلا أظن مولاي عمروا إلا من الراضين به».

فبغت عمرو وقال: «وكيف تقولين ذلك يا خولة؟».

قالت: «ألم يكن مولاي في جملة المحاصرين لعثمان؟ ألم تقل له: (لقد ركبت يا عثمان أموراً ركبناها معك، تب يا عثمان وارجع إلى الله). فأسمعك هو كلاماً جارحاً. ثم لما قال لك: (إني تائب). قلت له: (رأيناك تتوب ثم تعود)..».

قال: «وهل يؤخذ من ذلك أني كنت أريد قتله؟».

قالت: «كلا ولكنه يدل على أنك كنت ناقماً عليه».

قال: «إنما كنت ناقماً عليه ليرجع عن أعماله ويبقى على خلافته».

قالت: «لو كان هذا قصدك فقط لما فرحت بقتله؟».

فذهل عمرو من سعة اطلاعها على خفايا الأمور فسألها: «وما دليلك على ذلك؟».

قالت: «دليلي قريب إذا أمنني الأمير قلته».

قال: «قولي».

قالت: «ألم تكن في فلسطين يوم قُتل عثمان؟ فكنت إذا لقيت أحداً حرّضته على قتله؟ ألم تحرض عليّاً وطلحة والزبير عليه؟ ثم لما جاءك رجل أخبرك بمقتل عثمان، ألم تقل: (أنا عبد الله إذا حككت

قرحة نكأتها)..؟».

فلما سمع عمرو قولها استغرب جرأتها وغضب لتصريحها بأمور كان يود كتمانها، ولكنه كان قد أمنها. وكان داهية يحوّل الكلام كيف يشاء فقال لها: «لقد أعجبني دفاعك يا خولة ولكننا لسنا في معرض الدفاع عن عليٍّ أو عن عثمان، ولا يهمنا انحرافك أو انحراف أبيك، وإنما يهمنا اطلاعك على خبر المؤامرة على قتلي ثم سكوتك إلى آخر ساعة وأبوك بين يدي كل يوم فكأنك اشتركت في المؤامرة». قال ذلك وهو يحسب أنه سد عليها أبواب الدفاع. وكان أشد الناس خوفاً عليها عبد الله وقد خيّل إليه أنها لم تعد تستطيع دفاعاً بعد إقرارها السابق.

أما هي فهمّت بالكلام فإذا قطام تقول: «إني لأعجب من حلم الأمير، وما يرجوه من دفاعها عن ذنب اعترفت به صريحاً».

فلم تعبأ خولة بكلام قطام ولكنها أجابت عمرواً قائلة: «إني لا أنكر عليك عظم هذا الذنب بالنظر إلى ما كنت ترجوه من قيامي بأمر الخوارج وموافقة أبي على تأييد أمركم وتصديق دعواكم ودعوى معاوية من أنكم على الحق، وقد قدمت لمولاي أني فعلت ذلك وأنا على دعوة الإمام عليٍّ فذنبي من هذا القبيل لا يعد سيئاً بالنظر إلى ذنب هذه المرأة (وأشارت إلى قطام) التي إنما جاءت بهذه الوشاية غيرة عليك وضناً بحياتك فاتهمتني بالخيانة لأني كنت عالمة بخبر المؤامرة ولم أخبرك بها. فما الذي منعها هي عن إخبارك بذلك يوم أرسلت عبدها عبد السوء للوشاية بأصحاب عين شمس. فإذا كانت هذه المرأة صادقة في دعواها لم تكن هي أولى مني باطلاعك على ذلك الأمر؟ اسألها وانظر في جوابها».

فانتبه عمرو وكأنه صحا من ذهول فرأى خولة على حق في

دعواها فالتفت إلى قطام لفتة استفهام فلم يسمع منها جواباً. فقال لها:

«ما تقولين يا قطام؟ لماذا لم تخبريني بخبر تلك المؤامرة؟».

فارتبكت وأجابت مترددة وقالت: «لأني لم أكن عالمة بخبرها يومئذ». فظهر لعمرو التلاعب في كلامها، ولكنه أراد تحقق ذلك فقال لها:

«ولكنك قلت الآن إنك سمعت خبر المؤامرة منهما، فهل سمعته قبل إرسال عبدك إلينا أو بعده؟».

فانخدعت قطام بسؤاله فأجابت على الفور: «لم أسمعه إلا بعد سفر عبدي وكنت عازمة على إرسال غيره فلم أتمكن لمشاغل انتابتني».

فتقدم حينئذ عبد الله وهو يكاد يرقص فرحاً بخذلان قطام وقال: «ولكن عبدك يا مليحة لم يسافر من الكوفة إلا بعد سفرنا، لأنه إنما قدم الفسطاط ليخبر الأمير بخروجنا من الكوفة».

فأشار عمرو إليه فسكت، وعاد هو إلى السؤال فقال: «إن هذه العجوز ذكرت إنكما سمعتما الخبر منهما ليلة سفرهما. فما تقولين؟».

فغلب الحنق على قطام فقالت: «هذه عجوز حمقاء غلب عليها الخرف فلا يعتد بقولها».

فغضبت لبابة لعقوق قطام وإهانتها إياها على هذه الصورة، وهي تعتقد فضلها عليها فقالت لها: «أنا لم أقل ذلك إلا بعد قولك، تباً لك من خائنة. كيف تقولين أن الخرف غلب عليَّ وأنت إنما غلب عليك النفاق؟».

فاشتد حنق قطام ولم تعد تعي ما تقول لفشلها وخجلها فقالت: «اخرسي يا مجنونة ولا تتكلمي بين يدي».

فقالت لبابة: «بل أنت المجنونة وأنت الخائنة، وإذا لم تلزمي حدك أطلعت الأمير على سرائرك وفضحت أمرك».

فقالت: «وماذا عسى أن تقولي وأنت خادمة لا يعتد أحد بأقوالك؟».

وكانت لبابة قد تحققت وقوع قطام في شر أعمالها، فأرادت أن تخلص نفسها وتنجو بحياتها، فلم ترَ أهون عليها من التخلي عن قطام بفضح أسرارها فقالت على الفور: «إن أسرارك كلها في يدي، وإذا أذِن مولاي الأمير كشفت له عن كل شيء».

فسُرّت خولة وعبد الله بذلك الخصام. أما عمرو فرأى لدهائه وتعقله أن خولة ممن يحرص على صداقتها، وإنها إذا كانت على دعوته لا يخشى انقلابها. وأما قطام فإنها إذا أخلصت له اليوم لا يأمن أن تخونه في الغد.

فقال للعجوز: «قولي يا خالة ماذا تعرفينه؟».

فأخذت لبابة تسرد حديث قطام مفصلاً من أوله إلى آخره، والكل مصغون صامتون، ففضحت أسرارها، وعرف عمرو أن إرسالها عبدها إليه لم يكن حباً له ولا نصرة لحزبه، بل انتقاماً من سعيد وعبد الله. وتبين لديه أن هذين إنما اندفعا للدفاع عن عليٍّ بوصية جدهما أبي رحاب، واتضح له جلياً أن قطام خائنة لا يوثق بقولها ولا يُعتمد عليها، وأن بقاءها على قيد الحياة شر على العالمين. ولم يكن اعتقاده في لبابة بأحسن من ذلك لأنه رأى رأي العين فصمم على التخلص من كلتيهما.

وكانت قطام في أثناء حديث لبابة واقفة وقوف الصنم، وقد جمد الدم في عروقها واصطكت ركبتاها. وكانت في أول حديث لبابة تهم بتكذيبها وعمرو يسكتها، ثم سكتت من تلقاء نفسها، فلما فرغت لبابة من حديثها نادى عمرو: «يا غلام». فلما جاء حاجبه أمره أن يسوق قطام وعجوزها إلى السجن.

فلما خرجتا من المكان ساد السكوت هنيهة، وقد غرق عمرو في التفكير في خولة وشهامتها وصدق مودتها أنها إذا كانت على دعوته لا يخشى ضررها بل قد يكون أكبر عون له إذ يندر مثلها بين النساء، وغلب على اعتقاده أنها بعد مقتل الإمام عليٍّ لم يبق لها سبيل لنصرته، فلا مانع يمنعها من الإخلاص له هو، ولا سيما إذا عفا عنها وعن زوجها عبد الله.

وبعد السكوت هنيهة خاطبها قائلاً: «والآن ما قولك يا خولة، ما الذي نصنعه بك؟».

قالت: «لا أبالي يا مولاي أن تصنع بي ما تصنع بعد أن بسطت لك الحق فقد صدقتك القول، فإذا أمرت بقتلي فإني لا أزيد عدد الموتى ولا أقلل عدد الأحياء، ولا فائدة من بقائي ولا ضرر من مماتي، وقد ذكرت لك في أول حديثي أنه قد قُتل ودُرج تحت التراب مَن لا أقاس بأنملة من أنامله. فهل أنا أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان؟ أم أنا خير من ابن عم الرسول ﷺ؟ فإذا شئت فاقتلني وأرحني من حياة لا عدل فيها ولا حق. ولكنني أطلب إليك إذا قتلتني ألا تعفو عن تلك الخائنة الغادرة». قالت ذلك ودمعت عيناها.

فتأثر عمرو من صدق لهجتها وثبات جأشها فقال لها: «وإذا عفوت عنك؟».

قالت: «وإذا عفوت فالعفو من شِيم الكرام، وتكون حياتي هبة

من عندك».

فتقدم عبد الله للحال وجثا بين يدي عمرو وقال: «أرجو من مولاي أن يهبني حياة هذا الملاك الطاهر، كما وهبني حياتي فتكون يداً تُضاف إلى أياديه السابقة».

وكان أبو خولة واقفاً وقد سُحِرَ بما أبدته من الحمية والشهامة، وخجل لأنه لم يكن صادقاً في إخلاصه لعليٍّ مثلها. فلما رأى عبد الله يلتمس العفو لابنته تقدم هو أيضاً وقبّل يدَيّ عمرو وقال: «لقد كنت يا سيدي أشد نقمة منك على خولة، ولكنني أراها والله خيراً مني، وأراني أصغر منها فألتمس لها العفو أيضاً». قال ذلك ونادى خولة فدنت فقال لها: «قبّلي يد الأمير واستغفري لذنبك». ففعلت.

وتصافح أبو خولة وعبد الله، وعادا إلى مقعديهما، وقد تذكر عبد الله ابن عمه سعيداً وعلاقته بخولة، فقال في نفسه: «إنها فرصة لا ينبغي ضياعها». ثم خاطب عمروا قائلاً: «أما وقد وهبتنا حياتنا جزاء لصدق لهجتنا، فلا يسعني والحالة هذه إلا أن أتم الصدق بكشف سر لا يزال مكتوماً».

فلما قال ذلك علمت خولة أنه سيتكلم بشأن سعيد، فخفق قلبها وغلب الحياء عليها، فانزوت في بعض جوانب الغرفة.

أما عمرو فقال لعبد الله: «قل ما بدا لك».

قال: «أنت تدعوني الآن زوج خولة، وما أنا والله إلا أخوها».

فبغت عمرو وأبو خولة، وقال عمرو: «كيف ذلك وقد عقد قرانكما؟».

قال: «نعم إنها زوجتي في الظاهر، ولكنها لا تزال بكراً وقد آخيتها فهي أختي بعهد الله والرجل لا يتزوج أخته».

فازداد استغراب عمرو وقال: «وكيف ذلك؟ افصح يا عبد الله».

قال: «إن خولة أحبت ابن عمي سعيداً قبلي، ولا بد أنكم لحظتم ذلك من حديث قطام، ولكنني لم أعلم ذلك إلا بعد عقد قراننا، ونظراً إلى حبي الشديد لابن عمي، وقد كفلته لدى جدي أبي رحاب، فقد أمسكت نفسي عن خولة وآخيتها. وأعترف لمولاي الأمير، أننا تواطأنا على الخروج بحيلة من الفسطاط إلى الكوفة وسعيد ينتظرنا هناك فأزف له خولة».

فلما سمع عمرو كلامه ازداد إعجاباً بشهامته وصدق مودته، ونظر إلى أبي خولة كأنه يستطلعه رأيه في الأمر، فإذا هو لم يكن أقل إعجاباً بتلك الشهامة ولكنه لم يتمالك عن أن ينهض ويضم عبد الله إلى صدره وقبّل رأسه وقال: «بورك فيك من صديق صادق، أما وقد صارت خولة أختاً لك فاقض لها ما أنت قاض».

فقال: «إذا أمر مولاي بعثنا إلى سعيد في الكوفة مع بلال العبد، فيقدم إلينا».

فقال عمرو: «على الرحب والسعة». وأمر غلامه أن يمد عبد الله بما يريده ليتمكن من استقدام سعيد.

فجهز عبد الله رسولاً وكتب إلى سعيد يستقدمه ويبسط له واقعة الحال، وأوصى الرسول بأن يجعل طريقه على دمشق، فسعيد كان فيها فلعله لا يزال هناك.

واستأذن أبو خولة وابنته في الانصراف إلى بيته، فأذن لهما

فخرجا وخولة تفكر في قطام، وكانت قبل هذه الجلسة تريد الانتقام منها، ولكنها لما رأت ما كان من فشلها انفثأت حمأة انتقامها، على أنها تذكرت أن بلالاً أقسَم أن يقتلها، ناهيك بحقد سعيد عليها، فعوّلت أن تستعطفه لكي يعفو عنها ويكتفي بما أصابها من الفشل والإهانة.

وأما عبد الله فاستبقاه عمرو عنده بقية النهار، وبات تلك الليلة ضيفاً في دار الأمير، وقد ارتاح باله من كل جهة. ولكنه كان يفكر في قطام وما أصابها من البلاء وكيف سيقت إلى السجن مُهانة وقد انكشف أمرها وافتضح سرها، فخفت نقمته عليها واكتفى بأن تبقى مسجونة حتى يرى ما يكون من أمرها بعد قدوم سعيد.

وفي الصباح التالي بعث عمرو إليه ليتناول الطعام معه فذهب، وفي أثناء تحدثهما في شأن قطام وعجوزها، ذكر عبد الله ما يجول في خاطره من الشفقة عليها فقال له عمرو: «والله إنه حلم لم يسبقك إليه معن، وما ظنك بخولة هل تقول مثل قولك؟».

قال: «لا أظنها على رأيي».

ـ ١٨ ـ
الجريمة والعقاب

أحب عمرو أن يعرف رأي خولة في قطام فلما جاءت سألها عن رأيها فيها، فقالت مثل قول عبد الله.

فقال لهما عمرو: «إني والله لأعجب من هذا التوارد في خواطركما، وإنه دليل صريح على طيب عنصركما، وقد كنت قاتلها لو أردتما قتلها لأنها شريرة تستحق القتل. فأرى إذن أن أسجنها في سجن مظلم لتذوق جزاء ما جنته يداها».

ثم نادى غلامه فحضر فأمره أن ينقل قطام إلى سجن مظلم وأن يأتي بالعجوز إليه.

فذهب الغلام ثم عاد مضطرباً وجلاً.

فقال له عمرو: «ما وراءك هل فعلت ما أُمرتَ به؟».

قال: «لا يا مولاي». قال: «ولماذا؟».

قال: «لأني وجدت الغرفة مفتوحة، وليس فيها غير جثة المرأة العجوز».

قال عمرو: «وقطام؟». قال: «لم أقف لها على أثر».

فصاح عمرو: «تباً لتلك اللعينة الخائنة، هيا بنا ننظر في الأمر بأنفسنا».

ونهض لساعته، وتبعه عبد الله وخولة، حتى أتوا باب الحجرة التي كانت قطام مسجونة فيها. فإذا بالعجوز صريعة لا حراك بها، فأرسل عمرو إلى طبيبه ليرى رأيه في وفاتها فجأة، ففحصها هذا وقال: «إنها ماتت خنقاً بعد جهاد وعراك فإن في فمها حجراً ملفوفاً بمنديل سدّ القاتل به فاها لئلا تستغيث فيسمعها الحراس فينكشف أمره».

فقال عمرو: «ومتى كان ذلك؟».

قال: «أظنه وقع في منتصف الليل أو نحوه».

ففحص عمرو باب الحجرة وعاين خلعه، فتبين له أنه خُلع من الخارج لأنه رأى آثار الأداة التي عولج بها ظاهرة في ظهر الباب فقال: «يظهر أن لقطام شريكاً، لأن يداً عالجت الباب وفتحته، فمن فعل ذلك يا ترى؟».

وكان عبد الله يشارك عمروا في الفحص، فلما سمعه يشير إلى خلع الباب انتبه لساعته وقال: «لقد كشفت الغامض وعرفت القاتل، إنه ريحان عبد قطام، فقد رأيته في دار الأمير أمس، ولم أسمع أن

الأمير أمر بالقبض عليه، فلعله اندسّ وخلع الباب وساعد سيدته على قتل العجوز انتقاماً لها أو خوفاً من لسانها».

فقال عمرو: «لقد أصبت، إنه ذلك العبد بعينه، ثم أمر بالجثة فحُملت ودُفنت، وعاد الجميع آسفين لفرار تلك الخائنة من أيديهم.

وأمر عمرو رجاله أن يبحثوا ويأتوه بها.

أما بلال فإنه لما بعثه عبد الله لينتظره مع سعيد في الكوفة، سار إلى دمشق ولقي سعيداً فروى له ما قر القرار عليه، واستنهضه للمسير إلى الكوفة، فاستمهله يومين ريثما يقضي بعض حوائجه. وفي أصيل اليوم الثاني حملا أحمالهما وخرجا على جَمَلَيْهما، على أن يبيتا في غوطة دمشق ويستأنفا سفرهما إلى الكوفة في الصباح.

وبينما هما أمام باب المدينة المؤدي إلى الغوطة إذ لقيهما رسول عبد الله القادم للذهاب بهما إلى الفسطاط، وهو يعرف بلالاً فأوقفه ودفع الكتاب إلى سعيد فقرأه وهو لا يكاد يصدق لعظم فرحه بالقبض على قطام وبرضاء عمرو وشوقه إلى خولة.

وأما بلال فأسِف للقبض على قطام في غيبته، مخافة أن يعفي عنها أو أن يقتلها أحد سواه وهو يريد أن يتولى أمرها بيده.

فقال سعيد للرسول: «كنا في طريقنا إلى الغوطة لنبيت فيها ونصبح ووجهتنا الكوفة، فأرى بعد أن حملنا أحمالنا أن نظل في طرقنا إلى الغوطة فنبيت هناك، ونصبح في الغد نلتمس الفسطاط، فساروا جميعاً حتى وصلوا قُبيل الغروب إلى بحيرة صغيرة حولها أشجار الحور تهب عليها ريح ناعمة فيسمع لأغصانها حفيف يمتزج بتغريد الطيور مما يشرح الصدر ولا ترى مثله إلا في تلك الغوطة».

وبعد المغرب حطوا أحمالهم، واشتغل بلال ورفيقه بإعداد

العَشاء.

وكان بلال يعرف صاحب البستان، وقد نزل عليه ليلة قدومه من الفسطاط، فترك سعيداً والرسول ومشى بين الأشجار في الظلام يلتمس طريقه إلى بيت البستاني فما لبث حتى ضل الطريق لتكاثف الأشجار، وجعل يتلمس على غير هدى ويزداد بعداً عن رفيقيه حتى أصبح بينه وبينهما ميل وبعض الميل وهو لا يدري، فوقف ينظر من بين الأشجار لعله يرى نوراً أو يتبين المنزل، ولبث برهة يعمل فكره ويحاول أن يعرف الجهة التي ترك فيها رفيقيه لكي يعود إليهما.

وفيما هو في ذلك إذا بصوت أجفله وهو هدير جمل، أعقبه هدير جمل آخر، فعلم أن القادمين رَكْبٌ أمسى عليهم المساء قبل الوصول إلى المدينة. فمكث ينتظر وصولهم ليستأنس بهم ويسألهم عن الطريق. فأسند ظهره إلى شجرة وتطاول بعنقه ليتحقق الجهة التي منها الصوت. فسمع لغطاً وكلاماً فأصاخ بسمعه فإذا بقائل يقول: «دعنا ننزل هنا يا ريحان، فإذا أصبحنا دخلنا دمشق لأني أخاف أن يشك في أمرنا إذا دخلناها في الظلام، ألا تظننا في أمان هنا؟».

وسمع الجواب: «نعم يا مولاتي».

فاقشعر جسمه عند سماعه ذلك الصوت إذ عرف فيه صوت قطام تخاطب ريحان وهي خائفة، وتأكد أنها آتية فراراً من سجن الفسطاط.

وكانت قطام لما أرسلت إلى سجنها حقدت على لبابة كما مر. ونظراً إلى ما فطرت عليه من اللؤم والقسوة لم يكن أسهل عليها من قتل لبابة. وكان ريحان يومئذ واقفاً في دار الإمارة، فلما رأى سيدته ولبابة سائرتين مخفورتين علِم أنهما في ضيق، فراقب القوم ببصره حتى عرف الحجرة التي حبسوهما فيها. وأعمل ذهنه لإنقاذهما،

وكانوا عند وصولهم إلى الفسطاط قد نزلوا في دار الامارة فاحتال في إخراج الجمال والأمتعة إلى مكان خارج الفسطاط. ولما توسط الليل غافل الناس وجاء إلى سجن قطام وأخذ يعالج الباب، فسمع لغطاً فإذا هو خصام احتدم بينها وبين خادمتها. فاستعجل فتح الباب بالعنف ودخل، فلما رأته قطام أشارت إليه أن يساعدها في قتل لبابة فصاحت هذه: «تباً لك يا ظالمة يا فاجرة، إني أتوب إلى الله عما ركبت في سبيلك من الذنوب. وأما أنت فلا نجّاك الله من عواقب آثامك و». فابتدرها ريحان فسد فاها وخنقها، وخرج بسيدته من باب كان قد أعده باسترضاء بوابه. فلما بعدا عن الفسطاط تحول بها إلى مأمن كان قد أعده عند موقف الجِمال. فركبا وهي تثني على شهامته. فخيرها في الجهة التي تسير إليها فاختارت دمشق، لأن فيها نفراً من أهلها كانوا قد هجروا الكوفة بعد وقعة النهروان وفشل الخوارج وأقاموا بدمشق.

فسارا حتى أتيا الغوطة في تلك الليلة بعد وصول عبد الله ببضع ساعات كما مر.

فلما تأكد بلال أنهما قطام وريحان لم يعد يقر له قرار من فرحه. وقال في نفسه: «لقد أجاب الله سؤالي. والله إني سأذيقها الموت بيدي هذه. وجسّ جلفته فرأى الخنجر فيها. فلبث مستظلاً بالشجرة ليرى ما يكون منهما. فإذا هما قد سارا خطوات قليلة حتى أتيا إلى قناة لانحدار مائها خرير وبجانب القناة شجرة من الصفصاف يستظل بها المارة في أثناء النهار. فنزلا عن الجمَلَين واستظلا تحت القبة كالعادة وأوقد ريحان النار ثم قال لمولاته: «استريحي يا سيدتي ريثما أعلم البستاني وآتي إليك ببعض الزاد والفاكهة وأنت هنا في مأمن، فقالت له انصرف ولا تطل الغياب». فانصرف.

وكان بلال واقفاً ينظر إليه. فلما رآه توارى نظر إلى قطام على بصيص النار فإذا هي قاعدة وقد كشفت عن وجهها وعنقها وشمرت عن ساعديها، ثم رآها نهضت وضفائرها مدلاة على كتفيها وظهرها وفي أطراف الضفائر دنانير معلقة إذا تصادمت في أثناء المشي سمع لها رنين. ومشت إلى حافة القناة ودمالجها وخلاخلها تخش خشيشاً. فخاف بلال إذا أبطأ أن تفوته الفرصة، فوثب عليها وهي تهم بالجلوس على حافة القناة وأمسك بطوقها وجذبها إليه فوقعت على قفاها فجثا على صدرها. فصاحت: «ريحان». وقبل أن تتم كلامها وضع بلال قبضته في فمها وقال لها: «لم يبقَ لك في هذه الحياة إلا دقائق قليلة، فاعلمي قبل أن تفارقيها أني بلال خادم خولة وسعيد، وإني منتقم للإمام عليٍّ». فأشارت إليه أنها تريد الكلام فاستل الخنجر وصوّبه إلى عنقها وقال لها: «تكلمي بهدوء، وإذا رفعت صوتك أغمدت هذا الخنجر في عنقك».

قالت: «ارحمني يا بلال واشفق على حياتي».

قال: «لا يرحمني الله إن رحمتك، فقد ضافرت ابن ملجم وحرضته على قتل شابين من خيرة الشبان. ولكن حيلتك فيهما لم تنجح. وأخيراً جئت الفسطاط لإغراء أميرها بخولة.. كيف أرحمك يا خائنة؟».

قالت: «ذلك قد مضى يا بلال وأنا تائبة بين يديك، فاعف عني، ولك كل ما أملكه».

قال: «هل يتوب الهر؟! أما العفو عنك فوالله لو عرفت قصاصاً أعظم من القتل لقاصصتك به، لأن القتل قليل على فاجرة خائنة مثلك».

فهمّت أن تجيبه فأدرك أنها تماطله ريثما يعود ريحان.

فقال لها: «اعلمي يا قطام أني قاتلك انتقاماً للإمام عليٍّ». قال ذلك وأغمد خنجره في عنقها وأسرع فاحتز رأسها وترك الجثة ولها شخير رنّ في أذنيه إلى مسافة بعيدة. وكان لما رأى القناة قد تعرف إلى الطريق المؤدي إلى مقر سعيد، فانسل بين الأشجار وقد أمسك الرأس من جدائله وتركه يتدلى والدم يقطر منه.

وكان سعيد ومعه الرسول قد استبطآ بلالاً، وشغلا عليه. فلما سمعا وقع أقدامه صاح سعيد فيه قائلاً: «أين الفاكهة يا بلال، لقد استبطأناك وغلب علينا الجوع».

فلم يجبه بلال، ولكنه ظل ماشياً حتى وقف أمامه ورمى الجمجمة بين يديه وقال: «هذه فاكهتي».

فأجفل سعيد ونظر فإذا هو رأس قطام بأقراطه وضفائره، فاستغرب الأمر، وسأله عن تفصيل الخبر.

فقال: «ليس هذا وقت السؤال، هلم نخرج من هذه الغوطة الآن، فإذا أمنا عيون الحكومة أخبرتكما الخبر».

فنهضوا ولم يذوقوا طعاماً، وركبوا جمالهم واستحثوها جهد طاقتهم، وهم تارة يصعدون تلاً، أو ينزلون غوراً، وآونة يغوصون في الماء، وطوراً يدوسون الأشواك أو تتصادم رؤوسهم وأكتافهم بغصون الأشجار حتى انتصف الليل فانتهوا إلى سهل قليل الأغراس وقد بعدوا عن دمشق فواصلوا السير إلى الفجر، وتحققوا أنهم أمنوا العيون.

جلسوا للاستراحة على مصطبة بالقرب من عين ماء جارية، وسعيد في شوق شديد إلى سماع تفصيل مقتل تلك المرأة.

فقصّ بلال حديثه وقلبه يرقص فرحاً. وإتماماً لأسباب سروره

أخرج الجمجمة من جراب كان قد خبأها فيه ووضعها على المصطبة بين يدي سعيد وكان شعرها قد تجمد بالدم، والعينان مطبقتان والشفتان مفتوحتان عن أسنان كاللؤلؤ، ومسحة الجمال لا تزال تتجلى في محيًا تلك المرأة مع صفاء اللون واصفراره وما تلطخ به من الدماء.

مدّ سعيد يده إلى جبين جمجمة قطام، ولمسه فإذا هو بارد كالثلج فقال: «آمنت بالله كأنه سبحانه وتعالى قد كتب لي ألا ألمس هذا الجبين إلا وهو ميت وقد كنت أشتاق لمسه منذ أعوام». ثم وجه خطابه إلى الجمجمة وقال: «أأنتِ قطام بنت شحنة؟ وقد جاز دهاؤك ومكرك على مئات من الرجال. أبهاتين العينين فتنت ابن ملجم كما فتنتني؟ وبهاتين الشفتين أغريته بقتل الإمام كما فعلت معي. إنك ستلاقينه عاجلاً في مكان لا تخفى فيه خافية، في مكان تنال فيه كل نفس جزاء ما قدمت».

ثم التفت إلى بلال وقال: «ماذا نعمل بهذه الجمجمة؟».

قال: «نحملها إلى الفسطاط لأضعها بين قدمي خولة ذلك الملاك الطاهر».

قال: «لا أظنها تُسرّ بهذا ولا أنا سُررت به. وزد على ذلك أن هذه الجمجمة لا تصل إلى الفسطاط إلا بعد أن تنتن وتتصاعد منها رائحة تنفر منها النفس».

فأطرق بلال هنيهة أسفاً لحرمانه حمل الرأس إلى خولة ثم قال: «فاسمح لي إذن أن أحمل أثراً منها».

قال: «وما هو هذا الأثر؟».

قال: «أقطع الأذنين وفيهما الأقراط وأقص هذا الشعر وفيه

ضفائر الذهب».

قال: «لك ذلك فافعل».

ثم قرروا أن يستريحوا هناك ويتناولوا الغداء ثم يبرحوا المكان إلى الفسطاط.

عاد ريحان من عند البستاني وقد أعد كل ما ترتاح إليه سيدته من الفاكهة والأطعمة وأمر البستاني أن يشوي بعض اليمام. ولما دنا من الخيمة سمع شخيراً كشخير النائم وكانت قطام إذا نامت شخرت وهو يعرف فيها ذلك. فقال في نفسه لعلها غلبها النوم على أمرها من شدة التعب. ودنا منها فإذا هي بجانب القناة والظلام حالك والنار التي أوقدها قد خمدت فلم ينتبه لحالها. فقال في نفسه: «لأنيرنّ الشمع وأعد الطعام ريثما تفيق». فأنار الشمع. ولاحت منه التفاتة إلى سيدته فرآها تتحرك فأقبل إليها فإذا هي تختلج اختلاج النزع وقد أصبحت جثة بلا رأس، ورأى دمها قد عكّر القناة. فبغت ولطم وجهه ووقف لحظة يفكر فيمن عسى أن يكون قد فعل ذلك، فقال في نفسه: «لا بد أن يكون قد حدث هذا بإيعاز من عمرو بن العاص، والقاتل قد فرّ الآن ولا سبيل إليه. فإذا أنا صحت وجمعت وجمعت الناس تقع التهمة على رأسي».

فتحيّر في أمره ثم تذكر ما ارتكبته قطام من الفظائع كأنه يحاول أن يلتمس لنفسه عذراً إذا تخلى عنها. فرأى أنها أقدمت على جرائم تستحق القتل على كل واحدة منها. وتذكر ما وراءها من المال الكثير والحلي الثمين، وأنه هو وحده يعرف مخبآتها في الكوفة. فطمع في الميراث وصمم على اغتنام الفرصة فهم بما عليها من الحلي فنزع الأساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها، وجمع ما في جيوبها وصناديقها من غالي الثمن وخفيف الحمل. وتركها غارقة في دمها

ولسان حاله يقول: «ذلك جزاء القوم الظالمين». ودخل الشام في الصباح التالي فاشترى أثواباً تنكر فيها، وقصد الكوفة فأخرج ما خبأته قطام هناك من الأموال، وابتاع لنفسه ضيعة أقام بها.

وأعد البستاني الطعام وحمله وفيه الجبن والفاكهة والخبز في كيس من القش، وجاء إلى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيفة لأنها كانت كريمة تعطي الناس بسخاء. ولكنه ما وصل إلى الخيمة حتى رأى الحال كما ذكرنا، وليس هناك إلا جثة قطام وكانت قد همدت وسكن شخيرها واختلاجها. فلا تسل عن رعبه لما رآها في تلك الحال. فقال في نفسه: «لا شك أن جماعة أقوياء تجرأوا على هذا العمل، وقد فعلوا ما فعلوا ونجوا بأنفسهم، وإذا أنا أظهرت هذه الجثة جلبت على نفسي البلاء، فما لي إلا أن أحتفر لها حفرة أخفيها فيها».

فاشتغل بالحفر وهو يحاذر أن يراه أحد أو يسمع فأسه. ثم دفن الجثة وأخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقي من الأمتعة إلى بيته، وساق جَملاً كان باقياً هناك، وكتم خبر تلك الحادثة عن كل إنسان.

- ١٩ -

طلاق... وزواج

أما وفد الفسطاط فلما أشرفوا عليها من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو في وسط المدينة كالبدر بين الكواكب، فأرسلوا الرسول إلى عبد الله لينبئه برجوعهم، وأوصوه بأن لا يذكر له خبر قطام.

وكان عبد الله قد خلا له الجو، وصفا قلب الأمير له، ولكنه بقي مبلبل الخاطر على سعيد، وكلما تذكر فرار قطام من سجنها انقبضت نفسه، وكلما لقيَ خولة تحادثا بما مر بهما وذكرا سعيداً وتمنيا سرعة وصوله، وعبد الله يدبر أسلوباً يخبره به عن حقيقة حاله

مع خولة.

وفيما هو جالس ذات صباح في غرفته بدار الأمير، إذا برسوله قد أقبل فصاح به: «ما وراءك؟».

قال: «ورائي سيدي سعيد وبلال».

قال: «وأين هما؟».

قال: «تركتهما في سفح المقطم قادمين، وجئت لأبشركم».

قال: «أهلاً بالقادمين». ونهض لساعته وخرج على فرس أسرج له، ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جَملين فترجل بلال للحال وهَمّ بيد عبد الله فقبّلها.

فقال عبد الله: «بورك فيك يا أسمر وبورك بشهامتك». وهَمّ سعيد بأن يترجل فأشار إليه عبد الله أن يبقى على جَمله لينزلا معاً في دار الإمارة فساروا وسعيد يبتسم فقال له عبد الله: «ما الذي يضحكك؟».

قال: «يضحكني أننا ذاهبون إلى دار عمرو بن العاص، وقد كنا بالأمس نحاذر أن يسمع بنا أو يرانا».

قال: «لله في خلقه شؤون». ثم قال بصوت خافت كأنه يحاذر أن يسمعه أحد: «لو أراد الله نجاح مسعانا ونجاة الإمام عليٍّ كرّم الله وجهه لما أهمنا النزول بهذه الدار».

فقال بلال: «لا تذكرني بذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسي، ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عيني يضرب الإمام بذلك السيف المسموم، وقد كان بيننا وبين إنقاذه لحظة لو أراد الله لعجلها. ولكن الآجال مرهونة بأوقاتها».

قال: «ولكن الله سيجزي الظالمين، أما نحن فقد صرنا الآن

من حاشية ابن العاص، وهو والحق يُقال من دهاة العرب وكرامهم وكبار قوادهم».

وبقيا في مثل هذا الحديث حتى اقتربا من الدار فقال عبد الله: «لم أسمعك تذكر خولة. هل نسيتها؟».

فابتسم سعيد وقال: «كيف أنساها وأنا إنما جئت ألتمسها».

قال: «وماذا تلتمس منها؟».

قال: «لا أدري...».

قال: «أظنك تدري، ألا فاعلم أن خولة الآن زوجتي، وقد زوّجني بها عمرو».

فضحك سعيد وهو يظن ابن عمه يمازحه..

فتظاهر عبد الله بالجد وقال: «يلوح لي أنك لم تصدق قولي، فأقسم بالله وتربة أبي رحاب أن خولة قد زفّت إليّ، وعقد قراننا على يد الأمير. وإذا كنت لا تصدقني فاسأل كل من في هذه الدار عن ذلك».

فغلبت الشهامة على سعيد ولم يسعه إلا أن قال: «وما يمنع أن تكون زوجة لك؟ بورك لك فيها. ألستَ أخي ورفيقي وابن عمي؟».

قال ذلك وهو لا يزال يشك فيما سمعه من عبد الله.

ووصلا إلى الدار، فترجلا وسارا تواً إلى غرفة عبد الله، وبعثا إلى عمرو ينبئانه بقدومهما، فأمر بأن يستقبل سعيد في غرفة خاصة، وبعث إلى خولة وأبيها، فلما جاءا أقبل عمرو إلى الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجاً، فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيل يده والسلام عليه، فرحّب به ودعاه للجلوس.

فقال سعيد: «إذا أذن مولاي فليأمر عبده بلالاً بالدخول ليحضر هذه الجلسة».

فأمر بدخوله فانزوى في بعض جوانب الغرفة متأدباً وفي يده جراب من جلد.

وكان سعيد ينظر إلى خولة من تحت النقاب، ويفكر فيما سمعه من عبد الله وهو يتردد بين الشك واليقين.

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيداً قائلاً: «أظنكم تتوقعون أن تروا قطام سجينة؟».

فقال سعيد: «نعم يا مولاي».

قال: «ولكنها فرت من السجن وزادت ذنبها إجراماً بقتل خادمتها. وكنا قد أردنا استبقاءها مسجونة. أما الآن فإذا ظفرنا بها فلا قصاص لها عندنا غير القتل».

فلم يتمالك سعيد عن الابتسام، وقد ندم لأنه لم يصرح بالأمر بادىء بدء، وهَمّ بالكلام فاعترضه بلال مستأذناً. فسكت فتقدم بلال إلى عمرو وجثا بين يديه والجراب بيده وقال: «هل يأذن لي مولاي بكلمة أقولها؟». قال: «قل».

قال: «كيف ترجون القبض على قطام وأنتم لا تعرفون مقرها؟».

قال: «نطمع الناس في البحث عنها بمال كثير».

قال: «وكم تعطون مَن يقبض عليها؟».

قال: «نعطيه مائة دينار».

قال: «أتشترطون أن يؤتى بها حية؟».

قال: «سواء علينا. جاء بها حية أم ميتة».

قال: «وإذا جاء بخبر قتلها؟».

قال: «نقبل منه ذلك على أن يأتينا بما ثبت موتها».

فأخذ بلال يحل الجراب وهو يقول: «فليأمر مولاي الأمير بإعطائي مائة دينار». وما أتم قوله حتى أفرغ الجراب بين يدي الأمير ففاحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء وبلال يبحث فيه بإصبعه حتى وجد الأذنين وفيهما الأقراط.

فأجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيه عمرو: «ويلك ما هذا؟».

قال: «هذا هو شعر قطام ملطخاً بدمها. وهذه أذناها وأقراطها.

وإذا أخرجتموني جئتكم برأسها. فإني إنما تخليت عنه إجابة لأمر مولاي سعيد». قال ذلك ووقف وهو يشير إلى سعيد.

فقال سعيد: «نعم يا مولاي، أنا أشهد أن بلالاً قتل قطام وحده، واحتز رأسها وجاءني به وهو ينوي حمله إليكم، فأشرت عليه بأن يكتفي بهذا الأثر تخلصاً من نتن الرمة».

وكان الحضور قد بهتوا وهم ينظرون إلى الشعر والأذنين فأشار عمرو إلى بلال أن احمل هذه الأقذار من هنا. فأعادها إلى جرابه وتنحى.

فقال له عمرو: «لك عندنا مائة دينار».

فشكر وأثنى وقال: «إني أشكر مولاي الأمير على نعمته وأعترف بين يديه بأني لم أقتل هذه الخائنة لمال، وإنما قتلتها انتقاماً للعدل». وأراد أن يفصل ما أجمله فانتبه إلى أنه لا يجوز ذكر الإمام

عليٍّ في المجلس فاكتفى بما قال.

وتذكرت خولة أن أباها كان قد غضب عليها من أجل بلال، فاغتنمت هذه الفرصة لاكتساب رضا أبيها عنه فقالت: «يا بلال تقدم وقبّل يدَيّ سيدك». وأشارت إلى أبيها، فتقدم بلال وقبّل يده فلما هَمّ القوم بالإنصراف وقف عبد الله ووجه كلامه إلى عمرو وقال: «أشهد أيها الأمير أن امرأتي هذه طالق مني ثلاثاً» وأشار إلى خولة.

فأدرك سعيد أن ما قاله له صحيح وأنه كان قد عقد قرانه عليها. ولمح الأمير عمرو الاضطراب على وجهه فقال: «طب نفساً يا سعيد إنما كان الزواج صوَرياً وقد صحّ الموقف الآن بالطلاق». والتفت إلى أبي خولة وقال له: «إني أخطب خولة منك لسعيد؟».

فقال أبو خولة: «هي جاريتك يا مولاي فاصنع بها ما تشاء».

فأطرقت خولة حياء، وعندما آن الأوان عقد قران سعيد بخولة في مجلس عمرو فبارك لهما وهنأهما بالزواج.

وبعد أيام استأذن عبد الله ابن عمه سعيداً في الذهاب إلى مكة للإقامة بها مع ذويه، وودع خولة والأصدقاء وسار إلى مكة واقترن هناك بابنة عم له وعاش الجميع كلّ في مقامه عيشة لا يشوبها كدر إلا حين يذكرون مقتل الإمام عليٍّ. ثم حين سمعوا بعد ذلك عن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، فخرجت الخلافة من أهل البيت وصارت إلى بني أمية. وإنما فعل الحسن ذلك حقناً للدماء، ولم يتولَ الخلافة إلا ستة أشهر، فانتقل كرسيّها من الكوفة إلى دمشق، وبقي فيها إلى انقضاء دولة بني أمية.